احمد سليمان

سياحة فكر وجولات قلم

دار الفكر
للطباعة والنشر
ص.ب ١٧٤٧ - تلفون ٧٦٦٢٠-١ الخرطوم



احمد سليمان محمد احمد

- ولد في الرابع عشر من يناير ١٩٢٤ بمدينة أم درمان بالسودان .
- تلقى جزءا من تعليمه بكلية الآداب بالخرطوم ، ثم كلية الحقوق جامعة فؤاد الاول بالقاهرة .
- من مؤسسي الحزب الشيوعي السوداني ومن قادة حزب الجبهة المعادية للاستعمار .
- فصل من عضوية الحزب الشيوعي في عام ١٩٧٠ .
- تقلد عدة مناصب وزارية منذ عام ١٩٦٤ فقد كان وزيرا للزراعة والغابات واستثمار الاراضي والمياه الجوفية فوزيرا للاقتصاد الوطني والتجارة الخارجية ثم وزيرا للصناعة والتعدين وأخيرا للعدل .
- عمل سفيرا للسودان لدى الاتحاد السوفيتي ثم سفيرا بلندن ثم سفيرا لدى نيجيريا . ويشغل الآن منصب رئيس مجلس ادارة سودان رن للكيماويات والاسمدة .

مطابع دار ومكتبة الهلال
ص.ب: ١٥/٥٠٠٣ بيروت

سِيَاحَةُ فِكْرٍ وَجَوْلَاتُ قَلَمٍ

احمد سليمان

سياحة فكر وجولات قلم

دار الفكر
للطباعة والنشر
ص.بْ ١٧٤٧ ـ تلفون ١-٧٦٦٢٠ الخرطوم

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اجعلنا مهتدين هادين



١٩٨٤ م ١٤٠٤ هـ

مطابع دار ومكتبة الهلال
ص.ب: ٥٠٠٣/١٥ بيروت

تصدير

هذه الفصول

كثيراً ما أَلح عليَّ نفر من الأصدقاء الاعزاء أن أجمع المقالات التي نشرتها لي صحيفة الأيام الغراء تحت بابَيْ « اليوميات » و « حديث الأربعاء » في مجلدين أقدمهما لجمهور القراء .

وكان يتنازعني رأيان ، أحدهما للكاتب السوداني معاوية محمد نور والآخر للدكتور طه حسين . فمعاوية يعيب على الكتاب الناثرين إنعدام الفكرة الأساسية في كتاباتهم ، حيث يتلخص جل جهدهم في عدة مقالات نقدية وصفية تنشر بالصحف السيَّارة ثم تُجمع في كتاب وتُقدم للجمهور . ولم يسلم حتى ارباب الكلمة الافذاذ أمثال الدكتور طه حسين وسلامة موسى والدكتور هيكل من سوط عذابه ولهيب قلمه .

والدكتور طه ، من الجانب الآخر ، لا يرى بأساً من جمع مثل تلك المقالات في مجلدات ، وقد أشار الى ذلك في الكلمة التي قدم بها ، في عام **١٩٣٣** ، كتابه عن « حافظ وشوقي » والذي كان عبارة عن فصول سبق له نشرها منفردة متفرقة . وقال إنه لن يتردد في جمع هذه

الفصول واذاعتها بين الناس في كتاب وإنْ كانت قد نشرت ، وإنْ كان من الكتّاب من يضيق بمثل هذه الأسفار التي يجمع فيها أصحابها ما نشروا من فصول ويرى أن هذا النوع من الكتب أشبه بالحديث المعاد « ذلك لأن هذه الفصول التي نجمعها بعد أن نشرناها متفرقة لم تصل الى الناس جميعاً أو إلى أكثر من ينبغي أن تصل اليهم ، فليس كل الناس يقرأ الصحف والمجلات ، وليس كل المثقفين يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات ، ومن المحقق اننا نذيع الفصل اليوم فيقرأه فلان ولا يقرأه فلان ، لأنه جهله أو لأنه صُرف عنه لسبب من الاسباب . فإذا بَعُد العهد بهذا الفصل نسيه من قرأه ، ومضى في جهله من لم يقرأه ، ولم تشعر بوجوده هذه الاجيال الناشئة من الشباب الذين يفتحون عقولهم وقلوبهم للعلم والأدب والفن في كل عام . . . فمن الحق على الكاتب لنفسه ومن الحق عليه لهذه الاجيال الناشئة أن يجمع لهم هذه الفصول وأن يذيعها فيهم إذا كان لا يزال يرى إلا بأس باذاعتها واظهار الناس عليها » .

وقد إنتصرتُ اخيراً لرأي طه حسين ، وإن كانت كتاباتي ، مهما تطاولت ، لا ترقى الى حيث حذاء قلمه . وأضفتُ مسوِّغاً آخر لتلك التي عدّدّها قصدتُ به ردَّ الأذى الذي أصاب طرفاً من « يومياتي » ومن « حديث الاربعاء » وذلك بجمعها ونشرها بصورتها التي كانت عليها يوم أن دفعتُ بها الى مطبعة « الأيام » صريحة وجريئة .

ولعلني لا أجد تصديراً لهذا الكتاب الذي بين أيديكم خيراً من اقتطاف فقرة من مقدمة احمد حسن الزيات لكتابه (وحي الرسالة) الذي جمع فصولاً مما كَتَبَ لمجلته التي كانت مهبطَ وحيه ، وذلك لأن ما جاء في تلك الفقرة يصوِّر حالي مع فصول اليوميات وحديث

الاربعاء اصدق تمثيل . فقد ذكر الأديب الأريب أنه لم يكتب فصول (وحي الرسالة) طوعاً لتأثير قراءة أو تحرير فكره أو تخمير رأي (وإنما كان اثراً لوحي ساعته أو حديث يومه أو صدى إسبوعه . فالزمن جزء منه متمم لمعناه : يبينِّ ملابسته للحادث ، ويعينِّ مناسبته في التاريخ . لذلك أعقبتُ كل فصل بذكر اليوم الذي كتب فيه ليتضح موضوعه بفعله وحاله وظرفه .)

وإنْ كان لي أن أضيف شيئاً إلى ما أشرتُ اليه من كتابات الثلاثة الخالدين ، معاوية ، والزيات ، وطه حسين ، فهو وصف الكاتب برنارد كريك لمحتويات الباب الثابت في صحيفة « التربيون » الذي كان يحرره الكاتب الانجليزي الشهير جورج أرويل بأنه « بمثابة معهد للدراسات الاضافية ينهل منه قراء الصحف ويتلقون منه دروساً في السياسة والأدب » . وكانت فصول ذلك الباب قد جُمعتْ في كتاب شبيه « بوحي رسالة الزيات » و « باليوميات » . . . وأستغفر الله فما قصدتُ أنْ أساوي بين قلمي وبين يراع الناثرِيْن العبقريينْ الزيات وأرويل ، وإنما . . . .

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
إن التشبه بالكرام فلاح

الخرطوم في الثامن من فبراير ١٩٨٣

لكيما يستقيم العود

تفضل الأخ الكريم عميد معهد البحوث والدراسات الاشتراكية بدعوتي للاسهام مع آخرين في حلقة للنقاش ، موضوعها « فاعلية وحاكمية التنظيم السياسي » ، ومحلها معهد البحوث ، وميقاتها الاثنين القادم .

وقد رأيتُ نسبة لارتباطات سابقة تحول دون مشاركتي في الندوة أن أدلي بدلوي عبر منبر الايام الغراء ، وذلك بالرغم من نفوري وعدم استساغتي لمثل كلمتي الحاكمية والفاعلية اللتين أصبحتا كالعملة « المسهوكة » . . . ولا أظنني الوحيد الذي تضيق نفسه وينفر ذوقه الفني منها ومن شبيهاتها ومن ما تحتويه اللافتات التي تَزحم نواصي شوارع العاصمة من كلمات مصفوفة وشعارات مرصوصة وغير مفهومة عن هيمنة التنظيم السياسي وسيادته ، وعن تعلق الجماهير به . . . ومن أمثال ذلك اللافتة التي تحتل موقعا استراتيجيا عند أحد مدخلي كبري النيل الأبيض والتي تحمل شعارا لا معنى له ولا مبنى اذ تقرأ :

« التحزب خيانة لمبادىء الحوار الوطني »

ولعل في ازالتها وأمثالها ، أو استبدالها بشعارات ذات دلالة ومغزى ما يسهم في مضاعفة فاعلية الاتحاد الاشتراكي ومن ثم حاكميته .

وليغفر لي الاخوة الذين يشرفون على أجهزته التثقيفية والدعائية ، فما قصدت الا الاصلاح . . . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر .

لقد ظللنا منذ ميلاد الاتحاد الاشتراكي نسمع كثيرا ونقرأ كثيرا عن وجوب تعاليه على كافة تنظيمات الدولة والثورة ، وعن وجوب وحتمية حاكميته ، وستظل تلك مجرد رغبات وأمانيّ وهوى أنفسٍ لا تغنى عن الحق شيئاً ، مالم نغير من أسلوب عمله وادائه ، وسيبقى ذلك التنظيم عبئاً ثقيلاً يزحم حياتنا ، ويرهق جيوبنا ، مالم يقتنع الناس بجدواه وبقيمته السياسية والاجتماعية ، وبأنه البديل الأمثل للتنظيمات الحزبية التي بادرت الثورة بالغائها منذ عقد من الزمان . والتي مازالت تجد من يحنّ الى عهدها ، والى ممارساتها ومن يرنو ببصره نحو قادتها ، ومن يترقب عودتها ، ولن تجدي مجرد الشعارات في محاربة تعلق الناس بمؤسسات الماضي وولاءاته .

وكنت أحسب ان النقد الذي وجهه السيد رئيس الاتحاد الاشتراكي والتساؤلات التي طرحها ، والمناقشات التي دارت في لقاءات المكاشفة كفيلة بتبيان أوجه القصور والسلبيات في نشاطه ، ولا يبقى بعدها الا الانصراف الى العمل الجماهيري بوصفه الطريق لاستقامة اعوجاجه ، ولاستغلاظ عوده ولاستواء سوقه .

ومن قبل ولأكثر من سنة خلتْ ، وعِبْرَ مقالاتٍ سبع ، كتبت عن الاتحاد الاشتراكي ماله وما عليه ، وأشرت الى النقائص والسلبيات في العمل القيادي والقاعدي . وأشرت الى الضجة المفتعلة حوله ،

وحـول شعاراتـه وحـول قيـادتـه ، وعن الشلل والتكتـلات ومـراكـز القـوى ، ومواقـع النفوذ ، وعن انـطوائه وبعـده عن الجمـاهـير التي يفترض ان يكون قائداً لها وخادماً .

ولا أعتقد أن هناك مجالاً لزيادة حديث . فلن تفلح النـدوات وان كثرت في اصلاح السلبيات . ولن تنجح مهـما تعددت في كسب ثقـة الناس به ، وجذبهم الى رحابـه ، والاستظلال بـراياتـه . ولن يتسنى للاتحاد الاشتراكي تحقيق ما يصبو اليه من قيادة الجماهير الا اذا تغلغل بين صفوفها وتلاحم مع تنظيماتها وتجمعاتها ، يحس نبضها ، ويعيش معاناتها ، يتقبل نقدها ويتعلم من تجربتها . ذلـك أن أخطر أمـراض التنظيمات الطليعية الحاكمة انعزالها وانطوائيتها وجنوحها الى العمـل الداخلي ، إذ أن والنتيجة الحتمية لكل ذلك تبلد الاحسـاس ، وفقد المـرونة ، وانحسـار الاصالـة ، وتعذر المبـادرة ، والعجز عن ارتيـاد الآفاق الجديـدة التي تُثرِي التجـربة وتحقق النصـر . وستظل تغط في نـومها العميق وسبـاتها المميت الى أن تفـاجئها الأحـداث ، وتدهمهـا الدواهي ، وتغشاها الفواشي ، وتحل بها الكوارث .

والعجيب أنها لا تدرك حقيقة أمـرها اذ تـظل تتشبث بالشعـارات البراقة الزائفة التي تحجب عنها الحقائق وتعزلها عن دنيا الواقع .

وما تجربة الاتحاد الاشتراكي العربي بمصر ببعيدة .

ولعـل أبرز مـظاهر انـطوائية التنـظيمـات التي تعـتز بـأنها طليعـة الشعب ، وتصف نفسهـا بأنها فصيلتـه السيـاسيـة المقـاتلة ، كثـرت الاجتماعات وتعدد المؤتمرات ، فهناك مؤتمرات الـوحدات ، وهنـاك مؤتمـرات الفـروع ومؤتمـرات المنـاطق ، والمؤتمـرات الاقليميـة ، والمؤتمـرات القوميـة ، وقد « تفنَّنـا » في ابتداع المسميـات ، فعنـدنـا

مؤتمرات قاعدية ومؤتمرات وسطية ومؤتمرات قيادية ، بل ومؤتمرات تنشيطية ، ومؤتمرات تداولية حتى غدت حياة التنظيم السياسي كلها مؤتمرات لاعضائه واجتماعات للجانه ولفروعه .

وبالطبع لا يعني ذلك أن ننبذ تجميع الخبرة وتداول الرأي الجماعي ، ولكن يجب أن تكون تلك المؤتمرات تتويجاً للعمل اليومي الصبور الدؤوب بين الجماهير في مجالات عملها ، وفي احياء سكنها .

ويقودني الحديث عن الاجتماعات المكتبية الى مصير التساؤلات التي طرحها السيد / الرئيس عبر لقاءاته الاخيرة . فقد كادوا أن يجردوها من الحكمة التي دعت اليها ، اذ جعلوا منها شبيهاً لأسئلة امتحانات المدارس التي يجلس الطلاب الى الاجابة عليها . والغريب في الأمر ان الذين تصدّوا لها واحتكروا الرد عليها هم أعضاء المكاتب واللجان التي أُبتليت ببعضهم تنظيمات الشعب الفئوية والمهنية .

ولن تكون الاجابات في أحسن الاحوال ، إلا تبريراً للأخطاء وللانعزال ، واشادة بنشاط فوقي يبعد عن مواقع الناس بفراسخ واميال ، وتمجيداً لذوات دون أفعال .

ان وسيلة التثبت والحصول على الاجابات الصحيحة والصادقة تكمن في طرح تلك التساؤلات على اجتماعات تعقد داخل أماكن العمل وفي الاحياء ، تشترك فيها جماهير القوى التي تشكل فئات التحالف ، تناقش فيها أسباب القصور وتعدد سبل العلاج ، تشخص الداء وتصف الدواء وتلتزم بتعاطيه .

وثمة فائدة أخرى تحققها تلك الاجتماعات وهي أنها تبرز المواهب الذكية وتظهر الكوادر النشطة الجريئة التي تحظى بثقة العاملين ،

فينكسر بذلك القيد وتتحطم الحواجز التي تجعل قيادة العمل السياسي والنقابي والمهني وقفاً على فئة بعينها ظلت تتشبث بالمواقع بالرغم من جعل العمل تطوعياً وبالرغم من فقدها لبعض المكاسب والمنافع التي اعتادت عليها حيث لازالت هنالك بقية من نفوذ يتبع المنصب المرموق ويلتصق به .

إن على قيادة الدوائر السياسية الأربع بوصفها السكرتارية المركزية للتنظيم والتي هي بمثابة قلبه النابض أن تراقب سير العمل وأسلوبه واداءه على كافة المستويات ، وعليها أن تعيد النظر في نوعية الكادر القيادي على ضوء معايير ثابتة منها التأهيل الثوري ، وتاريخ الفرد النضالي وما قدم في مجالات العمل الوطني ، وليس أقلها شأناً الالتزام بتعاليم الدين الحنيف ، وبقيمة والتمسك بأهدافه، اذ أنه المانع من الذلل ، والعاصم من المعاصي ، والمؤدي الى النصر .

صحيفة الأيام :
العدد ٩٨٦٢
التاريخ ٣ من محرم ١٤٠٠ هـ
الموافق ٢٢ من نوفمبر ١٩٧٩

كشف حساب

كتب اليّ احدهم يستنكر عليّ اثارة موضوع الفساد على صفحات الأيام ويقول لماذا الآن . . ولماذا لم تكتب عنه من قبل . . وماذا فعلت لمحاربته عندما كنت تملك الاهلية والقدرة على منازلة المفسدين وقد كنت وزيراً ، ووزيرا للعدل ؟!

والأخ الذي سطر تلك التساؤلات من الرفاق الحواريين الذين كنت شيخاً من شيوخهم قبل ان يقرر إمامهم ، فضلاً منه ونعمة ، إخراجي وآخرين من زمرتهم بعد أن ألصق بي تهمتي الرِدَّة الأيدولوجية والمغامرة السياسية .

ولعل الأخ الكريم أراد أن يثبت صدق الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم
فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي
فلما قال قافية هجاني

أو لعلها حكمة القدر أرادت أن تثبت عبقرية المثل الـذي أفرزتـه تجربة أهلنا الطيبين :

« التَسوِّي كريت في القرض تلقا في جِلدها »

فقـد كنا نسخـر من قوم كـانوا من الأخيـار ، وكنا نثـير الشكـوك والظلال ، حول دوافع كثير من أفعالهم الكبار .

ومن قبـل ذكر لي أحـد الأصدقـاء الأعزاء ، أن من السفهـاء من شبهني بتلك التي تحمل الموس لتزيل نواتىء الغير وهي أشد ما تكـون حاجة لممارسة فعلتها هذه على نفسها . . انهم يقولون هلاَّ حدثنا احمد سليمـان عن مصـادر ملكيتــه للمنـازل « والشقق » بـــل العمـارات والعقارات التي يحوزها بلندن والسودان .

وفي الواقع لم تكن تلك أول مرة أسمع فيهـا مثل تلك الاتهـامات تُكال وتنسب اليَّ . فقد قرأت عنها في نشرات كانت تـطبع سـراً هنا وعلناً في لندن ومنـذ أن كنت سفيراً لـدى المملكة المتحـدة منذ خمس سنوات . ولم أشأ الرد عليها إذ أنه لا نهاية للأباطيل وللأكاذيب التي تتوالى وتتواتر وتمرق كما يمرق السهم من الرمية ، ولأن ذلك قدر كـل من يتصدى للعمل العام في بلاد مثل بلادنا ، وإنها ضريبة يدفعها كل من سـل سيفه وشحـذ قلمه لمحـاربة الفسـاد والمفسـدين والضـالـين المضلين .

وبالطبع فان التشهير بالأبرياء يؤلم بـل ويدمى ، ولكن من قـديم عُرف الناس بالخبث وقديمـا كان في النـاس الحسد . والنبي الكـريم نفسه لم يسلم من أذى بعض انصاره فقد أُتهم زوراً وبهتاناً أنه ما أراد بقسمة حنين وجـه الله ، وقد روى البخـاري أنه صلوات الله عليـه وسلامه لما سمع ذلك تغير وجهه ثم قال : « رحمة الله على موسى لقد

أوذي بأكثر من هذا فصبر » . . . ولنا في رسول الله أسوة حسنة .

وثمة أمر آخر يمنعني من الرد على لؤم القوم هو خشيتي من أن يقول قائلهم ما لهذا الرجل . . . ألم يكفه ما ظل يُصدِّعنا به . . . انه يريد اليوم أن يثقلنا بهمومه وبقضاياه الشخصية وبدفاعه عن نفسه فيزيدنا رهقاً وتصديعاً .

وهكذا حالهم . . . يعتبرون السكوت عن الأذى اعترافاً ضمنياً بصحة الاتهام المنسوب ، والمبادرة بالرد على قولهم المكذوب مضيعة لزمن ثمين مسلوب .

ولكن ربما كان في تبرئة الذمة مدخلا لتبرئة ذمم رجال مفترىً عليهم آخرين ، وقطعاً لألسنة المتطاولين ، حتى لو كانوا مثل النعمة أم لسانين التي نقل لنا أخونا الطيب محمد الطيب طرفا من اخبارها ومن « رزالتها » .

ولا أظنني أتجنى على الحقيقة ان قلت انه ما من أحد كتب عن الفساد مثل ما كتبتُ ، وبقدر ما كتبت إذ لا تكاد تخلو مقالة لي من الاشارة الى أعراضه ومظاهره ومن التعريض بالمفسدين تصريحاً أو تلميحاً .

ولعل بعض القراء الكرام يذكرون المقالات الست التي خصصتها لذلك تحت عنوان « المسألة التموينية » . وقد طالبت فيها بضرورة سن قانون من أين لك هذا ، وقلت أني لا أهدف من ورائه الى فضح المفسدين وعقابهم فحسب وانما أردت له أيضا أن يكون أداة لتبرئة ساحة أولئك الذين ظلوا محلاً للتجريح وللظن الآثم إما نتيجة لسوء القصد أو لعدم معرفة البعض بمصادر دخولهم الشريفة .

وطالبت بمساواة الناس جميعا امام قوانين محاربة الفساد حيث ان بعضا من « الكبار » قد جعلوا من مواقعهم في السلطة سياجاً وحرماً يحتمون به ، فكأنه حرم مكة ، وكأن ذواتهم صيدها الذي لا يقتل ، ولا ينفر . وكأنما ممتلكاتهم شجرها وشوكها الذي لا يعضد . وساحاتهم خلاها الذي لا يُختلى ، وأشرت الى فشل تجاربنا السياسية السابقة في ردع المفسدين وأسندت ذلك الى فعل البعض الذين عملوا جاهدين على أضعاف سلطات الأجهزة التي أنيط بها تنفيذ قوانين محاربة الفساد . والتي أراد لها المشرع أن تكون مارداً فأضحت بفعلهم عاجزة كأصنام الجاهلية . لهم أيد ولكن لا يبطشون بها ، واذان ولكن لا يسمعون بها ، وأعين ولكن لا يبصرون بها . وأصبحت بفضلهم كالهوّاب لا تخيف الا الطير . . وبات بسطاء الناس الذين يطحنهم الغلاء في حيرة من أمرهم ، حيث لا جدوى من تحريك القانون الذي لم تعد له سطوة ، ولا في اللجوء الى أجهزة الدولة ، التي وان كانت تبدو لأول وهلة ، كالوحوش الكاسرة ، إلا أنها في حالة بيات شتوي أو خلوة .

وهذا قليل من كثير كَتبتُ ، أما عن كشف حسابي عندما كنت وزيراً للعدل ، فدون الاخوة ملفات وأضابير وزارة العدل التي ربما احتفظ بها ديوان النائب العام . فقد أصدرنا كثيراً من القوانين تحت الأوامر الجمهورية اذ كانت السلطة التشريعية أيام صدر وضحى ولايتي على تلك الوزارة في يد السيد رئيس الجمهورية وحده . وقد صدرتْ بالفعل قوانين محاربة الثراء الحرام والكسب الحرام وقانون الشيكات « الطائرة » وقد قصدنا بها ردع ظاهرة اغتيال أموال المؤسسات العامة التجارية وقد أجرينا كثيرا من التحقيقات واسترجعنا

بعضاً من الأموال المنهوبة . وبالطبع لم تكن مظاهر الفساد وأعراضه في أوائل السبعينات بمثل انتشارها اليوم .

أما بخصوص ملكيتي الخاصة للعقارات والمنازل والشقق ببريطانيا والسودان فإني أعلن بهذا أني لا أملك إلا قطعة الأرض رقم ٤٠ مربع ب المنشية بالخرطوم وللآن لم أفرغ من تكملة بنائها بالرغم من انني بدأت ذلك في عام ١٩٦٨ ومنذ ان كنت محاميا . وسأتقدم إن شاء الله بكشف حساب كامل عن تكاليف البناء وعن مصادر تمويله وذلك بعد الفراغ من مهمة البناء العسيرة . وسأودع صورة من ذلك الحساب لدى كل من مكتب المراجع العام وديوان النائب العام وسألصق صورة منه ، إن مد الله في الأيام ، بمدخل البيت العامر « لزوم » اطلاع السابلة وذوي الانوف الطويلة أسوة بصحف الصين الحائطية التي يطلع عليها كل من يرغب من زوار الميدان الأحمر ببكين .

وليت الاخوة الذين أُسندتْ اليهم مناصب وزارية وشيدوا بيوتاً في هذا العهد أن يسارعوا بفعل مثل هذا الذي أنوي فعله .

وأرجو أن أضيف اني بجانب تلك الأرض لا أملك إلا نصيبا متواضعا مع بقية أخواني التسعة في منزل ورثناه من والدنا بحي أبي روف .

بقي عليَّ أن أعلن من هذا المنبر وللكافة أني التزم بتسجيل أي أرض زراعية أو سكنية هنا في السودان أو في بريطانيا أو في أي مكان من الكرة الأرضية يتضح أنني أمتلكها الآن أو كنت قد امتلكتها في أي وقت مضى منذ ولادتي في عام ١٩٢٤ أنا أو بناتي الثلاث أو زوجتي غير نصيبها في ارث والديها . . . وسأقوم باجراءات التسجيل وأتحمل

تكاليفه اذ أن الهبة لا تتم الا بالقبض ، والقبض بـالنسبة للعقـار يتم بمجرد التسجيل .

والتمس من الله الكريم أن ييسر لي اتمام بناء منزلي حتى أتمتع لأول مرة بالسكن في الملك الحر . . . وبما أن الطمع من خصائل الانسان ، فأرجو أن يمن الله عليَّ أيضا « بشقة » في لندن حيث أنني محب لهـا . مفتون بها وبأهلها ، وحيث أنني مثل شاعر المعرة عن أهـل العواصم سآل .

وأخيراً أرجو أن يكون فيما قدمت ما يكفينا من شر الخـالة النعمـة « أم لسانين » ومن اشباهها .

أمـا الأخوة الـذين لا يزالـون يتمادون في إرسـال التهم جزافـاً ، بالرغم من معرفتهم بخلو الصحيفة من سوابق الاختلاس ، فلا أقول ما قال أسامة بن زيد :

ومـا أشكـو تلون أهـلِ ودي . . ولو أجدتْ شكاتهم شكوتُ
مللتُ عتـابهم ويئستُ منهم . . فـما أرجـوهم فيمن رجـوتُ

اذا أدمـت قـوارصـهـم فـؤادي
صـبـرت عـلى الاسـاءة وانـطويـتُ
وسـرتُ الـيـهـم طَـلِقَ المـحـيـا
كـأني مـا سـمـعـتُ ولا رأيـتُ

وإنما أتمثلُ رد ملفوان جيلاس على سجَّانه الذي ابتدره قائلا : « لا بد أنك تبغضنـا وتكره كلما لـه صلة بنا » فـأجابـه بقولـه : « إنني لا أكرهكم ولكن لا أهتم بأمركم » .

وكان جيلاس هذا قد قضى تسـع سنوات من سني عمـره الثماني

والستين في سجون يوغسلافيا جزاء خروجه على الحزب الشيوعي والحكومة التي كان نائباً لرئيسها .

صحيفة الايام :
العدد **٩٨٦٩**
التاريخ **١١** من محرم **١٤٠٠** هـ
الموافق **٣٠** من نوفمبر **١٩٧٩**

ذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين

أيام معدودات وتهل ذكرى اعلان استقلالنا الرابع والعشرين . . . ولا يضير ذلك الاستقلال ان جاء تاريخ ميلاده « بالتسنين » ، كميلاد ساقطي قيد التسجيل ، في اليوم الاول من الشهر الأول لسنة جديدة . . . فغرة يناير خير أيام شعبنا وأعمقها أثرا في مسيرته ، فكما أن هناك اياماً نحسات كالحات ، فهنالك اياما حسانا خالدات . وكما ان هناك سنينا عجافا شدادا ، فان هناك سنينا خيرات طيبات يغاث الناس فيها ويعصرون . وكذلك شهور الله الاثنى عشرة ليست كلها سواء ، فمنها أشهر حرم ، تصان دماء الناس وفيها يأمنون .

والأول من يناير من عام ١٩٥٦ يوم أغر ، شيعنا فيه ودفنا يوما آخر من يناير ولكنه أغبر ، ذلك الذي وقعّتْ فيه بريطانيا العظمى ومصر المغلوبة على أمرها ، اتفاقية الحكم الثنائي التي أضفت الصبغة القانونية على الاعتداء ، وقَننَّتْ انتهاك سيادة الغير ، وأكسبته صفة الشرعية .

ولم يكن الأول من يناير تاريخاً يتيماً ولا وحيداً في تاريخ مجدنا وعزتنا

الوطنية . فقد سبقه أخ له من قبل هو السادس والعشـرون من ينايـر ١٨٨٥ ، يـوم ان مَنَّ الله على ابنـاء السـودان فـأورثهم أرضهم التي استضعفهم فيها الاتراك وأعوانهم من المرتزقة وشواذ الآفاق . فقد كان ذلـك تاريـخ استرداد الخـرطـوم عـلى يـدي صـوت الحق ، مصبـاح الأرض ، سيف الاسلام ، محمد احمد بن عبد الله المهدي وأنصار دينه الكرام .

وقد تعودنا الاحتفال بذكرى عيـد الاستقلال . ولا أريـد أن أقسو فاشبِّه الأمر بحفلات التأبين التي درجنا على اقامتها بمناسبة مرور أيام أو سنـوات على كيـل التراب عـلى هامـة قبور أفـراد أعزاء . . . فكـأنما الاحتفاءُ بالفراق وبالرحيل . . . حفـلات تبدأ وتنتهي بـالخطب التي تمجد الذكرى وتتغنى بالتراث بحق وبغير حق . ثم ينفض السامر بعد أن يترحم الناس ويظنون أنهم قد أوفوا بالدين المستحق .

ان خـير الذكـرى لتلك التي تنفع النـاس ، تنير السبيـل ، وتعين المسار ، وترشد الى أيسر الطرق لجنى الأفضل من الثمار . ولن يكون ذلك باجترار الذكريات وحدها وانما باستخلاص عبرها ودروسها . . . وسيظل يوم احتفالنا بـأول ينايـر باهتـاً عسير الهضم ، فـاقِداً للمعنى والطعم ، مالم نجعل منه يوما شبيهاً بذلك الذي وصفه شاعر الفرنجه ت . س . اليوت ، يوماً تمتزج فيه الذكرى بالـرغبة . . . الـرغبة في اقتحـام الصعاب تحقيقـاً لتـطلعـات الشعب التي تبـدو بعيـدة المنـال كالسراب دونها خرقُ القتاد .

ولو كنا قد حكَّمنا العقول ، ووزنا الأمـور ، لكنا قـد وفينا نعمـة الاستقلال حقها . ولـو أننا أدركنـا الابعاد الاجتمـاعية والاقتصـادية والسياسية لمعنى الاستقلال لَجَنَّبنا أهلنا وأنفسنا الهـزات والانتكاسـات

والتجارب المريرة . . . ولو كنا قد تبيَّنا العلاقة العضوية الدفينة والمتينة بين التحرير والتعمير وديمقراطية الحكم لكنا قد عصمنا شعبنا من عبث المهووسين ومن كيد المتشنجين ومن تآمر المغامرين ، ولما مسَّنا وأهلنا الضُر . ولو كنا قد أحسنا ادارة مرافق السلطة والتزمنا جانب الشعب وغلَّبنا مصالحه وارتفعنا فوق الخلافات التي كانت تفت من عضد الوحدة الوطنية والتي كادت أن تقصف بالوحدة القومية لما تمكن نوفمبر من اجهاض التجربة الديمقراطية عام ١٩٥٨ . ولما نكبت الأمة في نفر من أعز ابنائها ، شهدائها البررة ، كبيدة والصادق وعبد البديع وعلى حامد وعبد الحميد . ولما احتجنا لتقديم مزيد من الشهداء في اكتوبر ، القرشي وعبد الحفيظ ورفاقهما ، بل لما احتجنا لاكتوبر نفسها . ولو أننا وعينا الدرس بعد اكتوبر وكبحنا جماح التناقضات الثانوية ، ووطدنا من دعائم الديمقراطية ، وصُنَّا الحريات العامة ، وكفلنا للناس حقوقهم ، وللمواطنين حرياتهم ، لما أقدم نميري ورفاقه على ركوب المركب الصعب في ليلة الخامس والعشرين من مايو . ولما أُريقت دماءُ كيله وسيد وحمودي واورتشي وصحبهم الذين اغتالتهم يد الغدر والتشنج والجنون بدار الضيافة في الثاني والعشرين من يوليو ١٩٧١ . ولما أُبتلى السودانُ في بعض من أبنائه ولما كانت هناك حماقات سبتمبر ١٩٧٥ ولا جرائم يوليو ١٩٧٦ .

إن الدرس الأول المستفاد ، هو ضرورة صيانة وحدة البلاد ، واحترام ارادة الأمة ، وكفالة حريات الناس ، واتاحة الفرص كاملة للآراء المعارضة بتمكينها من منابر الفكر والتعبير دون المساس والتشكيك في مكاسب الشعب الأساسية . فذلكم هو السبيل الوحيد لإرساء قواعد الحكم الديمقراطي المعافى ، ولِخلق الواعز الصحى

للدفاع* عن الأرض ولحماية أنظمة الحكم من عبث العابثين ، ومن طمع الطامعين ، ومن مغامرات المغامرين . وافضح المرتزقة والمتسولين الذين يسدون المنافذ ويزحمون الطريق على الخُلَّص الطاهرين ، يتسترون على نقائص الحاكم ويزينون باطله ابتغاء لقمة سائغة تنالها بطونهم الجائعة ، ومنفعة زائلة ترتضيها ذواتهم الفانية ، وحظوة بائرة ترنو اليها عيونهم الغائرة ، وسطوة تتمناها قلوبهم الخاوية .

ولو أننا قلبنا صحائف تاريخ بلادنا بعد اعلان الاستقلال في مطلع عام ١٩٥٦ ، لوجدنا أن شرَّ أمراضنا السياسية التي أطاحت بمختلف أنظمة الحكم التي عايشناها . . . وبمختلف المدارس السياسية التي بلوناها ، كان الهوسُ السياسي والتطلع الى السلطة والطمع في مزيد منها ، بعد أن بطرت معيشة الحكام وما تبع ذلك من فُرقة وتشيّع وتحزب ، حتَّى صرنا كالجن منا القاسطون ومنا الصالحون ومنا دون ذلك . . . كنا طرائق قددا .

فحكومة أزهري أطيح بها بعد شهر واحد من إعلانه لاستقلال البلاد من داخل البرلمان ، وفرضت عليه حكومة ائتلافية إغتالها التحالف الطائفي بعد بضعة شهور من تأليفها . وظل الرجل الذي كان بحق زعيم البلاد بعيداً عن ممارسة السلطة الى ما بعد نهاية حكومة اكتوبر في منتصف عام ١٩٦٥ حيث عُين رئيسا لمجلس السيادة ، وهو منصب أقرب للتشريف منه للتكليف كما يقولون ، بينما ظل بعض رصفائه من العرب والأفارقة يديرون شئون بلادهم بالرغم من أنهم لم يقدموا معشار ما قدم الرجل لمواطنيه .

وحتى حكومة الطائفتين المتصالحتين دبَّ الخلاف بين صفوفها نتيجة

هواجس السياسة مما يسَّر مهمة كبار الضباط في الاستيلاء على مقاليد الحكم .

وحكومة اكتوبر الاولى أصابها الوهن ولم تبلغ الحلم بعد ، نتيجة المؤامرات والمناورات ، وحكومة الأحزاب والطوائف المتصالحة التي تلت اكتوبر أصابها التصدع ونالت منها الوسوسة وتملكت رجالها الشكوك في نوايا بعضهم البعض مما جعلها لقمة سائغة ابتلعها مايو هنيئاً مريئاً . وحتى حكومة مايو الأولى لم تسلم من الأذى ومن أطماع الفئة التي كانت أكثر الدوائر السياسية انتفاعاً بها ، والتي لم تقتنع بما قسم الله لها من حظوة ونصيب كنصيب الأسد ، فلجأت الى التآمر والى الاعداد بليل للانفراد بالسلطة بعد أن ظنت أنها قادرة عليها . فكان أن خاب الفأل ، وأرتد الكيْد في النحر ، وانخسفت الأرض كما انخسفت بقارون من قبل ، وانهار السقف ، وتصدع البنيان الذي بنيناه والذي ظللنا عاكفين عليه مدة تنيف عن ربع القرن . . . وليت المصيبة والبلوى قد وقعتا على تلك الفئة المارقة من الشيوعيين بل إمتدت الى كل مواقع اليسار في البلاد . . . وليت سلطة مايو ورجالها يقلِّبون الصفحات يستلهمون العبر ، ويستفيدون من الدروس .

بقيت كلمة لا بد منها ونحن نستلهم ذكرى هذا اليوم المجيد ، وهي ضرورة تخليد ذكرى الرجال الذين كان لهم الأثر المباشر والقدح المعلي في اعلان الاستقلال ، ولا يمكن حتى للمكابرين أن ينكروا لرجل مثل اسماعيل الأزهري دوره الطليعي والرئيسي في تحقيق الاستقلال الذي سعدتْ به البلاد وبه نعمتْ . ولا يمكن الا للمجترئين على الحق ان يغمطوا السيد عبد الرحمن المهدي حقه ونصيبه في ذلك . فقد ظل الرجل يردد شعار السودان للسودانيين ويسلك كل

المسالك المؤدية اليه بالرغم مما أصابه من أذى وما لحقه من اتهام بأنه مطية للانجليز وصنيعة لهم وبأن دعواه انما كانت دعوة حق أريد بها باطل .

ولا أرى تكريما خيرا من تسمية اثنين من دور العلم ومؤسساته باسميهما ، جامعة الرئيس الازهري وتضم كليات الرياضيات والهندسة والعلوم ، فقد كان الرجل استاذا للرياضيات ، وان لم يتيسر الحال فلا أقل من اعادة تسمية معهد الكليات التكنولوجية باسمه ، وجامعة السيد عبد الرحمن وتضم كليات الزراعة والغابات والبيطرة وحماية البيئة ومقرها أبا ، وان تعسر الأمر فيمكن أن تحمل جامعة الجزيرة اسمه فقد شهدت أرضها بداية نشاطه الزراعي في ود عبد العزيز والشكابة وجزيرة الفيل .

وأخيراً وليس آخراً فلا يجوز للبعض ولا ينبغي أن يسقطوا دور السيد علي الميرغنى في معركة الاستقلال زاعمين أنه لم يكن راضياً عن اعلانه من داخل البرلمان وانه كان متواطئاً مع مجلس قيادة الثورة في مصر عندما نادى في البداية بالاستفتاء . . . والحق أنه لولا معارضة السيد علي الواعية للمجلس الاستشاري وموقفه الصلب من الجمعية التشريعية لتنكب السودان الطريق ولتغير المسار .

وحما الله مايو من المتملقين ، وحمانا من المرتزقة المتسولين بالكلمة ، ومن الذين مردوا على النفاق .

الأيام :
العدد ٩٨٨٧
التاريخ ٢ من صفر ١٤٠٠
الموافق ٢١ من ديسمبر ١٩٧٩

ما أشبه الليلة بالبارحة

كنت قد قررت وقف نشر ذكرياتي بالصحف ، والاكتفاء بما قلبت من صحائف تاريخ ما أهمله التاريخ ، لاسباب ليس أقلها إفساح المجال أمام الآخرين الذين كان قد طال صمتهم . وليس منها قفل الطريق أمام الاقزام المتطاولين الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب ، والذين يُشقيهم ان تزول الغشاوة عن أبصار الناس . . ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن . فقد عصفتْ أحداث أفغانستان الاخيرة بما قررتُ كما عصفتْ بثلاثة أنماط من أنظمة الحكم في فترة من الزمن تقل عن السنتين . واطاحتْ بما انتويتُ التزامه كما أطاحت على التوالي برقاب داوود وتراقى وحفيظ الله ، وهم رؤساء تلك الدولة التعيسة . فقد دفعتني تلك الأحداث الى نبش صفحتين من صفحات مذكراتي ، تاريخ أولاها الرابع من نوفمبر **١٩٦٩** **وثانيتها** الخميس الخامس عشر من يوليو **١٩٧١** ، وكان مكان حدوث وقائع الأولى موسكو ومسرح الثانية لندن .

ونعبر السنين ، عن طريق العد التنازلي ، ونعود الى موسكو التي كانت قد استسلمت للجليد الذي احتواها ، وغمر أرضها وكساها

حلة بيضاء ناصعاً لونها تسر الناظرين . ولم نكن وقتها لنحسَّ فيها برداً ولا زمهريرا فقد كانت هي جنتنا في الأرض ، وكانت، حرارة استقبال الروس ، حكومة وشعباً ، للرئيس نميري في أول زيارة رسمية له خارج قارته الأم وفرحتنا بمقدمة ودفء لقائه خير معين لنا على شتائها ، الذي أسبغ عليه التاريخُ لقبَ الجنرال الذي هزم نابليون بعد أن دقَّتْ جيوشه أبوابها وبعد أن عجز جنرالاتها من البشر عن صده ورده على أعقابه .

وحُددتْ ساعة من أصيل ذلك اليوم موعداً للقاء الرئيسين نميري وبرجنيف ونسبة لأهمية الاجتماع ولخطورته فقد رؤى أن يقتصر حضوره على عدد قليل من مرافقيهما . وصحبنا السيد الرئيس الى مكتب الرفيق برجنيف في الكرملين ، اللواء خالد حسن عباس عضو مجلس قيادة الثورة واحمد سليمان سفير السودان لدى الاتحاد السوفيتي وكان كلانا قد عُين قبل أيام سبعة وزيراً ، خالد للدفاع وانا للاقتصاد الوطني والتجارة الخارجية . واختار الرئيس السوفيتي لرفقته الرفيق بوريس نيكولا فتشي بونا ماريوف العضو المرشح للمكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي المسئول عن العلاقات الخارجية ، هذا بجانب مترجم روسي .

وفي نهاية الاجتماع الذي كان خطيراً بالفعل أثار برجنيف موضوعاً مهَّد له بأنه يشعر بحرج شديد في معالجته ولكنه مضّطر للتطرق اليه اذ أنه يمس ركناً هاماً وقاعدة ثابتة في سياسة الاتحاد السوفيتي ، وهي أن بلاده لا تتدخل في الشئون الداخلية للبلاد الاجنبية وانها لا تُعين احداً على تغيير أنظمة الحكم في أي بلد اذ ان هذا شأن سكان ذلك البلد ، وان الماركسية اللينينية تقرر ان الثورات لا يمكن تصديرها ولا

استيرادها ، وان فلادمير اليتش لينين قد حذّرهم من مغبة التدخل في شئون الغير ، بل انه هو الذي منح شعوب الاتحاد السوفيتي الحق في تقرير مصيرها بما يعني حقها في الانفصال عن الدولة السوفيتية الوليدة . وقال إنه اضطر الى ترديد تلك البديهيات عن سياسة الاتحاد السوفيتي لأنه قد نما لعلمه أن ثمة جناحاً في داخل الحركة الشيوعية السودانية ينتحل لنفسه صفة التحدث باسم الحزب الشيوعي السوفيتي ويدّعي أنه بمقدوره وقف مساعدات الدولة السوفيتية للحكومة الثورية الجديدة بالسودان . وختم حديثه بأن التمس من الرئيس نميري عدم التردد في ارسال الجنرال عباس أو الرفيق « توفاريش » سليمان الى موسكو لمناقشة أي أمر يرى الرئيس نميري ضرورة معالجته حرصاً على العلاقات الوطيدة السائدة بين الدولتين وأشار الى أنه من جانبه لن يتردد في تكليف الرفيق بونا ماريوف بالقيام بمثل تلك المهمة اذا ما اقتضى الأمر ذلك ، وقال إن تقدم وسائل المواصلات وتطورها قد يسَّر سبل الاتصال اذ يمكن لبونا ماريوف ان يتناول طعام افطاره بموسكو وغدائه بمائدة الرئيس العامرة بالخرطوم .

وكنت بالطبع أسعد الناس بذلك اللقاء . وبالرغم من أنه قد طافت بذهني سابقة غزو الروس لتشيكوسلوفاكيا واحتلالهم لبراغ في ليلة الحادي والعشرين من أغسطس ١٩٦٨ وقبلها أحداث برلين الشرقية في عام ١٩٥٤ وما كان من أمر قمع القوات السوفيتية لمظاهرات العمال والمثقفين بها وواقعة تدخلهم العسكري واجهاضهم للثورة التي انتظمت هنغاريا في سنة ١٩٥٦ واحتلال العاصمة بودابست وفرض جانوس كادار زعيما للحزب ومتصرفاً مطلقاً في شئون الدولة ، رغم كل ذلك فقد أطربني حديث الرفيق برجنيف إذ كانت لدي قناعة أن خلفاء لينين لا يكذبون ، ولا ينطقون عن الهوى ، وان قولهم هو الحق الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكنتَ أحرص الناس على توطيد الصلة بين ثورة السودان وموسكو فقد كـانت منعة السـودان وتقدمـه رهينين ، في نظري ، بمدى قربه من الاتحاد السوفيتي الذي كنت أراه شبيهاً بل وصنواً للعزيز الذي إستجار به الحسن بن هانىء وبه استعاذ :

يـــا من ألــوذ بـــه فيـما أومله
ومن أعـــوذ بــه ممـــا أحـاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره
ولا يهيضون علماً أنت جابـره

وتمضي بنا الأيام وتعود بنا الذاكرة الى منتصف نهار الخامس عشر من يوليو **١٩٧١** وكنا قد قدمنا لندن من ليبيا في طريقنا الى موسكو حيث كان علينا ان نراجع مسار اتفاقياتنا العسكرية والاقتصادية والمالية معها ولاجراء مزيدٍ من المحادثات والمشاورات التي توطد دعائم العلاقات بين البلدين والتي كنا نحرص عليها ونتوق الى صيانتها ، وكان الروس هم الذين اقترحوا ضرورة تبادل الزيارات بين المسئولين بين الحين والآخر للنظر في أمر المعاهدات القائمة بيننا حرصاً على دعمها ، وبغية ملاحقة النقائص والسلبيات التي تكشفها الممارسة ويعريها التنفيذ ، بل كانوا هم الذين حددوا ميقات زيارتنا لموسكو في ذلك الشهر وكان ذلك عن طريق الرسائل المتبادلة بين المارشال جريشكو وزير الدفـاع السوفيتي واللواء خالد .

وكنا جلوساً في ذلك النهار بمكتب الصديق العزيز عابدين اسماعيل سفيرنا بلندن . وكان اللواء خالد حسن عباس عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الدفاع والقائد العام يترأس وفدنـا الذي كـان يضم بجانبي ، وكنت آنذاك وزيرا للصناعة والتعدين ، الأخ محمد عبـد الحليم وزير

الخزانة ، والأخوة عمداء الجيش عوض احمد خليفه وبشير محمد علي وصديق حمد . وطلبنا من السيد السفير أن يتصل بالسفارة السوفيتية بلندن لاصدار التأشيرات التي تُيسر لنا دخول موسكو ، وكان سفير الاتحاد السوفيتي بالخرطوم قد أخطرنا بأن سفارتهم بلندن ستقوم بذلك بناء على توجيهات موسكو .

وكانت دهشتنا بالغة وعجبنا عظيماً عندما رفضتْ السفارة الروسية إصدار التأشيرات المطلوبة وذلك بالرغم من محاولات القنصل السوداني ، ومن بعده السفير . وقد انتحلتْ مختلف الاسباب التي تبرر بها رفضها ، فتارة انه لم يكن لديها تعليمات بذلك ، وأخرى ان موسكو تخلو من المسئولين في ذلك الوقت حيث يقضون عطلتهم الصيفية بالقرم . وأمام الاصرار على الرفض اتصل اللواء خالد هاتفياً بالرئيس نميري وكان من رأيه أن نلغي زيارة الاتحاد السوفيتي ولكن الرئيس وجَّه بالتريث ريثما يتصل بالسفير السوفيتي بالخرطوم . . . وبعدها بسويعات أمر الرئيس بالغاء الرحلة حيث تبين له أن السوفيت يماطلون .

ولم يكن ليخفى عليَّ أن وراء الأمر تخطيطاً مدبراً اذ لا تُسوِّغ التبريرات التي ساقها سفيرا روسيا بلندن والخرطوم الامتناع عن اعطاء تأشيرات دخول لوفد حكومي يتكون من ثلاثة وزراء احدهم عضو في مجلس يمثل سيادة دولة صديقة ، ومن ثلاثة من كبار ضباط القوات المسلحة .

وربطتُ بين أحداث سبقتْ ذلك الرفض ، منها القرار الذي أصدرته اللجنة المركزية لجناح عبد الخالق محجوب في آخر مايو ١٩٧١ والقاضي بضرورة الاطاحة بنظام الحكم القائم ، ومنها اختفاؤه هو من المعتقل

الذي كان قد أحتجز بـه ، ومنها تحـايل رجـال السفارة السـوفيتية في الخرطوم وامتناعهم ، بداية عن اعطاء التأشيرات واحالتهم الأمر على سفارتهم بلندن . وبدا لي ان ثمة تواطؤاً بين الرفاق السودانيين وبين رفاق موسكو ، بل أدركت أبعاد ذلك التواطؤ وصرَّحتُ به . وكنت قبل مغادرة الخرطوم في السادس من يوليو ١٩٧١ قد نصحت بمعالجة الأمر وتداركه قبل فوات الوقت ولكن بالطبع لم يدر بخلدي أن يكون الروس طرفاً في التآمر فقد كان سفيرهم يكثر من زيارتي بالوزارة وبالمنزل ويؤكد لي تأييدهم المطلق لجناحنا .

وليت الأخوة في مجلس قيادة الثورة قد استمعوا للنصح ولو فعلوا لكنا قد صُنا دماء زكية أُريقت ومنها رقاب الزملاء المنشقين الذين اتهموا بتدبير الانقلاب وتنفيذه :

نصحتُ قومي بمنعرج اللوى

فلم يتبينـــوا النـصـــح إلا ضحـى

وفي التاسع عشر من يوليو ١٩٧١ استولى عبد الخالق وزمرته عـلى السلطة في الخـرطوم وكـان الاتحاد السـوفيتي أول من أعترف بـالنظام الجديد . . . وتذكّرتُ حديث برجنيف في الرابع من نوفمبر ١٩٦٩ ، وتكشفتْ لي حقيقة خليفة لينين الذي كان في ناظـري نجماً فهـوى . وتذكرتُ قصة الصحابي الجليل عمرو بن الجموح الذي كـان له قبـل اسلامه صنم يعبـده ، وكان كلما غسَّله وطيَّبـه وزيَّنه عـاد الى صنيعه واتساخه ، وكانت قاصمة الظهر إفتقاده للصنم ذات صباح فقد وجده مقروناً مع كلب ميت ومعلقاً في داخل بئر فأدرك عمرو حقيقة معبوده الذي لو كان حقاً ربّاً لما أَتسخ ، ولما أصابه ما أصابه ، وأنشد قولته التي اشتهرت :

تـالله لو كنت إلاهـاً مستـدن

لم تك والكلب جميعا في قرن

ثم أسلم وحَسُن إسلامه وكان من شهداء أُحْد .

وبالطبع فلن يعيَّ كلُ الرفاق الدرس ، ولن يدركوا أبعاد المأساة التي يعيشونها كما أدركها عمرو بن الجموح ، اذ سيظل منهم من يُسبّح بحمد قـادة الاتحـاد السـوفيتي ، ومن يجـد التبـريـرات لفعلتهمٍ التي فعلوا بأفغانستان ومن قبلها بالسودان . . وصدق الحق دائماً وابداً « ومن يُرِد اللهُ فتنته فلن تملك له من الله شيئا » .

الأيام :

العدد ٩٨٩٦

التاريخ ١٦ من صفر ١٤٠٠ هـ

الموافق ٤ من يناير ١٩٨٠

النجم الذي هوى . . . .

منذ أيام وأنا أحاول أن أكتب عن قاسم أمين . وأن أسكب دمعة حرى على النجم الذي هوى ، والمارد الذي ارداه الردي ، والنُبْل الـذي طواه الثـرى ، والاسم الذي سيـظل مدوّيا ذا صـدى ، رغم البلى ، وطـاهراً نقيـاً ، رغم الظلم الـذي لحقه والأذى . . . ولكن القلم أبى والدمع عصى ، فتاريخ نضال قاسم ثرّ لن تحتويه كلمات حيزِّها ضيق كيوميات الأيام . ويكفي قاسم انه ثاني اثنين كان لهما القدح المعلى ، والفضل الأوفى ، في تأسيس هيئة شئون العمال ، وفي الخروج بنضال عمال السودان من المطالب الاقتصادية الضيقة الى النضال السياسي الأرحب حيث منازلة الاستعمار وحيث مصارعة مؤسساتـه ، فقـد كـان رفيقـاً لسليمـان مـوسى ، أول رئيس لتلك الهيئة ، وسنداً له وعضدا . وكان المنظّم الرئيسي للاضـراب الذي لم تشهـد البلاد لـه مثيلا ، والـذي استمر لاكثـر من ثلاثين يـوما ، والمظاهرة التي انتـظمت عطبـرة والتي كان نتيجتهـا اعتراف الادارة الاستعمارية بنقابة عمال السكة الحديد . وكان ثالث اثنين هما سلام والشفيـع كان لهم النصيب الأسمى في تـأسيس اتحـاد عـام عمـال

السودان الذي أسهم بدوره في خلق تنظيمات المزارعين والمهنيين ، وظل لها راعياً وردءا .

وهذه حقائق ثابتة ناصعة لا سبيل لنكرانها ، ولا يقلل من شأنها ممارسات خاطئة ، وتجاوزات لاحقة . ولن يمسحها من صفحات التاريخ حماقات أجهضت النتائج ، وزلات أفسدت الثمرات الطيبات .

وقاسم وشيعته ليسوا استثناء من خلق الله . فهم كالثمرات مختلف طعمها ، وكالانعام مختلف ألوانها ، ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، كانوا طرائق قِدداً .

وكان قاسم أمين طليعة الصالحين المسرفين في الولاء للسودان ، المفرطين في حب البشر .

وكان قاسم الأمل المرتجى ، الذي يجمع الشمل المبتغى ، والذي يعيد فكراً غاب ويرد عقلا طاش . ولكن لاراد لأمر الله ولا تأخير لنفس اذ جاء أجلها .

ولا يحسبنّ أحد أننا نصبو لقديم أو نحِن اليه . ولا تذهبنَّ به الظنون أننا نرنو ببصرنا لمِلةِ قومٍ نجَّانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، الذي نتوسل اليه ألا يزيغ أبصارنا بعد أن هدانا ، والذي نلتمس منه أن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين .

والحسرة أن جيلاً كاملاً من أبناء السودان لا يعرفون قاسم ، ولا يلمون بطرف من سيرته العطرة النضرة ، بل وربما أخذوه بجريرة غيره من الرفاق الذين كان بعضهم قد إغتاله في كرامته من قبل أن

تمتد اليه يد المنون لأكثر من خمسة عشر عاماً . فقد حسب هؤلاء الرفاق ان قاسم أمين الذي كان ملأ السمع والبصر . والذي كان ، حقاً وصدقاً ، أبرز القادة الذين انجبتهم الطبقة العاملة السودانية ، أصلبهم عودا وأشدهم مراساً ، وأكثر الرفاق تواضعاً وأحرصهم على وحدة اليسار ، وعلى تزكية نضالهم وعلى الالتزام بالخلق السوداني الاصيل مما جعل كثيراً من القلوب تهوي إليه وتوقره وتعزه ، حسب أولئك وظنّوا ان الرجل ربما أطاح بقائد الحزب آنذاك . ولعلَّهم قد أصابوا في أمر واخطأوا في آخر . فقاسم اكثر تأهيلاً من إمامهم لتولى مسئولية قيادة تنظيم يدّعي أنه طليعة الطبقة العاملة ، ولكنه كان أبعد الناس عن التآمر لتحقيقُ منفعة لذاته ، وازهدهم في نيل المكاسب لشخصه .

ومن قبل كان حديث الافك . . . وبعد أن قُضيَ على الرجل وتم اغتياله سياسياً وهو البريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب وبراءة ابن يعقوب نفسه من كيد امرأة العزيز التي شغفها حباً ، صدر قرار قيادة الحزب باخراجه من البلاد وذلك بتهريبه عن طريق حدودنا الغربية مع شاد تحت ستار ان حكومة الفريق عبود تتعقبه وتوالي البحث عنه لاعتقاله . وانتهى به المطاف ببراغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا حيث أُدخل مدرسة مهمتها تدريب العمال على العمل النقابي . . . . وهكذا أصبح زعيم عمال السودان الفرد تلميذاً نجيباً يافعا . . . وأُدخل المارد القمقم وأُسدل عليه الستار واحتواه الظلام وظل في طي النسيان الى أن قرر الذي تولى كِبَر حديثِ الافك أن ينفض ويزيح عنه غبار السنين بعد أن كان قد دفنه حياً ودسه في التراب وبعد ان أمِن جانب النور الذي خبا ، فقد رشحه ليرأس لجنة فحص

العضوية لمؤتمر الحزب الخامس الذي قرر المؤتمر التداولي الذي انعقد بالخرطوم في ١٩٧٠ الدعوة له لحسم الخلافات التي كانت تفتك بجسم الحزب الشيوعي السوداني . وكان أن قدم ذلك الأقتراح في غيبة قاسم الذي كان قد انطوى على نفسه ولزم غرفته المتواضعة ببراغ يجتر الذكريات ويرثي لحال نفسه . وكان الهدف من ترشيحه لرئاسة لجنة الفحص أن يجعلوه طرفاً في الصراع الذي كان يسود الحزب في تلك الايام ولكسبه لزمرة المتآمرين .

وانبرى يومها شيخ من شيوخ المزارعين المناكفين الاجلاء وكان من الفريق الذي لم تعم بصيرتهُ وخاطب زعيم القوم : « إتق الله يا رجل ، ولا تجعل من نفسك إلاهاً آخر تؤتى الملك من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء . . . . بالأمس قتلت الرجل والآن تريد ان تمشي في جنازته » .

ولقد صدقت النبوءة ولكن بعد عقد كامل من الزمان ، فقد مات الرجل الكريم وهو كظيم . . . ولم يكتف بعضهم بالذهاب في جنازته بل هتفوا وخطبوا .

وكلمة أخيرة أسوقها لقادة اتحاد العمال الذين ورثوا صرحاً مشيدا ممرداً كصرح بلقيس أن يذكروا الرجل الذي حرثَ وسقَى ، وتعهد ورعى . . . ولن يعترضكم في ذلك أحد ولن ينهاكم ناهٍ ان تبروا ذكرى قاسم وتقسطوا له حقه . . . . والله يحب المقسطين .

الأيام .
العدد ٩٩٥٠
التاريخ ٢٠ من ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ
الموافق ٧ من مارس ١٩٨٠ م

ذكريات من وحي الانتخابات

وضاق باشوات مصر ذرعاً بالسودان فقد كان المعضلة التي قصمت ظهر كافة المحاولات لتسوية علاقاتهم مع بريطانيا العظمى ، والصخرة التي تحطمت عليها مفاوضاتهم طيلة العشرينات واوائل الثلاثينات . ولذلك كان توقيع اتفاقية فبراير ١٩٥٣ حدثاً هاماً ونصراً مبيناً لدبلوماسية اللواء نجيب ورفاقه من أعضاء مجلس الثورة الذين كانوا حديثي عهد بالسلطة ، حيث لم يكونوا قد أكملوا بعدُ سنتهم الأولى في الحكم .

وقد نصت تلك الاتفاقية في مادتها الثانية عشر على قيام جمعية تأسيسية مهمتها تقرير مصير السودان واصدار دستور له ، وحددت مواصفات تقرير المصير بأنه احد خيارين لا ثالث لهما ، الاستقلال التام أو إقرار صلة ما بمصر .

ولم يقبل الانجليز التوقيع على تلك الاتفاقية إلا من بعد أن وافق المفاوض المصري على عدة شروط من بينها عدم اجراء أي تعديل في الدوائر الانتخابية التي كانت حكومة السودان قد قررتها سلفا .

ائتلافية تجنب البلاد مغبة نتائج انتخابات تجري تحت ظل الادارة الاستعمارية ، ولكن لم تجدْ تلك المحاولات قبولاً لدى حزب الأمة . . . . وأُجريت الانتخابات وكانت معركة حامية منذ اليوم الأول للتسجيل . وحمى وطيسها وظل أوارها يشتد يوماً بعد يوم وكلما قرب يوم الحسم . وكان طرفاها الرئيسيان معسكر الاتحاديين بقيادة الرئيس أزهري وتحت رعاية زعيم طائفة الختمية السيد علي الميرغني ومعسكر الاستقلاليين الذي كان يتزعمه عبد الله بك خليل ويرعاه زعيم الانصار السيد عبد الرحمن المهدي . وكان الاقبال عليها عظيما ، إذ كان الظن ان الاحزاب ستلتزم بشعاراتها في حالة فوزها . فقد كان مستقبل البلاد في مفترق الطرق اما إعلان الاستقلال التام أو تحقيق وحدة وادي النيل تحت التاج المصري . ولم يكن في الحسبان أن الاتحاديين سينقضون عهد مصر بعد ميثاقه ، وان رئيسهم الأزهري سيكون أول المبادرين باعلان الاستقلال من فوق منبر البرلمان . وكذلك لم تكن هناك هموم البنزين والرغيف والشاحنات والحافلات ، تسلب لب الناس وتشغلهم عما عداها من اهتمامات .

ولقد حفلت تلك الانتخابات بالأحداث الطريفة العديدة التي كان مبعثها حداثة عهدنا بها، وحِدَّة الصراع الذي كان يذكّيه ويشعل لهيبه دولتا الحكم الثنائي ، اللتان لم تخفيا انحيازهما للطائفتين المتصارعتين تشدان ازر كل منهما وتشركانهما في الأمر وتستعينان بهما في المحافل الدولية .

وكنت قبل اجرائها ببضعة أسابيع قد افتتحت مكتباً لمزاولة مهنة المحاماه . وربما كنا نحن معشر المحامين أسعد الناس بتلك الانتخابات فقد كانت زاداً أثرى العقول ومصدراً ملأ الجيوب . ولعلها كانت أول مرة يلِّم الناس فيها بطرف من فقه القانون الذي ايقظه الجدل الذي كان طرفاه المحجوب عن الاستقلاليين وزروق عن الاتحاديين . ولا أعرف جدلاً قانونيا شد الناس اليه كذلك الذي دار حول الطعن في بعض قرارات لجنة الانتخابات التي كان يرأسها القانوني الهندي سوكومارسن ، فقد امتد النزاع الفقهي الى ماهِيّة القرار الاداري والى كُنه القرار السياسي والى وسائل الطعن في كل منهما والى محل الاختصاص بالنظر في أمرهما ، واصبح المثقفون وحتى من غير القانونيين يرددون بل ويعرفون الفرق بين الـ (مانديمس وسرتراري) . وربما كانت قضية حل الحزب الشيوعي السوداني في منتصف الستينات هي القضية الوحيدة في تاريخ البلاد التي تشارك قضية الطعن في أوامر لجنة الانتخابات من حيث استحواذها على إهتمام الناس .

وكانت لجنة الانتخابات تلك ذا صفة دولية اذ كانت تتكون بجانب رئيسها الهندي من ثلاثة اعضاء أمريكي ومصري وبريطاني وثلاثة من السودانيين يمثلون الاتحاديين والاستقلاليين والجنوبيين هم على التوالي خلف الله خالد وعبد السلام الخليفة عبد الله وغوردن بولي . وكان الاتحاديون قد اقاموا الدنيا ضد سوكومارس واتهموه بالتعاطف مع منافسيهم ، وبالانحياز الى جانب الحاكم العام وادارته . وبلغ بهم الأمران أمروا ممثلهم بالانسحاب من اللجنة ، وصعّدوا من حملتهم ضدها . وقد أثمرت تخطيطاتهم إذ إعتدل

مسلك الهندي وزمرته ، وطابت العوْدة والمقام للسيد خلف الله بين ظهراني اللجنة من جديد .

ولم تكن الانتخابات متعة لنا فحسب ، كما أشرت ، وانما منفعة أيضا . فقد كان « سوق المحامين حاراً » كما يقولون اذ لم يكن عددهم يجاوز عدد أصابع اليدين ، وقد عرف المرشحون سلاح التقاضي وسبل اللجوء الى المحاكم طعناً ، بحق وبغيره ، في أهلية منافسيهم ، ولقد يسَّر لهم الأمر ركاكة صياغة قانون محاربة الاساليب الفاسدة وغموض واتساع نطاق سلطانه وتضارب الاحكام الصادرة بمقتضاه .

ولعل أشهر القضايا التي أقيمت تحت ذلك القانون تلك التي رفعها الحزب الوطني الاتحادي ضد سكرتير عام حزب الأمة السيد عبد الله بك خليل الذي كان قد رشح نفسه نائباً عن دائرة أم كداده بدارفور ، متهماً له باتباع الأساليب الفاسدة وذلك بتزويده لبعض الناخبين بالغذاء والكساء والماء . وأذكر ان العزيز مبارك زروق المحامي طلب مني ان أُمثِّل الاتهام ضد عبد الله بك . ولمَّا سألته عن السبب الذي يحول دون قيامه هو أو زميله ابراهيم المفتي المحامي بالمهمة أجابني بأن كليهما مرشح في الانتخابات ويرغبان في التفرغ لها . وقد علمت من زروق فيما بعد وبعد تقادم السنين انه كان قد كُلِّف أصلاً من جانب الحزب بمقاضاة عبد الله خليل ولكنه كانت تربطه بالرجل علاقات ودٍ وصداقة لم تكن لتسمح له وتسوِّغ مطالبة المحكمة ، وفي مواجهته ، بادانته واصدار الحكم ضده . . . . وقد كان جيلهم جيل فَضْل .

وقبلت أنا المهمة . فبجانب دوافعي السياسية الجامحة فقد كان إغراء المال الذي دفع لي كأتعاب كبيرا . . . . وأقلتنا طائرة صغيرة خاصة من طراز « دف » الى الفاشر وكنا عصبة ـ القاضي ابورنات كبير القضاة السودانيين الذي أسند له رئيس القضاء أمر المحاكمة نظراً لأهميتها والمتهم عبد الله بك خليل ومحاميه محمد احمد محجوب وممثل الاتهام احمد سليمان . وكان الجو داخل الطائرة لطيفاً وكأننا أفراد أسرة واحدة . ومكثنا بضعة أيام بالفاشر كنا فيها جميعا موضع احتفاء الكرام من المواطنين والضباط واذكر من الآخرين الملازمين جعفر محمد نميري وبشير حسن بشير وصلاح عبد السلام الخليفة وتوجهنا بعدها الى أم كداده حيث نزلنا في « استراحة » واحدة وأصر عبد الله بك على ان نكون كلنا ـ القاضي ومحاميه ومحامي الاتهام ـ في ضيافته . وكان يقول لي (يا بني انكم تدَّعون انكم تحاربون الاستعمار . ولكن لا تعلمون أن هذه القوانين التي تحركونها ضدي اليوم هي من صنع الاستعمار . وهي أخطر أنواع أسلحته اذ من شأنها ان تسلب السودانيين من أعز خصالهم وهي نجدة الضعيف واغاثة الملهوف . . . أليس من المفارقات أن يكون سبب تقديمي للمحاكمة أني كسوتُ العريان ، وقدمتُ الطعام للجوعان ، وجُدْتُ بالماء للعطشان) .

وانعقدت المحكمة وصال المحجوب وجال ، وتجلَّى كعادته . وصدر الحكم ببراءة عبد الله بك . . . . ولعلني كنت أسعد الناس بتلك النتيجة فقد عرفتُ الرجل عن قرب ولمستُ عفته وتبينتُ إصالته .

ورحم الله الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلنا . . .
فقد كانت النفوس اكثر طيبة والقلوب أكثر رقة .

الأيام :
العدد : **٩٩٦٢**
التاريخ : **٤** من جمادي الاول **١٤٠٠** هـ
الموافق : **٣١** من مارس **١٩٨٠** م

خطاب مفتوح
الى العزيز الشريف حسين الهندي

أرجو ، بداية ، أن أقرر أنني لا أنطق بلسان أحد . ولا أكتب بقلم احد . ولا أفعل ذلك نيابة عن دولة أو ثورة ، فللأولى ناطقها الرسمي وللثانية رجالها الذين يتقدمون الصفوف ، ولست بالطبع ، احدهم ، وإن كنت جندياً متواضعاً ضمن تلك الصفوف بشَّرتُ بمقدمها وأشرتُ الى أرهاصاتها ونبهتُ الى أشراطها . وأشيد اليوم بانجازاتها ، وانقد سلبياتها بكل الصراحة والوضوح ، وفاءً للالتزام الوطني ولراحة البال . . . ومن قبل قال اخونا عبد الله رجب كلمته بل حكمته « الصراحة راحة » .

والسؤال الذي يخطر على البال ، لماذا هذه المخاطبة الآن ؟ والرد في الحال ، أنه قد آن الآوان بعد مضي أكثر من عقد من الزمان أن تلحق أيها الشريف الكريم المفضال بالقافلة والركب داخل السودان ، فأنت لست عملاً غير صالح كابن نوح الذي ناداه ابوه ، وكان في معزل ، يا بني أركب معنا ، فأبى واستكبر ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وانما أنت رجل خيِّر ، أصم القلب

أبلج ، تلبي النداء ، وتستجيب للدعوة الصالحة ولا ترد الطلب .

ولكنك تخطىء وتصيب ، كما نخطىء ونصيب ، فكلنا بشر . . . وقديماً قيل لكل جواد كبوه ، ولا استثناء حتى لجياد سليمان الصافنات .

وليس هذا بداهة ، مجال سرد الاخطاء ، وتبادل عبارات اللوم والعتاب . فكفانا ما ظللنا نردده ونتقاذفه ، من بعيد ، من كلمات نابيات طيلة السنوات العشر الماضيات . وكفانا ظلماً لأنفسنا وما لحقنا من حيف وافتئات . وكفى البلاد ما أصابها من ضرر ، وما فاتها من ثمار جهد ابنائها المشترك سنوات عديدات . . . ومالنا نبخل على بعضنا بالثناء المستطاب ، ونحن به جديرون ، وبالكلمات الطيبات ونحن لها مؤهلون .

وأنا أعرفك ، كما يعرفك قليل غيري ، فأنت تصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتُكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على النوائب . ولكنك مقاتل شرس ، معاكس عنيد . وربما كان في هذا إبتلاؤك فلولا ذلك لما بقيت طيلة هذه السنين خارج أرضك التي من ثديها رضعت حتى استويت ، ومن ماء نيلها نهلت وارتويت ، وتحت سمائها نشأتَ وترعرعت . فمِثلك مكانه الخرطوم وليس عاصمتي التمييز والسين ، وطوافه قرى سوباط وستيت وجزيرة النهرين وليس أمصار دجله والفرات وأرض الرافدين ، وحِلك وتَرحالك كنانة وجنقلي وسنجه والدمازين وليس برقه والبصرة واديس جنة العاشقين الوالهين .

ولا أقول ذلك تقرباً وزلفى . فما بي من حاجة لأحد ، ولا أطمع في فضل مخلوق . وانا المؤمن بأن الله وحده هو الذي يهب ما يشاء

لمن يشاء ويقدر ، وانه هو وحـده الرازق ذو القـوة المتين . ولكنها الكلمة الطيبة اردتها مـدخلاً لعمـل طيب هو تـوحيد الكلمـة وجمع الشمل بعد أن ظن الشتيتان ألا تلاقيا . . . والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلهـا ثابت وفـرعها في السمـاء تؤتى أكلها كـل حين بإذن ربها . . . وربها قادر أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله غفور رحيم . . . ولنا جميعا في رسول الله أسوة حسنة وقـدوة طيبة .

وبـالأمس كتبتُ بمناسبـة بلوغ مايـو العشـرين الا تسـع سنين ، واستعرضت محاولات وأدها منذ ان كانت طفلا يحبـو والى ما قبـل بضع سنين ، وتساءلتُ عن السر الدفين ، الذي جعلها تقف كالطود المتين رغم المحاولات المتعددة لنحرها وتحنيطها ودفنها في الوحل والتراب والطين ، ورغم اخطاء بعض المحسوبين عليها وتجاوزات المفسـدين . وأسندت الأمـر الى انجازاتهـا في مختلف الساحـات والميادين ، والى الخوف من العودة الى الممارسات القديمة لبعض الحـزبيين والـطائفيين والمتـربصين ، والى تحسب المخـاطـر التي تكمن في الاستعانة ببعض الدول التي لن يشفع لنا معها في النهاية صلة الرحم والدين .

ولا أحسب ان أحداً في ذكائك ، تخفى عليه تلك العوامل وتغيب عنه تلك الاسباب ، ولكنها الحِمية ولا أقول حمية الجاهلية والعـزة بـالاثم . . . وكلنا ، وبـدرجات متفـاوتة ، نعـاني من مغبـات تلك النقائص ومن آثارها .

ولا أحسبـك تجهل ، وانت سيـد العـارفين ، ان تلك الاسبـاب والعوامل مازالت قائمة باقية وان أية محاولة جديدة من نوعها أو مثلها

مقضى عليها بالفشل لا محالة . . . وان كانت محاولة عام ١٩٧٦ قد أُجهضت فمن باب أولى أن تُجهض مثيلاتها المستوردة ، ولا أقول ذلك حماساً ولا اثارة ولا حماقة ، فالعقد قد انفرط ، والجمع قد انفض سامره ، وجبهة المعارضة قد تمزقت أو كادت ، والقلعة المتماسكة قد تهاوت أو أوشكت ، والسفينة قد غرقت أو اشرفت ، فقد تركها بعض ملاحيها الاصلاء ، وقفز من فوق ظهرها نفر من بحارتها الاشداء ، ولم يبق من يقاوم الموج في ظلمات البحر الارهط من القادة السابقين الذين نرجو ان يرد الله غربة اجسادهم وفكرهم ، وان يصل بهم الى بر الامان ، ليلحقوا بالركبان ، ولنسهم معا في بناء السودان ، وليعوضوا ما فاتهم من شرف خدمة الأوطان . . . وعفى الله عما سلف منا أجمعين فكلنا مخطئون مخطئون ، وحمانا الله جميعا من شرور أنفسنا ومن العناد المستأصل فينا ومن الاصرار على مواصلة الخطأ ، وازال عن أعيننا الغشاوة التي تعمي البصر ، والتي تدفع بنا للمغامرة ولسوء التقدير الخطر ، ومن ثم الى التهلكة أو الندامة والكدر .

وربما حسب البعض ان بوسعك ، أيها المقاتل العنيد الصنديد ، سد النقص وملء الصفوف التي فرغت ، واستبدال العظام التي وهنت بشباب أعلم أنهم يهرعون اليك ويطرقون بابك الكريم كلما وطئت أقدامهم أرض لندن ، يستمعون الى حديثك الشجي ويشدهم بيانك الساحر ، وتبهرهم مقدرتك الفائقة على الاثارة والخطابة والكلام كما كنت تفعل بنا في أواخر الاربعينيات والخمسينيات . . . ولكن العدد قليل والحماس وحده لا ينفع ولا يشفع ، والاثارة وحدها لا تجدي ولا تثمر ، فأثرها وقتي وعمرها قصير ، خاصة اذا كان جل

ذلك الشباب من ابناء العز والمتيسرين الذين اغتنى اباؤهم من المال الحرام واستغلوا غفلة بعض المسئولين ، وانتفعوا من فساد الضمائر والذمم .

وربما ظن البعض ان الشباب الذين هيأتَ لهم الفرص للالتحاق بالكليات الحربية في بعض البلاد العربية لدراسة فنون الحرب والطيران قادرون على تعويض النقص في صفوف المقاتلين والمدربين . . . ولكن هيهات فالعدد ايضا قليل ، والحفاظ على ولائهم غير مضمون ، والتزام تلك الدول بمواصلة الدعم والتأييد ، ومواصلة مد يد العون غير أكيد ، فالدول ترعى مصلحتها وتضعها فوق كل اعتبار واذا ما اقتضى الأمرُ قلبَ ظهر المجن فعلتْ ، بل وربما تآمرتْ مع اعداء الامس على اصدقاء اليوم .

وكما كتبتُ قبل أيام فان كان هناك من يبرر الاستعانة بالدول الاجنبية تأسيساً على منطق ميكافيلي وتسبيباً على ما ورد في كتابه « الأمير » بأن الغاية تبرر الوسيلة فان نفس ذلك المنطق يكون حجة للبعض الذين يلجأون الى أساليب البطش والقمع حفاظا على السلطة ، فأفكار ميكافيلي ليست حكراً لاحد ولا وقفاً على فئة بعينها . وفي الواقع فان نظرية اخضاع الوسيلة لخدمة الغاية هي أساس نصيحة الرجل لأميره بأن يسلك كل الوسائل والطرق التي تحفظ له الملك وتضمن له استقراره .

ثم انه من الخطورة الاعتماد على دول تقف هي نفسها في مفترق الطرق وفي مهب الريح . اذ ان أي تغيير جذري يطرأ على نظام الحكم فيها يتبعه تحول جاد في سياستها الخارجية وفي تعاملها مع اصدقاء النظام القديم . والأمثلة كثيرة ايران في عهد الشاه وبعده ،

ومن قبل مصر عبد الناصر ومصر السادات واثيوبيا الامبراطورية واثيوبيا اليوم .

كما ان الدول الاجنبية لا تقدم الدعم والعون ابتغاء وجه الله أو من أجل سواد العيون ، وانما لكسب مواقع وفوائد مادية أو معنوية أو الاثنين معا في حالة نجاح التآمر مما يشكل انتقاصا لسيادة الدولة على اقليمها . وما مثل يوغندا ببعيد .

ولا أخالك ، أيها الشريف الاريب ، تجهل كل ذلك . فأنت سياسي محنك ، تعلم أكثر من كثيرين غيرك مغاليق صنعة السياسة واسرارها . ولعلك تدرك ان النشاط السياسي وساحاته تختلف عن النشاط الرياضي وميادينه ، فلا يمكن للسياسي ان يواصل المحاولات الفاشلة للوصول الى هدف يتعذر بلوغه كما يفعل الرماه من لاعبي كرة القدم علّ احدى الرميات تصيب مقتلاً يحقق النصر ويحرز الكأس . فالمحاولات الفاشلة للاستيلاء على السلطة تريق الدماء وتزهق الارواح بغياً وعدواناً وردعاً وقصاصاً وانتقاما .

ان مكانك ، أيها الرجل ، هنا معنا في الخرطوم ، تثير الحمية ، وتشحذ الهمم ، وتحشد الطاقات . تخطط وتدير وتشرف ، مع الاكفاء الآخرين ، على عمليات بناء دولة السودان الحديث وعلى تنمية مرافقه . وانا أعلم انك قد ساعدت بفكرك الثاقب وبأفكارك النيرة ، خاصة في مجال الاقتصاد ، بعض القادة العرب والافارقة الذين تعاونوا معك في محاولاتك المتواصلة للانقضاض على السلطة داخل بلادك . . . وقد آن الآوان لينتفع بعلمك اقتصادُ بلادك . . . وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله .

ولعل حاجة بلادك وعشيرتك واهلك لعلمك النافع تجُب وتبتلع كل مآخذك على نظام الحكم القائم في البلاد ، خاصة وان رئيس الدولة قد مد اليد للمصافحة وللمصالحة . ولا أعتقد ان التحفظات التي أثرتها وأخوتك مع ممثليه بلندن بالتي تقف سداً أمام انضمامك للركب وللمسيرة فالتعديلات التي تصر عليها في الدستور حول صلاحيات الرئاسة لا يمكن أن تكون سبباً يحول دون شرف توحيد ارادة السودانيين ودون جهدهم المشترك لخدمة البلد . ولا أعتقد ان قمة السلطة في السودان بعد أن رسخت اقدامها يؤثّر عايها سلباً أو إيجاباً ممارسة بعض الصلاحيات أو التنازل عنها ، ولا أعتقد أيضا ان أمراً يسعد الرئيس نميري بأكثر من أن يرى كل اخوانه وابنائه يعملون يداً واحدة لرفع شأن السودان وبنائه . كما انه يهمه أكثر من غيره أن يعم الاستقرار البلاد وان ينعم الجميع بالهدوء .

وبالطبع انت تعلم ان نصوص الدستور ليست هي وحدها الضمان الحقيقي لحفظ العهود والمواثيق ولحماية الحريات ، فوجود الدستور ، ونظام الحكم الديمقراطي لم يحل دون استيلاء الفريق عبود على السلطة . كما ان وجود فصل كامل للحريات وصيانتها في الدستور لم يمنع الحكومة التي كنت انت أحد اقطابها من حل حزب وطرد نوابه من البرلمان ، ومن اهدار مبدأ فصل السلطات الذي هو ركيزة الدساتير الديمقراطية ، وذلك عندما رفضت حكومة السيد الصادق المهدي التي كان يأتلف معها حزبك الانصياع لقرار المحكمة الدستورية العليا بعدم دستورية طرد النواب وحل حزبهم . وكذلك فانه لا الدستور المؤقت ولا العرف الديمقراطي المستقر قد حالا دون حل الجمعية التأسيسية التي كنت أنت احد بناتها وأبرز

اعضـائهـا وانقلبت عليهـا وصـرت المهنـدس الـذي خـطط ونفـذ اغتيالها .

بقية كلمة أخيرة ظللتُ أرددها منـذ الايام الأولى للثـورة ، ولعل بعْض اصدقائنا المشتركين قد نقلها لك ، وهي أنه لولا الظروف التي فرضت عليك مغادرة البلاد في صبيحة الخامس والعشرين من مايـو لكـان لك شـأن كبير ومقـدَّر في المساهمـة في ادارة شئـون الثـورة والبـلاد ، فأنت مؤهـل كفء . وأنا أعلم مـدى الضيق الذي كنت تحس به في الشهور الأخيرة من حكم الاحزاب بل وأعرف انك كنت تُبشّر بقرب الخلاص وبحتمية التغيير ، وأعلم ، ضمن قليلين ، الود الاصيل والمتبادل الذي كان طابع لقائك الأول مـع الرئيس نميـري بالسعودية في اوائل السبعينات والأثر الحميـد الطيب لـذلك اللقـاء حتى خشى البعض من المنتفعين من الفرقة والانقسام والمحسوبين على مايو انك قادم لتتبوأ المنصب الذي يليق بك بجانب أخيك .

والرجاء ، أن يحقق الله الأمل ، وان يجمع الشمل ، وليس ذلك على الله بعزيز ، فهو القادر على فعل ما يريد . . . « إنمـا أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيـده ملكوت كـل شيء واليه ترجعون » . والسلام على من اتبع الهدى وخشي الرحمن بالغيب .

الأيام :

العدد : ١٠٠٣٨

التاريخ : ٢٧ من رجب ١٤٠٠ هـ

الموافق : ١٠ من يونيو ١٩٨٠ م

القوى الخفية

سجل الأخ حسن ساتي رئيس تحرير صحيفة الأيام غيـاب قلمي عن ساحة اليوميات في الجمعة الاخيرة من الشهر الفائت . وحرصاً على خلو صحيفة قلمي من السوابق ، ودفعاً لتهم (أُلفَتَر) والتقاعس وهبـوط الهمة . . أرجـو ان أقرر أن سبب الغيـاب كان رحلة عمـل مفاجئة خارج البلاد ، ما كنت أحسب ان تمتد الى اسبوع كامـل . وأرجو ان اطمئن (الكوتش) حسن ومن يهمـه الأمر أني سـأواصل الكتـابة إن أذن الله وشـاء . فأنـا مدمن لهـا ولا استطيـع من دونها صبرا ، ولا قدرة لي على الفكاك من اسارها . وسأظـل أفعل ذلـك الى ان يقول البعض (الروب) أو تفرل جمهرة القـراءة أوقفوا هـذا القلم عند حده .

ومهما كان من أمر مضايقات مثل هذه السفرة السريعة المفـاجئة فان لها بـالنسبة لي ، بعض الفـوائد غيـر المرئيـة . وهي غير تلك الخمس التي عددها الشاعر ، فقد تعودتُ أن انـزود بجانب القـرآن الكـريم الذي هـو خيـر الـزاد ، بمـا خفَّ وزنـه وطـاب رفقتـه من الكتب . وقـد كانت صحبتي هـذه المرة مـع كتاب يبحث في أمـر

ظاهرة الحياة بعد الموت الحسي للجسد ، حيث ظل مؤلفه الدكتور ريموند مودي يدرس تلك الظاهرة على مدى خمس سنوات استعرض خلالها اكثر من مائة حالة أعلن الاطباء أن أبطالها قد ماتوا موتاً « كلينيكيا » .

واسم الكتاب (لايف أفتر لايف) أي الحياة فيما بعد الحياة . . . وليس هنا ، بداهة ، محل استعراضه ولكن يكفي أن نشير الى أن احدى دور النشر بأمريكا قد طبعت منه في سنة واحدة تسع طبعات . . . وكنت قد قرأت قبله للكاتب المصري أنيس منصور كتاباً عن القوى الخفية التي وان كانت في أعماقنا الا أننا نجهلها ولا ندري كنهها . ولا تكمن قيمة كتاب الدكتور موندي ، في نظري ، في أنه محاولة لاثبات الحقيقة اليقينية وهي أن ثمة حياة بعد الموت وانما في تسجيله الصادق لشعور عشرات من الاشخاص الذين كانوا على شفا حفرة من القبر والذين كانوا قد تيقنوا انه قد قضي عليهم بالموت وانهم قد خطوا أولى خطوات الرحلة للعالم الآخر .

ولا شك في أن لكل منا قصصاً مع هذه القوة الخفية التي يحاول العلماء عبثاً ان يجدوا لها تفسيراً بمنطق الحسيات والملوسات الكسيح القعيد ، وبادراك الانسان الاعرج القاصر والتي تقف دليلاً قاطعاً وآية دالة على وجود ما يسمى بعالم ما وراء الطبيعة . وقد كنت شهيداً على ثلاثة احداث منها . كان طرف اثنين عبد الله عبد الرحمن نقد الله طيب الله ثراه ، وجعل القرآن انيساً له في قبره كما كان له نوراً في حياته ، وشفيعاً له يوم القيامة ، وقريناً الى الجنة . . ففي الصباح الباكر من أحد أيام صيف عام ١٩٦١ قال الامير ، وكان هذا هو اللقب الذي يطلقه اصدقاء نقد الله عليه ، انه يتوجس خيفة

من ذلك اليوم ، وأنه يخشى أن يكون بداية لأيام نحسات مقبلات . فقد رأى فيما يرى النائم انهاراً من الدماء تسيل في جامع الخليفة بام درمان . وردَّ عليه محمد احمد محجوب وكنا ثلاثتنا نسكن في غرفة واحدة بمعتقل جوبا (ما أريد أن أقول لك ، ما قال الملأ من قوم فرعون للملك ، أضغاثُ أحلامٍ وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) .

•

وفي صبيحة اليوم التالي أخبرنا الرئيسان أزهري وعبد الله بك خليل أنهما بينما كانا يشربان الشاي في (مصطبة) نادي الضباط ، حيث معتقلنا ، ان سمعا اثنين من الجنود وكانا من ابناء الحوازمة يقولان بصوت قصدا منه أن يصل الى آذان الرئيسين أن أحداثاً دامية وقعت في الليلة قبل السابقة في جامع الخليفة بام درمان نتيجة مجابهة مسلحة بين الانصار والجيش . وأشرنا الى نبوءة الأمير وعلَّق المرحوم شيخ المرضى عطَّر الله ثرى قبره « كذَّب المنجمون ولو صدقوا » وغضب نقدالله غضبة مضرية ولكن سرعان ما تصافى الرجلان ، فقد كانت النفوس كبارا . وبعدها بأيام لاحظت والعزيز محجوب أن الأمير قد ظل مستلقياً على ظهره حتى بعد طلوع الفجر وهو الذي تعوَّد أن يقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وقال الامير نقدالله انه يخشى ان يكون يومنا ذاك أسوأ من أخيه الذي سالت فيه الدماء الذكية وانه يشعر كأن أبواب الرحمة قد أوصدتْ ، وان السماء قد حُجبتْ بساتر من النحاس . وعلق المحجوب بخبثٍ بريء (لعل الأمير قد حسب أن كل بركةٍ ولَد) . . وفي مساء ذات اليوم وبينما كان الفرسان الاثني عشر ، وهم جمع المعتقلين ، يتجاذبون اطراف الحديث ، إذ أقبل علينا قائد القيادة الجنوبية اللواء

الطاهر عبد الرحمن المقبول . وكان باديء التأثر والحزن . وفجَّر لنا نبأ وفاة إمام الانصار السيد الصديق المهدي رحمه الله وطيب ثراه . ولم يكن لنا قبلها علم بالوعكة التي ألمت به . وبكينا عليه كما لم نبك احداً قبله . أما الامير فقد كانت فجيعته فيه أكبر ، اذ كان الرجل رفيق صباه ، وزميل دراسته ، وقريبه ، وإمامه .

أما الحادث الثالث الذي كان بطله اللواء عوض احمد خليفة فقد كان مسرحه فندق « يوغسلافيا » ببلغراد ، وكنت وقتها وزيراً للصناعة والتعدين ، وكنا واللواء عوض وآخرين في معية اللواء خالد حسن عباس نائب رئيس الجمهورية ووزير الدفاع آنذاك وكان الوقت ضُحى الاثنين التاسع عشر من يوليو ١٩٧١ ، وكنا قد قررنا السفر الى الكويت في اليوم التالي للتباحث حول تمويل بعض مشترياتنا من الاسلحة ومنها الى الصين بعد ان رفض السوفيت منحنا تأشيرة الدخول الى موسكو كاتفاقهم السابق معنا . وكان اللواء خالد قد قرر ان يسبقنا العميد صديق حمد المسئول عن الشئون المالية بوزارته الى الكويت للتمهيد للمحادثات مع المسئولين هناك وكلَّف بعض الضباط المرافقين بصحبة العميد وحمَّلهم بعض حقائب الوفد . وبالفعل سافرت مجموعتهم في الصباح الباكر . . . وبعدها بسويعات جاءني اللواء عوض غضبان أسِفا وقال انه قد إرتكب خطأً شنيعاً اذ نسي ان يحتفظ بالحقيبة التي تحمل مصحفاً ومسبحة اهداها له شيخه الذي يسكن حي العرضة بام درمان ، والذي اوصاه بضرورة ملازمتهما له في حله وترحاله والا حدث ما لا يُحمد عقباه . وأضاف عوض أن حدثاً خطيراً سيحدث ذلك اليوم ، وانه لن يهدأ له بأل ، ولن يصلح له حال ، الا من بعد أن يعود الى حوزته المصحف

الكريم والمسبحة « البخيته » . . وفي المساء تـواترت الاخبـار عن وقوع انقلاب شيوعي في السودان . وكان أول رد فعل للواء عوض ، عند سماعه للخبر ، (ان الغُمة لن تزول ولن تتكشف الأزمة إلا من بعـد أن تؤ ول الى حيـازتــه السبحـة والمصحف الشــريف) . . . وتوجهنا من بلغراد الى القاهرة في اليوم التالي وظل عوض يردد قوله ذلك حتى سئمناه ، وكان أن أرسل بـرقية الى الكـويت الى العميد صديق يطلب منه الحضور فوراً الى مصر . وبـالفعل حضـر العميد وكـان ذلك في منتصف نهـار الخميس الثاني والعشـرين من يـوليـو ١٩٧١ وبادر اللواء عـوض بتنـاول حقيبتـه وقبّـل المصحف وخـر ساجدا . . . . وبعدها بسويعات دالت دولة المتجبرينا ، وعوض يردِّد « الم أقل لكم انه مصحفي وانها سبحتي وأنها وصية شيخي » . . . وسيقـول عني بعض القوم أفلس قلم الـرجـل اذ أصبـح يكتب عن أضغاث الاحلام . . . وسيقول السفهاء من الناس لقد نحـدر قلمه فأصبح يحكى عن الخرافات والخزعبلات . . . ونرد عليهم انها من آيات الله وما يكذِّبُ بها الا الغافلون .

(سأصرف عن آياتي الذين يتكبـرون في الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا) . وصدق الحق دائما وابدا .

الأيام :
العدد ١٠٠٣٧
التاريخ ٧ من شعبان ١٤٠٠ هـ
المـوافق **٢٠** من يونيو **١٩٨٠** م

واجب المرحلة . . زرع الاهتمام والهمة

تعودت الاستماع الى مداولات مجلس الشعب في الأمسيات التي تذاع فيها جلساته ، وحرصت على متابعة مناقشة الاعضاء لخطاب الدورة الذي هو بمثابة خطاب العرش في البلاد العريقة التي ابتدعت النظام البرلماني وارتضت النهج الملكي الدستوري . وأشهد اني قد سعدت بمستوى النقاش عامة وبالحرية التي كفلتها لوائح المجلس والتي حرص رئيسه على الالتزام بها نصاً وروحا . ولقد وقفتُ طويلاً عند كلمة حق قالها النائب المحترم علي محمد الحسن أبرسي بعد أن أشار الى تدني الانتاج في مشاريعنا الزراعية والصناعية بالرغم من توفير كافة وسائله ومدخلاته وبالرغم من الحوافز التي تمثّلت في « التقويم » وفي رفع الحد الأدنى للأجور وفي منح السلفيات وفي تشريعات الضمان الأجتماعي . فقد قال ، لا فض فوه ، « إن المشكلة ليست الحوافز بل المشكلة كيف نزرع الاهتمام والهمة في قلب المزارع والعامل » .

ولا أعتقد ان أحداً منا قد وفق في تلخيص المسألة الاساسية التي تجابه قضية التطور والتنمية في بلادنا ، ووضع أصبعه القادر على

الحلقـة المفقودة ، وشخَّص الـداء ووصف الدواء ، بمثـل ما فعـل « اخونا » أبرسي في كلمته القصيرة المعبرة الوافية . . وإنْ كـان قد تجاوز ، اذ لم يرَ بديلاً لاعلان الاحكام العرفية سبيلاً لالزام النـاس بالعمل ولفرض الاهتمام به . ولعل الذي يغفر له ويشفع حرصه على « أن يكون هناك انتاج بعد أن انتظمت التنمية واكتملت الطرق وقامت المصانع » وكذلك رغبته في أن يتميز سودان الثمانينـات عن سودان السبعينـات التي شحت فيـه ، على فتـرات ، بعض الضـرورات ، وحيث عزَّ حتى الماء ، على حد قوله ، وصعب منالـه وظل النـاس يترقبونه ويلهثون وراءه ، وحيث تمنع الخُبز وأَزوَّر ، وصـار الجميع يغازلونه ويطلبون قربه ويتزاحمون عليه .

وبـالـطبـع لم يكن العضـو المحتـرم أول المجتهـدين في هــذا المضمار فقد سبقه آخرون ، منهم من قال إنها أزمة سياسيـة ومنهم من وصفها بأنها أزمة اقتصادية اجتماعية ومنهم من عزاها الى انحدار الاخلاق والى غياب المُثل والقيم ومنهم من همس ، ولا زال ، بأنها أزمة عدم ثقة بنظام الحكم القائم في البلاد . . ولكن مهما كان من أمر المصاعب والسلبيات التي تكدر حياة الناس فـان الصورة ليست قائمة ، وليست بمثل القُبح الذي يحاول البعض أن يصف به حالنا . ولا اعتقد ان سوء الحال قد بلغ شأوا يستوجب وصفه بأنه أزمة ، اذ لو كان كذلك لاقتضى الأمر تصدِّياً أعمق اثراً ، ومجابهة ثورية مـع مسببـاتها واصـولها . ولا يجـوز ولا يصـح أن نسنـد مشـاكـل قـطر كالسودان الى عامل بعينه سواء أكان سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا فالأمور متداخلة ، والعالم تتأثر اجزاؤه واطرافه بما يحدث بين اركانه وأضلعه وفي أمصاره .

ولعلنا لا نظلم الحقيقة ان رددنا الأمر الى خليط من العوامل والمسببات بعضها محلي وبعضها خارجي ، منها الاصيل ومنها المفتعل ، ومنها ما هو اعراض مرض وارهاص سقم ، ومنها ما هو بمثابة آلام الطلق والمخاض التي تعقبها الفرحة ويقفو أثرها الفرج . . ونشترك جميعاً ، حكومة ومعارضة ، وشعباً وافراداً بدرجات متفاوتة ، في تسبب كثير من المنقصات والمكدرات . . فالحكومة تتحمل نصيبها من مسئولية التسيب والبروقراطية اللتين اصبحتا ظاهرتين ملازمتين لكثير من مرافق الدولة ، والتي من مظاهرها عدم الاهتمام وسوء التصرف وعدم الذوق الذي كاد ان يجاور سوء الأدب والذي يبدو في معاملة البعض لافراد الشعب ولذوي الحاجات الذين تضطرهم ظروفهم القاهرة الى طرق ابواب المكاتب الرسمية . فصاحب المال الذي يريد أن يبني مصنعاً او يقيم مشروعا يعامله بعضهم باذدراء وكأنما هو لص، والذي يطالب بحقوقه التي يكفلها القانون رجل متعب نبَّاح ، والمضطر الذي يرجو من مرافق الدولة فضلاً طفيلي ملحاح . ولعل الذي يضاعف من الخطر ان بعض الجهات الحكومية لا تأبه لما يقال عنها فهي تسد أذنيها احداها بالطين والاخرى بالعجين . وبعضها تملكته حساسيات مفرطة واصبح بعض المسئولين يضيقون ذرعاً بالنقد بل وبمجرد ذكر كلمة الفساد ، وبعضهم على نقيض ذلك ماشوسست النزعة ، يستهويه بُغض الناس له وشكواهم من استعلائه ومن سوء ادارته للمرفق الموكول له تصريف شئونه . . . ولا أجد علاجاً شافياً لامراض البروقراطية والتسيب والاستهتار الا البتر والحسم بعد ان ظللنا نلوك الكلام عنها

ونردده كالببغاوات ، وبعد أن عجزت اللجان التي اكثرنا من تكوينها لتقصّي الحقائق ولتشخيص المرض ، والتي هي نفسها مظهر من مظاهر الديوانية ، وحصيلة عقلية تربَّت في أحضانها فتحجّرت أو كادت . والذي يغيظ بل ويدمي أنها كلها أمراض جديدة وافدة يسهل استئصالها اذا ما حسم الناس أمرهم ، فنحن أمة لم تعرف نظرية الدولة ولم تتعامل مع مرافقها الا منذ قرن ونصف من الزمان فعهدنا بتلك الظاهرة ومؤسساتها وبالروتين قريب اذا ما قارنا أنفسنا بأقرب البلاد منا ، فقد ظلت مصر تعاني من اسقامها ، وبصفة مستمرة ، لفترة من الزمن تجاوزت السبع آلاف من السنين حيث الفرعون واجهزته التي تقمع وتردع ، تجبي الضرائب قهراً ، وتفرض الجزية والاتاوات وتتحصل عليها قسراً ، تبيع وتشتري وتنشر البغي والفساد .

ولكن بالرغم من حداثة المرض في أرضنا وضعف ميكروبه فقد كاد ان يكتسب المناعة والحصانة وذلك بفضل أخطائنا ، ومنذ الاستقلال ، في معالجته ، ومنها التلقائية واللجوء الى اجراءات التطهير غير المدروسة ثم التراجع عنها والتي كانت تحركها في كثير من الاحيان المصالح الحزبية التي لا تبرىء نفسها منها ، واحقاد التكتلات وصراعات الشلل واهواء مراكز النفوذ . . ولقد سرني ان مجلس الشعب قد أفرد بابا خاصا ضمن قراراته حول خطاب السيد رئيس الجمهورية لمعالجة التسيب الاداري والديواني ومشتقاتهما .

ولكن مهما كان من أمر شكوانا وتبرمنا بالأمراض السياسية الحديثة الوافدة فاننا نحمد الله الذي حمانا من امراض وأوبئة هي اكثر خطراً أُبتلي بها كثير من اشقائنا العرب والافارقة وعديد من دول العالم

الثالث التي لازالت تعاني من الحكم الاوتقراطي والالغاركي ومن الاقطاع والقبلية ومن النفوذ الاستعماري المقنَّع والسافر الذي يسيطر على مقومات حياتها الاقتصادية والمالية . بل نحن أسعد حالاً وأفضل كياناً من بعض البلاد الأوروبية التي يتهمنا قادتها بالرجعية ويصفونا بالتخلف ، وسوء الحال . ولكي لا أُتهم بالمغالاة والاسراف في التعصب فقد رأيتُ أن استعين بمقتطفات من تقرير عن الحالة في بولندا أعدته نخبة مختارة من المثقفين والصحفيين والعلماء البولنديين تجاوز عددها المائة وأغلبيتهم من اصدقاء النظام ومن الأعضاء البارزين في الحزب الشيوعي ومن رجال الدولة وذلك بتكليف من الرفيق ادورد قيريك سكرتير الحزب الحاكم . وقد تحصلت على صورة منه بعض الصحف الاوروبية والامريكية ونشرته مؤخرا ، ولا مساغة للادعاء بأنه مزوَّر ومُفترىً فقد أشارت الصحف الى الظروف التي احاطت بتكوين اللجنة مثل عدد اعضائها واسماء البارزين منهم وعدد صفحات التقرير وتاريخ تكوين اللجنة وهو نوفمبر من عام ١٩٧٨ . . ومن قبل فقد أثبتت الايام صحة مثل تلك التقارير بالرغم من مبادرة السلطات لنفيها وتكذيبها ومنها التقرير الذي القاه خروشوف على المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في عام ١٩٥٦ وكذلك مذكراته التي نشرت في أوائل السبعينات . . والتقرير يسهب في وصف سوء الحال في بولندا ويعدد مظاهر سلبيات الحياة هناك ونقائصها الرئيسية ومنها الامتيازات غير المشروعة التي اغتصبها الاتحاد السوفيتي لنفسه خاصة في القطاع الاقتصادي على حساب مصالح الشعب البولندي ، ومنها الرقابة الصارمة على الصحف والحجر على حرية الرأي والفكر والكلمة ، ومنها ايضا الامتيازات الكبيرة التي تتمتع بها الصفوة

المميزة من اعضاء الحزب الشيوعي واهلهم وذووهم . ويشير التقرير أيضاً الى عدم تجاوب الشعب مع الحكومة ومع الحزب والى حالة عدم المبالاة السائدة في البلاد ويخلص الى ان بولندا تسرع الخطى نحو الهاوية ، وانها تعاني من أزمة اقتصادية واجتماعية من أهم مظاهرها انعدام الثقة في كل ما تقوله الحكومة وفيما تكتبه صحفها وما تبثه اذاعاتها . وقد بلغ الامر حداً جعل الناس لا يكذبون الأخبار التي تعدِّد انجازات الدولة وتشيد بها وحسب بل باتوا يضيقون بالنقد الذي توجهه بعض مرافق الدولة لممارساتها هي نفسها على أساس انه لغو وافك .

ولا شك عندي أن حال بولندا اليوم هو نفس حال بقية دول أوروبا الشرقية التي تدور في فلك الدب الروسي . ونحمد الله الذي نجَّانا ، ونجَّى البقرة ، فنحن ومهما قيل عنا نقف على أرض سياسية صلبة خاصة بعد ان تخطينا العقبة الكؤود ، التي كانت تقف حائلا كالطود ، في طريق وحدة القطر شماله وجنوبه وبعد أن رفرفت رايات السلام العادل على ربوع البلاد ، وبعد أن طرقنا سبيل التنمية والتطور الديمقراطي المستقل واتخذناه منهاجاً وشرعاً وبعد ان شيدنا المصانع وأقمنا المشاريع وعبدّنا الطرق . . . والبقية تأتي . .

ولكن لكي تأتي تلك البقية وتنزاح المعوقات ويسعد الحال ويتحقق الرخاء لا بد أن نتحمل مسئولياتنا كاملة كشعب وكأفراد في عمليات الاصلاح فالحكومة ليست وحدها المسئولة عن حالات التسيب والفساد . . فنحن طرف أساسي في إفساد الضمائر والذمم وفي خراب النفوس إذ أننا ندفع الرشاوي ونتستر على المخالفات والجرائم ونتعايش مع المفسدين ونتداول اشاعات الحاقدين ونردد

أباطيل المرجفين . وأسوأ من كـل ذلك نتقـاعس عن اداء واجباتنـا والتزاماتنا في المدارس والمصانع والمزارع والدواوين ، بالرغم من الحوافز والضمانات التي كفلتها القوانين .

والمعـارضة التي تـرفض مصافحـة اليـد الممـدودة لا تسلم هي بدورها من الأذى ومن « طرف السوط » ومن ضرباتـه بل ربمـا كان نصيبها من آلامه المبرحة أكبر فهي لا تكتفي بالامتناع عن المشاركة في البناء فحسب وانما تـدعو جهـاراً لهدم مـا تم تشييده ولتقـويض السقف الذي ارتفع . . . وليتهم قدموا البديل .

وها نحن نعيش كل مساء مع مداولات مجلس الشعب الذي دعوا لمقاطعته فلا نحس حجراً ولا نلمس قيدا . بل ونستمـع الى رئيس المجلس ينـاشد الاعضـاء الوفـاء بمسئوليـاتهم والتصدي لمهـامهم الـوطنية في التشـريع والـرقابـة والمحـاسبـة مستشعـرين معيّـة الله ومستوحين ضمائرهم ومتسلحين بشجاعة الرأي وبأمانة الفكر وأصالة القول والعمل . . . ومن قبل وفي كل الدورات حرص رئيس الدولة ان يؤكد لاعضاء المؤسسـة التشريعيـة انهم أذنه التي تسمـع وعينه التي تبصر ويده التي تبطش . ولا مساغة للظن أنه يقول ذلك تقـرباً وتملقاً وزلفي فهو ليس كأغلبية رؤساء الدول الذين يدينـون بالـولاء للبرلمانات التي هي وسيلتهم لارتقاء مـدارج السلطة والحكم اذ قد جاء عن طريق البيعة الشعبية . . . ومعذرة للصديق الدكتور منصـور خـالد والتحيـة لـلاستـاذ احمـد الأمين الـذي عـاب على الـدكتـور استهجـانـه لكلمـة البيعـة وهي لفظ قـرآني كـريم وتقليـد اسـلامي حميد . . ومن قبل أيضا صال الاخوة الدكتور عمر نور الدائم وأبـو نفيسة وشركاؤ هم وجالوا ولم يقل لهم أحد « عينكم في رأسكم » .

ولقد ظلت المعارضة وعلى مدى عقد كامل من الزمان تدعو المواطنين لمقاطعة كافة مؤسسات الحكم التنفيذية والتشريعية والمحلية والاقليمية والقومية ولقد استجاب لها من استجاب ، ولكن ذلك لم يوقف القافلة فهي تمضي وتسير ، والمتربصون بها يحرثون البحر ويقبضون الريح . ولم تكتف المعارضة بذلك بل سعت لخلق الانهيار ، وتردي الحال ، وذلك بتهريب البضائع والمال ، وبتخزين السلع والمنقولات من الضروريات ، وببث الرعب في قلوب المستثمرين والمستهلكين . . . ولكن دون جدوى فقد ظلت القافلة تمضي وتسير . ولجأت للشارع تحرض الناس وتدعوهم للمجابهة وللصدام وحتى صبية المدارس لم يسلموا من اذاها فقد زودتهم بالحصى والعصى والحجارة . وأخيراً لجأت الى بعض الدول لتعينها بالمال ، وتمدها بالسلاح ، وتدرب لها الرجال . . وردَّ الله الكيد بعد ان كاد التآمر ان يفلح وبعد أن سال الدم وروى ثرى الأرض الطيبة .

ولكن ، ومرة أخرى ، عفا الله عما سلف ، فكلنا مخطئون نادمون . وغداً يتدفق البترول ويسيل معه اللعاب وتتفتح الشهية وينفرط الوجه العبوس ، وتطيب النفوس ، كل النفوس . ونُقبل جميعاً على العمل المثمر ، فتهتز الأرض الخاشعة وتخضّر ، وينع الزهر ، وينبت الزرع ويدّر الضرع . . ويومئذ يفرح السودانيون ، كل السودانيين، بنصر الله وبرزقه ونعمه وفضله. .وتفاءلوا بالخير .

الأيام :
العدد ١٠٠٤٣
التاريخ ١٤ شعبان ١٤٠٠ هـ
الموافق ٢٧ يونيو ١٩٨٠ م

عندما كنت حاكما في فينا

للثاني عشر من يونيو طعم خاص ونكهة خاصة بـالنسبة لي فقـد ظللت ، وأنـا عبد الاحسـان الشكور ، احتفظ لـه بذكـرى خبـرين سارين تلقيتهما فيه ، وكانا معلمين بارزين في تـاريخ حيـاتي . . . كان ذلك في عام ١٩٥١ ، وكنت قد أتممت دراستي بجـامعة فؤاد الأول وبقيت في القاهرة أترقب اعلان نجاحي في الامتحان النهائي ونيل شهادة الليسانسية في القوانين . . . وأخوتنا الحقوقيون في مصر يصرون على ايراد صيغة الجمع لكلمة القانون في هذا المقام لأنها تملأ الفم ولأنها تضيف الى الهيبة اللازمة للعاملين بـالقضاء بشقيـه الجالس والواقف كما يحلو للبعض أن يقول . . . وأعلن المـرتجى وكان خيراً كله .

ولم يقف ذلك اليوم على إعلان الخبر السَّار بنتيجة الامتحـان ، فقد تسلمت فيه رسالة من الرفيق كورييل الذي كان قد أُبعد من مصر واتخذ ايطاليا موطناً له ومقـرا ، يلح فيها عليَّ بمقـابلته في رومـا . وكان الرجل شديد الاهتمام بالسودان وعظيم الثقة بأبنائه وكبير الأمل في مستقبل الحركة الشيوعية فيه .

وأشار في رسالته انه سينظم لي ولمن يرغب من الفتية الاشاوش وكان هذا راية في شباب السودان ، الاشتراك في مهرجان الشباب العالمي الثاني والذي كان مقررا عقده ببرلين في يوليو من ذلك العام وكانت أغلبية الطلاب قد غادروا مصر بعد الانتهاء من اداء الامتحانات وبقى الزميل الصديق عامر جمال الدين رئيس لجنة الشئون القانونية بمجلس الشعب الحالي. واستقر رأينا على السفر إلى ايطاليا حيث كوريل ومنها الى المانيا الشرقية أو الديمقراطية ، كما يحب بعض اهلها ان يصفوها . وبعد تحايل ومحاورات (وزوغان) من سلطات الأمن ركبنا السفينة (كامبدليو) من الاسكندرية وكنا ثلاثة فرسان ، ثالثنا مهندس شاب مصري زينت له (حدتو) ، احدى تنظيمات الحركة الشيوعية المصرية ، أمر الاشتراك في المهرجان وأوصتنا به خيرا . وكان هو الذي دفع لي قيمة التذكرة ذهابا وقدرها خمسة عشر جنيها التزمتُ بردها له بروما من جيب كوريل بالطبع حيث لم يكن بحوزتي غير خمس جنيهات مصرية هي كل ما كنت أملك بجانب (البدلة) التي كنت ارتديها وتوابعها الضرورية اذ تركت بقية ملابسي القليلة وحقيبتي (بالبنسيون) الذي كنت اشارك شخصا آخر السكن في احدى غرفه المتواضعة وذلك درءاً لشبهات صاحبته بنت هيلين التي كان لها في ذمتي ثلاث جنيهات ونصف متأخرات ايجار شهر بجانب الأجرة التي كان مفروضا ان تستحق في أول يوليو . وقد برأتُ الذمة ، ولكن بعد سنين ، عندما زرت مصر في منتصف يناير من عام ١٩٦٥ وكنت وقتها وزيرا للزراعة والغابات ، واذكر اني عندما اقتحمت على الاغريقية غرفتها كادت أن تفتك بي ولعنت « سنسفيل » جدودي كما يقول اخونا الاستاذ الريفي ، أغال الله عثرة عينه وكشف عنه غطاء

بصره وجعله حديداً في هذه الدنيا قبل الآخرة . وليت شقية الحال اكتفت بلعنة جدودي وحدهم فقد امتد لسانها الاغلف السليط الى البرابرة والملونين امثالي . ولم تهدأ الا من بعد أن دخل الغرفة رجل الأمن المصري الموكول له أمر حراستي حيث أشار عليها بالتزام قواعد الأدب عند مخاطبة أصحاب المعالي الوزراء الباشوات ورضخت الشمطاء للأمر ولكن على مضض . ولعلها كانت تتحسر على ذلك البلد التعيس الذي يتولى فيه امثالي منصباً وزارياً . ولكن ما ان علت يدي يدها وامسكت السفلى برزمة الاوراق من فئة العشر جنيهات الا وانفرط وجهها وتهللت اساريره وآمنت انه يمكن ان يكون مثلي وزيرا وفي احسن البلاد ، ومنها اليونان التي انجبتها هي وارسطو وافلاطون وسقراط . . « والبطن بطرانه والنار تلد الرماد » ، وآمن الشرطي المرافق ايضا انني بالفعل مثل الباشوات وأكثر . ولا شك عندي انه كان يستعجل نهاية نوبة حراسته لي ليهرع للعجوز ويشيل « شليته » منها ، وما فيش حد أحسن من حد فكلاهما من خلق الله الرازق ذي القوة المتين .

ورست بنا السفينة في باري بجنوب ايطاليا بعد أن بتنا ثلاث ليال على ظهرها حيث كانت في الأصل ناقلة بضائع والقدر اليسير من غرفها (الكابينز) كان محجوزا للمقتدرين الذين لم أكن بالطبع أحدهم ولا صديقي عامر احمد جمال الدين رغم ادعائه أنه عباس ابن أصول ، ورغم ان المغفور له والده كان يلقب بملك الفاصوليا والفول .

وكانت سعادتي فائقة برؤ ية مدينة باري اذ كنا قد تعودنا في بداية الحرب العالمية الثانية الاستماع الى اذاعتها وهي تزف لنا بشرى

هـزائم الحلفـاء في شمـال افـريقيـا وفي أوروبـا على يــدي هتلر وموسليني . ولكن سرعان مازالت سعادتي بالمدينة فقد كان الطليان بالقطار يعاملوننا في بادىء الأمر باهتمام حيث كان ظنهم أننا زنـوج أمريكان وكنت قد خلعت ملابسي وبقيت بـالبنطال حيث كـان الجو حاراً رطبا .

ولكن ما ان تكشفت لهم حقيقة أمرنا بأننا من ابناء القارة السوداء حتى قلبوا لنا ظهر المجن وباتوا ينادوننا (بسمبو) وأظنها تعني العبد الصغيـر أو الزنجي الصغيـر أو حتى القرد الصغيـر . . . « وكله عند اخواننا الطليان صابون » . . . ولا غرو فهم حفدة بـروتس ودراكولا ونيرون المجنون وهم اهل فن وحكمة ومجون .

وقابلنا الرفيق يونس بروما وكان هذا هو الاسم الحزبي أو الحركي لكورييل وكان قد اختار لنا نزلا يجاور كنيسة سانت بياترو التي زينتها رسومات ليوناردو دافنشي وروائع مايكل انجلو . وكان كورييل فنـاناً أصيلا يتذوق الشعر ويتعاطى الأدب ويعشق الموسيقى ويحرص على اقتناء اللوحات الجميلة .

وأسر لي الرجل أنه قد نظم لي جولة في بلاد أوروبا الشرقية بعد انتهاء مهرجان الشباب لاكتساب مزيـد من الخبرة في العمـل داخل بعض المنظمات الجماهيري التابعة للأحزاب الشيوعية مثـل تنظيم الشبـاب الالمـاني الحـر (إف . دي . يـوت) ومنظمـة الشبيبـة البولنديـة (دِ . امِ . ب) وكذلك بعض التنظيمـات الديمقـراطية العالمية التي هي في الاصل واجهة لنشـاط الشيوعيـة الدوليـة رغم الادعاء بأنها غير ذلك مثل اتحـاد الشباب الـديمقراطي العـالمي ، واتحاد نقابات العمال العالمي ، وكان مقر الاخيرين بفينـا عاصمـة

النمسا ومجلس السلام العالمي الذي كانت رئاسته ببراغ قبل أن ينتقل الى فينا ومن بعدها لهلسنكي .

وفي برلين انضم الينا الاخوان فخر الدين محمد نائب وزير الخارجية السابق والسفير الامين محمد الامين وابراهيم نور وكيل وزارة المعارف السابق والمستشار الثقافي الحالي بلندن وكان ثلاثتهم يتلقون وقتها العلم بجامعات بريطانيا مبعوثين من قبل حكومة السودان . وتفضل الاخوة ونصبوني رئيسا لوفدهم بالمهرجان .

ولا يحسبن أحد أني كنت أكبرهم سنا ، فأنا من مواليد أم درمان وبحوزتي شهادة ميلاد اصلية تحتوي حتى على اسم الداية التي شاركت في عملية اخراجي للحياة فنالت بذلك غضب بعض الذين يبغضون مقامي بينهم في هذه (الزايلة ام بنايا قش) . وربما كان الدافع لاختيارهم لي رئيسا لوفدهم اني كنت أكبرهم مقاما إذ كنت أكثرهم (حُمرة) وهي ميزة لها أهميتها في بلاد يحكمها رفاق حمر ، أو ربما كانوا قد رأوا أن يحملوني اعباء الرئاسة ليتفرغوا هم للمتعة التي لم تكن كلها طاهرة برئية . . . ومادروا أن للرئاسة نصيبها من الغي الذي ربما كان حظها منه أوفر .

وقد كانت أيام المهرجان كلها بهجة ومسرة . . . فقد كنا شبابا . ولعل مما زاد من بهجتنا وجود الصديق العزيز الشاعر الكاتب عبد الرحمن الشرقاوي على رأس وفد مصر . وكنا نقيم في نزل واحد . وكان عبد الرحمن وبعض أعضاء وفده يصرون على مرافقتنا في (زواعتنا) في حواري برلين وبين منتزهاتها . فقد كان لنا نحن السمر أو الخضر أو السود أو سمنا ما شئت حظوة عند فتيات المانيا ، وكان الشرقاوي يداعبنا ويقول ان المضطر يركب المركب الصعب

وان صداقته لنا مفتعلة اقتضتها المصلحة وانها ستنتهي بمجرد انتهاء المهرجان اذ أنه لا خير في معاشرة الزنج أمثالنا وكـان يترنم مـازحا ومحرفا بيت الشعر :

ومن نكد الدنيا على (الحر)

أن يـرى (عبدا) مـا من صـداقتـه

ويردد المقولة (عربد الزنج وقتلوا أبن هاني) .

وانقضت أيام المهرجان التي قل ان يجود الدهر بمثلها . وصدَّق كوربيل وعده ولبثت في المانيا بضعة أشهر في ضيافة شبابهـا أتنقل معهم ما بين لايبزج وايزناخ وقيمر أتتبع آثـار عمالقـة الأدب والشعر والموسيقى والسياسة واللاهوت ومخلفات جوته وهاين ومارتن لـوثر وبـاخ ولبنخت وكارل مـاركس . وبعدهـا تـوجهتُ الى بـراغ حيث التحقت بمكتب مسيو لافيت سكرتير مجلس السلام العـالمي وكان هذا أحد أبرز قادة الحزب الشيوعي الفرنسي آنذاك . وكان الاتحاد السوفيتي يولي حركة السلام اهتماما فائقـا اذ لم يكن ميزان القـوى العسكرية في صالحه ولذلك فقد كان على رأس قائمة مهام الاحزاب الشيـوعية وفي كـل انحاء العـالم صيانـة السلام العـالمي والحرص عليـه . . . . ومـا أعجب أمـر الـدول ، صغيـرهـا وكبيـرهـا ، فهي كالانسان الكفور اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا . . . وها نحن نشهد الدب الروسي يتنمر ويهدد السلام والأمن الـدوليين بعد أن صحى من بياته الشتوي وقوي ساعده (وشمّ نفسه) .

ولبثتُ ببراغ قرابة الأربعة اشهر انتقلت بعدها الى فينا حيث كنت قد اخطرت بأني سالتحق بسكرتاريـة اتحاد الشبـاب العالمي هنـاك وكم كـانت دهشتي عظيمـة وسروري بـالغـا عنـدمـا استقبلني على

الحـدود النمسـويـة التشكيـة رفيق روسي ومعـه ضـابط من الجيش الاحمر واخبرني انهم قد قرروا الاستعانة في بعض اعمال الترجمـة من العـربية الى الانجليـزيـة والعكس ، وانني سـالتحق بفـرقـة من الجيش الاحمر تُشرف على ادارة الهجرة والجوازات في (الـزون) الروسي أو القطاع الذي تحتله القوات الروسية ، وكانت فينا مقسمة الى اربع مناطق ـ الزون الامريكي والبـريطاني والفـرنسي والروسي ويفصل بينها شارع رينر شتراس .

وهناك تعرفت على شاب افريقي يدعى دزموند باكـل هاجـر من جنوب افريقيا موطنه الاصلي واقام فترة بغانا ثم طاب له المقام بلندن ولعله كـان محل ثقـة الروس مثلي وكـان يقـوم بـأعمـال التـرجمـة والاتصال مع الوفود الافريقية وكـان الروس يهتمـون بالافـارقة مثـل اهتمامهم بالعرب . وكنا نرافق القوات الروسية المنـاط بها حـراسة حدود القطاع السوفيتي في النمسا لاستقبال اعضاء الوفود الذين كانوا يحضرون للاشتراك في مؤتمرات العمـال والشباب ومـا اكثرهـا . . وكنت وصـديقي د زمـونـد نقيم في نـزل خـاص فـاخـر وكـانت (الكارنيهات) الروسية التي نحملها تبيح لنا ، بوصفنا من حواريي الجيش الحاكم ، دخول كافة المنتـديات والمـراقص والملاهي في القطاع الروسي وكنا نقضي جل امسياتنا بين ملهى (ألتِنْبـرجهوف) و (المولاروج) وهو مـرقص يشابـه سمية بحي بيجـال بباريس . وكنا عندما نطل بطلعتنا البهية ونُشِّرف المكان يهرع المشرفون على أمرها ويسارعون باعداد المكان الذي يليق بمقامنا الرفيع ويضعـون أول ما يضعون العلم الـروسي في المنضدة التي نجلس حـولها ثم تتوالى الصحاف وتدور الكؤوس والاكواب بما لذ وحرم وطاب . .

وكانت اياما . . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

الايام :

العدد **١٠٠٤٦**

التاريخ ١٨ من شعبان ١٤٠٠ هـ

الموافق أول يوليو ١٩٨٠ م

الخريف المفترى عليه

وكتبنا حتى كاد المداد أن يجِّف، والكلمات ان تنفذ. وردَّدنا القول حتى كاد ريقنا ان ينشف ، وصبرنا أن ينفذ . واطلقنا العنـان للسان حتى كاد صوتنا ان يبيح ويـذهب ، وحذَّرنـا حتى أوشك معيننـا ان يغيض وينضب . وعدَّدنا نقائصنا وكشفنا سلبياتنا حتى كدنا ان نكره النفس والارض والـولـد ، والحـال والمقـال والبلد ، وحتى ضـاق بنـا البعض ذرعاً وذهبـوا في تفسـير الـدوافـع لمـا نقـول ونكتب كـل مـذهب . . . ولكن لا مجيب ولا سميع ولا مغيث فـالكل مشغـول بأمره مكر مفر مُـدْبِر . والأمـور تسير من سيء الى اسـوأ ، فكأنمـا نضـرب في حديـد بارد وفي جسم ميت . . . والضـرب في الميت حرام .

وتملكهم الظن الآثم ، وقالوا إنها السلطة من وارثها يلهث ، وقد فاته القـطار ، فأصبـح كالـذئب يعوي في الغفـار . وكالكلب ينبـح والقافلة تسير وليتها كانت تسير ، وكالسعران همه أن يعض وشأنه أن ينهش . وقالوا به جنَّه وبه مرض . وتراءى لهم ان وراء كل قوله حقٍ قصـدٌ وغـرض . وحسبـوا ان النـاس مثلهم وكـأسنـان المشط ،

تستهـــويهم السلطة وتسلب لبهم شهـــوة الحـكم ، تـملك عـليهـم حواسهم وتعمي أبصارهم وتصم آذانهم . . . ولن يجدي القولُ مع الملأ الذين يتبّعـون الظن ومـا تهوى الأنفس ، ولن ينفعهم النُصْـحُ فكل اناءٍ بمـا فيه ينضـح . وسيظلون يتهمـون ، وبأحـاديث الافك يتسامرون ، وبالاثم والعدوان يتناجون ، وفي ضلالهم يعمهون ، الى أن تأتيهم الغاشية وتحل بدارهم الكارثـة التي ليس لها من دون الله كـاشفة . . وقـد كادت هـذه ان تحيق وتـطبق لـولا لـطف الله ورحمته الذي كشف الغُمَّة فضلا منه ونعمة . ولكن تخشى ان تعاود الأزمة الكَّرة اذا لم نتدبر الأمر ونعى الدرس والعبرة ، ويومئذ سنندم حيث لا ينفع الندم .

ونتساءل كما لم يتساءل غيرنا الى أين نحن مساقون ؟ والى متى نقبل التعايش مع الفساد والكساد والتسيب والبوار ؟ والى متى نـظل نغمض العين ونبرر الافعال ، ونسوق الاعذار لعبث الصغار ، الذين ابتليت بهم البلاد وناءت بحملهم الامصار ؟ والى متى نغض الطرف عن اعمال التخريب البادية والمستترة ، الظاهرة والباطنة ، المقصودة والسائبة والمحسوبة والسارحة ؟

لقـد تعوَّدنـا اسناد النقـائص والمصاعب والمكـدرات الى فصل الخريف المفترى عليه ، والى الموروثات التي عفى عنها الـزمن ، والى تدبير الحزبيين والطائفيين الذين يحرضّون ويثيرون الفتن . . . ونضيف اليوم للقائمة ونقولها بملىء افواهنا وبأعلى أصواتنا أنه يقف مع هؤلاء وفي نفس الصف ويركب معهم وعلى نفس السرج ، فئة من المنتفعين بمـايو المحسـوبين عليها الـذين تسللوا الى المـواقـع المتقدمة خطأ وغفلة . وقد حان الآوان لاعادة النـظر في أمر الـذين

تقدموا الركب والمسيرة إفكاً وافتئاتاً قبل أن يختل الميزان ، وقبل ان تطغى كفة المخربين والمندسين والغافلين والسلبين ، ونخسر الميزان .

ونتساءل عن السر في بقاء بعض المسئولين الذين لا يملكون القدرة على المبادرة وعلى تحكيم العقل ووزن الأمور وعلى استقراء الأحداث وعلى التحوط للمغلبات والمضباط والأزمات التي تثير اليها الدلائل ، وتسبقها الارهاصات ، والتي ظلت تتكرر طيلة السنوات الماضيات .

ولعل البعض من هؤلاء المحسوبين على المسئولية قد ظَنَّ أن من شأن النظام الرئاسي ان يكون رئيس الدولة وحده المبادر والناهي والآمر ، وانه وحده الذي يتحمل العبء والوزر ، فصاروا لا يقدمون على أمر الا من بعد استشارته ، ولا يبادرون لفعل الا بتوجيهه ، ولا يطأون أرضاً ولا يعبرون وادياً ولا يضعون قدماً الا بوحيه واذنه . والرجل يكرر النصح « إعملوا وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ويردد القول حتى بح صوته لا تجعلوني متكأً وملاذاً تحتمون به وتسندون اليه اخطاءكم ، ولا تلجأوا اليَّ إلا فيما عظم من الأمور ، وإلا لتذليل الصعاب التي تحتاج الى ثقل الرئاسة والى تحريك السلطات التي يستأثر بها المنصب الرفيع والتي يخوّلها له الدستور والقوانين واللوائح .

ونتساءل مع المتسائلين الذين هزتهم مأساة الدمازين هل هي أول مرة يفيض فيها الفتى الازرق فيقتلع الاشجار والصخور والحجار ويدفع بها الى حوض الخزان والى مداخله ؟

ونسارع ونجيب بالنفي ونضيف بأن ذلك كان في الحسبان ومنذ

بنـاء الخزان اذ تـزخر المنـطقة التي أقيم بهـا بـالاشجـار الضخمـة الفارعة . وأذكر أننا في حكومة اكتوبر الثانية وبالتحديد في شهر مايو من عام ١٩٦٥ ناقشنا في مجلس الوزراء أمـر المخاطـر التي تهدد انتاج الطاقة الكهربائية المائية من جراء فيضان النيـل الازرق اذا لم تقتلع الاشجار والاعشاب التي تكثر عند حافة النهـر وحول حـوض السد المنيع ، وأذكر ان اول من أثار الأمر ونبه الى خطورته السيـد احمـد المهدي وكـان وقتها وزيـراً للري وقد شكلت لجنـة وزاريـة للتقدم بتوصيـاتها ضمَّتْ سيـادته والاستـاذين ابراهيم المفتى وريـر المالية الذي خلف المرحوم مبارك زروق ومحمـد جباره الـذي كان وزيراً لشئون الرئاسـة وشخصي بوصفي وزيـراً للزراعة والغـابات .
وكان ان استغلينا وبعض المستشارين والفنيين طائرة خاصة حلقّت بنا فوق منطقة الخزان واردفناها بجولة بريِّة بالعربات . واذكر ان تقارير الفنيين كانت تشير الى وجود اكثر من ستة آلاف شجرة كبيرة جلها من شجـر التبلدي الضخم وكانت تـوصية اللجنـة الوزاريـة ضرورة استعجال تنظيف حوض النهر من الاشجار والاعشاب وترك أمر تنفيذ التوصية لمصلحة الغابات التي قدم مديرها مشروعاً مقتضاة ان يسند الأمر الى صغار المقـالين بحيث يستأثـر كل منهم بمسـاحة محـددة ومعينة وذلك بعد أن رفضت اللجنة عرض احدى الشـركات لتنفيـذ المهمة في مقابل مبلغ يزيد قليلا عن نصف المليون جنيهاً وبالتحديد خمسمائة وستة وسبعين الفاً من الجنيهـات ولا أدري ما حـدث بعد ذلك اذ انتهى عمر تلك الحكومة بعد أقل من اسبـوعين من زيارتنـا للدمازين وحلتْ محلها حكـومة الاحـزاب والطوائف المتصـالحة .
سقتُ ذلك لادلل بأن المشكلة قديمة وان مسئولي اليوم لا يتحملون وحـدهم الوزر اذ تمتـد المسئوليـة وتشمل كـل الذين تعـاقبوا على

الاشـــراف على ادارة مـرفقي الكهــربــاء والخــزان منــذ منتصف الستينات .

وثمة سؤال ثان يفرضه ويثيره الرد على التساؤ ل الاول . لماذا لم نتحـوط للأمـر ولمـاذا لم نبعث بـالعمـال والمهنـدسين والمعـدات والغطاسين قبل ان يستفحل الأمر ويصل الى حافة الكارثـة كوصف السيد وزير الطاقة والتعـدين خاصـة وان ما حـدث هذه السنـة كان متوقعاً على حد قول السيد وزير الري في مؤتمره الصحفي الاخيـر حيث أشار الى ان الفيضان في السنة الماضية كان احـد أقل ثـلاث فيضانات منذ بداية هذا القرن وان ذلك مؤشر الى ان الفيضان الذي يليه سيكون اكثر عتّواً وفتوة وسيحمل معه من الأعشاب والـطمى ما يشكل عبئاً إضافياً على توليد الكهرباء من الخزان .

ونتساءل ايضاً عن ماهية التـدابير التي أُتخـذت لتعويض النقص المتوقع في حجم الطاقة الكهربائية في مثل هذه الايام ؟

ونتساءل كذلك لماذا لم يبادر جمع المسئولين لتدارك الأمر الا من بعد أن أشار بذلك السيـد الرئيس في اجتمـاع مجلس الوزراء قبـل الاخير . ولماذا لم تهبْ منظمات الثورة كل بمفرده ومن تلقاء نفسها للاسهام في حل الضائقات التي اتصلت حلقاتها قُبيل العيد ، ولماذا لاذت بالصمت الا من بعد ان دعى السيـد رئيس الدائـرة السياسيـة للاجتماع المشترك بين التنفيذيين والسياسيين ؟

ان كل يوم يمر يثبت صحة ما ظلللنانردده بأن من مواصفات القيادة والريادة الحرص على تلمس نبض الجماهير والمقدرة على التفاعل معهـا والتصدي لحـل مشاكلهـا وتخطى مـوانـع الـروتين وحـواجـز البيروقراطية واسباب الجمود ، وانه لن يستقيم الحـال ولن يستغلظ

العود الا اذا أخرج السياسيون والتنفيذيون والنقابيون عن عزلتهم القاتلة داخل الابراج والمكاتب والدواوين الى الاسواق والى حيث تجمعات العاملين والمستهلكين . وليت الأمر قد اقتصر على مجرد سلبية البعض وترددهم وامتناعهم عن المبادرة في اتخاذ القرار وفي التحوط لما يمكن ان يحدث من ضرر وضرار ، فقد درج البعض على ارسال التصريحات غير المسئولة التي تثير سخط الناس وسخريتهم والتي تظهر التناقض بين الاقوال والافعال وبين الوعود الزاهية وبين الواقع الملموس ، وتزيد بالتالي من أزمة عدم الثقة بين الشعب وقيادته وبين الحكام والمواطنين .

ولعلنا قد قرأنا كلنا التصريحات التي تواترت قبيل رمضان من أنه لن يحدث انقطاع في التيار الكهربائي طيلة شهر الصيام الذي صادف توقيته بداية الفيضان . وكانت النتيجة عكس ما تنبأ به المفترون وما بشّر به المنجمون . ولعلنا قد قرأنا كلنا المساجلة والمناظرة التي كان محلها صفحات جريدة الصحافة الغراء بين احد مهندسيي الادارة المركزية للكهرباء وبين رصيف له من وزارة الري حول ما حدث في الدمازين والتي كلنا فيها كالريشة في مهب الرياح تتقاذفنا الاراء المتضاربة حتى بتنا ، في حيرة من أمرنا كأبي العلاء المعري ، والعياذ بالله ، لم يدرِ ما الصحيح . . . هذا بناقوس يدق ، وذا بمئذنة يصيح .

والرجاء ان يصدر التوجيه لكافة الأجهزة والمرافق خاصة التي يتصل نشاطها بتلبية احتياجات المواطنين ان تكفَّ عن الادلاء بالتصريحات غير المسئولة والوعود الزائفة المعسولة . وليعلم هؤلاء أن مِنّا من يقرأ الصحف بنهم وعناية ، ويسجل كل ما يتقيأون ،

ويحتفظ بالقصاصات التي تحمل ما يفترون ويوعدون .

والرجاء أيضاً ان يكف البعض عن اسناد كل قبيح ، يتحملون هم مسئوليته ، الى فعل الطبيعة التي هي من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه ، فقد ظلوا يفترون على الخريف ويصفونه ظلماً بأنه فصل الكوارث والأزمات وهو الذي فيه يغاث الناس ويزرعون ويحصدون ويعصرون .

ورحم الله شيخنا بابكر بدري الذي كنا في الصغر نتغنى باهاجيزه وشعره ، نشاركه البهجة والفرحة بقدوم سيد الفصول ونردد معه القول :

جاء الخريف وصبّتِ الأمطار
والناس جمعا للزراعة ساروا
هـذا بمفـرده وذاك بـابنـه
والكل في الحش السريع تباروا

وويل للذين يبدِّلون نعمةْ الله كُفْرا .

الايام :

العدد : ١٠٠٨١
التاريخ : ١٩ من شوال ١٤٠٠ هـ
الموافق ٢٩ من اغسطس ١٩٨٠ م

من وحي انقلاب تركيا

بالأمس كتبتُ عن بولندا المغلوب على أمرها وأشرت الى حالها الذي تردي ، وإلى نظامها الذي أصابه البِلى ، وإلى حزبها الذي تجبر وغوى ، والذي فُرض على الناس فرضا ، بعد أن لفظوه لفظا ، وبعد أن أفلس وهوى . وقلتُ انه لن يكتب لنظام يعادي الدين أن يبقى ، إن لم يكن اليوم فغدا . . . فهكذا عبر التاريخ منذ عادٍ الأولى ، ودروسه منذ عهد نوح وقومه الذين كانوا هم أظلم وأطغى .

واليوم نمسك بالقلم لنكتب عن محنة دولة أخرى تنكَّب قادتها الطريق السَّوي فجاءتها البلاوي تسعى والمصائب تترى . فما حال تركيا بأفضل من شأن بولندا . فهما في الهم والغم سواء ، اذ يجمع بينهما سوء الحال والبؤس والشقاء ، رغم اختلافاتهما السياسية والتزاماتهما الدولية والولاء ، ورغم التباين الجغرافي والتاريخي والعرقي وخصائص كل منهما ، والتكوين النفسي لشعبيهما .

ولعلها حكمة السماء التي تقدم لنا كل يوم الجديد من الآيات والعبر ، علَّنا نتدبر ونبصر .

وما أعجب تصاريف القدر . وما أعظم هذا الكون ، كل شيء فيه محسوب . كتابه موقوت وقدره معلوم . لكل شيء فيه بداية ولكل نهاية . دروسه تتتابع وعظاته تتوالى ، ونحن في غفلة عن أمرها . فمرة من ايران حيث الشاه الذي ظن أنه قادر عليها فطغى وبغى ، ومات غريبا ودفن بعيدا عن رفات كسرى . واخرى من أفغانستان حيث أمين الذي تجبر وعتي ، وباع نفسه للشيطان فاذاقه الله نكال الآخرة والأولى . وتارة من نيكاراجوا حيث سيموزا الذي أهلك الحرث والنسل فمات طريداً مُشرَّدا . ومن أفريقيا حيث بوكاسا الذي فتنه ابن كورسيكا فغوى وطار العرش وهوى . ومن جنوب أوربا حيث تركيا وديميريل الذي كان بالأمس يملأ الدنيا ضجيجا وصخبا ، فأصبح اليوم من الأسرى الذين لا نسمع منهم همسا ولا ركزا . ومن قبله رفيق من البلطيق يسمى جيريك ، عبد الطاغوت فلما قضي منه هذا وطرا ، لفظه فانحنى ثم جثى ، ثم انزوى ، وشرب من نفس الكأس التي سقاها سلفه جوملكا .

وكثيرون غيرهم يهيمون على وجوههم كالكلاب الضالة وكالسائمة لا يدرون أين المستقر ولا أين المفر . . . والليالي حبالى يلدن آخرين تغشاهم الغاشية وتضيفهم الى القائمة .

ولعله الحق قد جاء ليزهق الباطل ويرديه ، ويُعرّى الزيف ويخزيه ، فنحن نعيش في عالم يتاقسمه ماردان يدّعي كل منهما ان نظامه هو الأعلى وان طريقته هي المثلى . . . وتجيء أحداث بولندا لتكشف الغطاء ولتزيح الرداء عن الكذبة الكبرى بأن الشيوعية هي المخرج الأوحد والأسمى من العنت والعوز والمعاناة . وتتبعها أحداث تركيا لتدحض هي بدورها الافتراء ولتصفع الادعاء بأن النظام

الرأسمالي هو السبيل الأوفى .

ونقول لهم ان كل شيء ماخلا الله باطل وانه ما من نظام يحيد عن رسالات السماء الا كتب عليه الفناء ، فهذه حكمة التاريخ وسنة الحياة التي لم تُخلق عبثاً ولا هوى .

ونقول لهم ان سِر البلاء هو الادعاء بأن الدين خرافة كبرى ، وانه والعلم على طرفي نقيض كالشتيتين لا يلتقيا . ولعل هذا سر المأساة التي حاقت ببولندا ، ومن بعدها تركيا ، فكلاهما ينظر الى الدين نظرة احتقار وازدراء .

والغريب في الأمر ان شعوبهما قد عُرفت بالتدين والتقوى ، والايمان بخالق الأرض والسماء . فبولندا اكثر بلاد أوروبا التزاما بالمسيحية وبتعاليم ابن البتول عيسى . والاتراك قد عرفوا منذ قرون الهجرة الأولى بالتمسك بأهداب الدين وبالحنيفية السمحاء . ولكن كلا البلدين قد أُبتليتا بأنظمة تفترى على الله كذِبا ، وتدّعي ان الدين معوق للتطور وانه أفيون يخدر الشعب فيستكين ويرضى .

وليس هذا الزعم ، بالطبع ، غريبا على حكام بولندا ، فهم كسائر الشيوعيين والماركسيين لا يرون في الدين الا ظاهرة اجتماعية ضارة ، وقيم مثالية فارغة توارثها الناس عن أنظمة اقتصادية بالية . . . ولكن فجيعتنا ، نحن معشر المسلمين ، في تركيا بالغة . فقد كانت الى اوائل هذا القرن مقر الخلافة الاسلامية ومحط أنظار اسلافنا الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلنا .

وكان السابقون من الاتراك يقيمون شعائر الدين الحنيف ويلتزمون بتعاليمه ويخرون لله سُجّدا وبُكيًّا . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا

الصلاة واتبعوا الشهوات فكان جزاؤهم ان لاقوا عنتا وغيا . ألغوا الخلافة وتنكروا للدين وحمَّلوا شرعه ومنهاجه تُبعة سلبيات الحياة ونقائصها . وزعموا انه ما من سبيل للخلاص الا بالانسلاخ عن الدين ، وانه ما من طريق للتقدم الا بتقليد الفرنجة والاقتباس من حضارة الغرب التي لا تقيم وزنا للدين ، ولا تلتزم بخلق ولا تعترف بوازع روحي . أوقفوا بناء المساجد ، وقلبوا بعضها الى كنائس ، واعتبروا لبس الجلباب والعباءة والعمامة مظهرا للتخلف ، وقالوا ما لتركيا ولآسيا ولبلاد المسلمين فهي قطعة من أوروبا ، وعليها ، من ثم ، أن تسلك سلوك أهلها وان تأخذ بأسباب الحضارة الاوروبية ونظمها . وتناسوا واغفلوا مؤثرات الثقافة العربية والاسلامية على النهضة الأوروبية عبر صقلية واسبانيا منذ عهد شارلمان ومنذ الحروب الصليبية حيث تسنى للأوروبيين الاحتكاك بالمسلمين فاقترفوا من معين حضارتهم واقتبسوا ما شاء الله لهم أن يقتبسوا وينهلوا .

ووقع اتاتورك وشيعته من مؤسسي النظام الجمهوري في تركيا في شراك المستشرقين الذين صاغوا لهم الشعارات المبهمة ، وزيَّنوا لهم المذاهب الفجَّة العاجزة ، والأفكار الفطيرة الضحلة ، مثل الدعوة للعلمانية التي تفصل بين الدين والدولة تأسيساً على المقولة القاصرة ، ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وتسبيباً على أن دور الدين يقتصر ، في أحسن حالاته ، على التوجيه الروحي للفرد ، أما بقية أوجه نشاط الانسان وعلاقاته بالمجتمع البشري فتحكمها الدولة وقوانينها ومؤسساتها .

وربما كان لبعض مفكري الغرب القدامى عذرهم في مثل هذا الغثاء . اذ كانوا يلتمسون سبل الفكاك من سيطرة الكنيسة التي كانت

تفـرض الاتاوات ، وتمتلك الاقـطاعيـات ومن فيهـا من الاجـراء ، وتصـدر الصكـوك والفتـاوي التي تبـرر فسـاد الملوك وتجـاوزات الاقطاعيين وجنون الامـراء . ولكن الاسلام من كـل ذلك ومن مثله براء . فهو ليس مجرد مجموعة شعائر وتراتيـل وقيم روحية ، تـدعو الى المحبة والتسامح والرهبانية .

ولعل هذه هي مشكلة اتـاتورك وزمـرته فقـد حكم على الاسلام وحَمَّله كل هنات وزلات الخلافة خاصة في أيامها الأخيرة . واسند اليه الممارسات الخاطئة التي كانت تصدر ممن كان يسمى بالصدر الاعظم وبالباب العالي والتي أسهم فيهـا اليهود والأوروبيـون الذين تكاثروا وتغلغلوا في مرافق الدولة ، فصبَّ جام غضبه على الاسلام والمسلمين ، وغلبت عليه شِقْوتهُ فركل تعاليم الـدين الحق التي لو تمسك بها الناس لما ضلوا ولما وهنوا ولما هانوا . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فقد أسرف وتجاوز واشتط ، واتخذ القرآن هزوا ، وقال ما لهذا الكتاب ولهذا الرب ، يقسم بالنبات والشجـر والصخر الصلد ، وبالبلد الجدب الذي يقبع في وادي غير ذي زرع . وغاب عنه أن التين والزيتون وطورسينين وهذا البلد الأمين إنما هي مهابط للوحي الذي نزل بالحق هدى وبشرى للمؤمنين .

وما كان لنا أن نتعرض لكـل هذا ونخـوض فيه ونقحمـه لولا مـا جاءت به الأنباء الاخيرة عن هوية الانقلاب العسكري التـركي وعن القـوى التي حركتـه . فلو كان الأمـر مجرد رد فعـل لعجـز السلطة المدنية عن تصـريف شئون البـلاد لعالجنـا الحال من زاويـة أخرى ولكن ان يكون دافع الانقلابيين سد الطريق امام القوى الجديدة التي تبغي الرجوع الى الأصول ، وتنشد القيم الاسلامية الحقـة ، والتي

بدأ ساعدها يشتد ويقوى ، فهذا مالا يمكن لمسلم يغار على دينه أن يسكت عليه . فقد ذكرت الانباء بأن العسكريين قرروا تقديم البروفسير نجم الدين اربكان زعيم حزب السلامة التركي الى المحاكمة وحده دون سائر زعماء تركيا وذلك لأنه نظم وقاد قبيل الانقلاب بأيام مظاهرة كبرى تدعو للتضامن مع الشعوب العربية وتطالب بقطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل وطرد سفيرها من أنقره ، وتنادى بالرجوع الى تعاليم الاسلام والى تحكيم القرآن . ولانه خطط وتزعم الحملة داخل البرلمان ضد وزير الخارجية حابرتين اركمين ووفق في سحب الثقة منه وذلك لولائه لاسرائيل ولانه كان قد رفض اتخاذ موقف ينسجم مع موقف بقية الدول الاسلامية التي هالها قرار الكنيست بجعل القدس الشريف عاصمة لدولة صهيون .

وقد عرفت القائد الاسلامي عن قرب فقد شاءت الظروف أن أجلس معه واستمع اليه أكثر من مرة وكان ذلك في رمضان الفائت وفي الكويت الشقيق التي كنت قد زرتها ضمن اخوة كرام من مؤسسي منظمة الدعوة الاسلامية . وكانت لقاءاتنا في « ديوانية » الصديق العزيز ، الكريم بن الكريم ، محمد ابن ناصر الحمضان وكيل وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية وصديق السودان الذي أوقف جهده وفكره وماله ووقته خدمة للاسلام والمسلمين . وقد أعجبنا أيما اعجاب بشخصية الزعيم التركي ووضوح رؤ يته وسلامة منطقه ، ولا غرو فالرجل كان استاذا للعلوم الهندسية في الجامعات التركية . وكنت قبلها قد تأثرت سلباً بما قرأتُ عنه فهو عند الغرب متعصب ديني مهووس ، وعند الروس ومن سار على دربهم فاشي وعميل جاسوس . والحق انه فوق أكاذيبهم وتهمهم الباطلة .

وقد كان الرجل في احدى حقب السبعينات وزيرا لداخلية تركيا وقد قاد هو ووزراء حزبه الحملة ضد الارتباط المتهالك مع الغرب وضد الزحف الصهيوني الفكري وكان ينادي بتصنيع تركيا تصنيعا ثقيلا كوسيلة لتحرير بلاده من قبضة العالم الرأسمالي وقد تم بالفعل في عهده قيام خمسة عشر مشروعا صناعيا كبيرا رغم المعارضة الضارية من النواب الذين ارتبطت مصالحهم ببيوت المال الامريكية التي كانت تحتكر أسواق تركيا . كما يرجع له الفضل في تأسيس مدارس القرآن في أكثر من ثلاثمائة وخمسين قرية خرَّجت ربع مليون حافظ . وفي سني توليه الحقيبة الوزارية سمح لأكثر من مائة وخمسين ألف مواطن تركي بأداء فريضة الحج ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير قبلها . وظل حزبه وما فتأ يطالب بالغاء كافة القوانين التي صدرت في الايام الاولى لتأسيس النظام الجمهوري والتي كان قد قصد منها تكريس الفكرة العلمانية والتنصل من كل صلة ورابطة بالدين الحنيف . وكان أخطر ما نادى به هو جعل القوات التركية ردءاً يصد عن أمة الاسلام العدوان ، ودرعاً يدفع عنها أطماع اليهود بدل أن يكون لعبة في يدي حلف ناتو يسيرها وفق مشيئته . ولعل هذا هو الذي أثار حفيظة كبار الضباط الاتراك عليه . . . ولكن للرجل نفوذه بين صفوف الرتب الاخرى . . . والليالي حبالى يلدن كل جديد .

الايام :
العدد ١٠١٠٣
التاريخ ١١ من ذي القعدة ١٤٠٠ هـ
الموافق ٢٦ من سبتمبر ١٩٨٠ م

ودرس آخر من بولندا

يبـدو أن بـولنـدا مـازالت حبلى ، ليـاليهـا مثقـلات ورحمهـا لا يغيض . فقد ظلت انباء حزبها الشيوعي وحكومتها تزحم الاذاعات الاجنبية وتحتل المساحات الشاسعة في أعمدة الصحف العالميـة ، بعد ان كانت قـد استأثـرت بها طيلة الشهـرين الماضيين اضـرابات شغيلتها وانتصاراتهم ، واخبار طلابها الذين قَفُـوا على أثار العمـال مطالبين بتنقية الحياة السياسية والاجتماعية وتطهيرها وتزكيتها .

فقد بدأ الحزب يراجع حساباته بعد ان انحنى للعاصفة مرغماً ، واستجاب لمطالب المضربين مكرها . وبعد أن أفاق من سكرته التي امتدتْ لياليها وطالتْ ، وصحى من سباته ونومه الذي كان عميقا . وارتفعت الاصوات لأول مرة من داخل برلمانها مندددة بسلوك نفر من كبار قادة الحزب والحكومة ، ومطالبة باطلاق الحريات العامة ورفع الرقابة عن الصحافة وفك القيـود ، وما اكثـرها ، التي ظلت تكبـل الشعب وتكتم انفاسه منذ ان ابتلى بالروس وبحوارييهم في أعقـاب هزيمة هتلر ومنذ منتصف الاربعينات .

وتتابعت جلسات البرلمان ، وواصل النواب حملتهم الضارية على الفئة الباغية اللعينة . فقد اتاحت لهم هبة العمال ولأول مرة الفرصة « لفش الغبينة » بعد ان ظل الشعب يكتم غيظه وهو مذموم . ويندب حظه وهو مكظوم ، طيلة خمسة وثلاثين عاما هي عمر النظام الشيوعي الذي كنا نبشر به ، ضمن اخرين ، افتراءً على الحق وافتئاتاً ، وغباءً وحماقة .

وتلت جلسات البرلمان اجتماعات اللجنة المركزية للحرب الشيوعي الحاكم التي كشفت عن صور من الفساد يصعب حتى على أولئك الذين يرفضون تحكيم العقل ، والذين لازالوا يعيشون في الجاهلية الأولى ، كما كنا من قبل ، أن يجدوا لها تبريراً وتفسيرا . فقد أشارت اليها الصحافة البولندية والتي تخضع للرقابة الصارمة ، فسدت بذلك الطريق على من يزعم أنها مجرد ترهات وأكاذيب ترسمها تصورات الغرب المغرضة ، وقطعت قول كل خطيب يدّعي أن ما يقال ويثار عن سلبيات الحياة في بلاد الاشتراكية والديمقراطية الجديدة إنما هو هراء وافتراء يصنعه خيال مريض .

وليس ، بالطبع ، غريب تواجد المفسدين في مجتمع ما ، فهم كملح الطعام تجدهم في أحسن البيوت والعوائل ، وفي أفضل البلاد والقبائل ، ومنذ عهد عاد ووائل . ولكن غرابة الأمر تبدو في انه ما من أحد من ملايين البشر الذين يسكنون ذلك البلد الشقي قد جرأ على الاشارة الى المرتزقة الذين ظلوا يمتصون دماء الشعب ، ويمارسون الرذيلة علناً وفي غير ما استيحياء ، ويأتون المنكر على مسمع ومرأى من أجهزة رقابة الحزب والحكومة لا يستخفون بليل ولا يستغشون الثياب . ولم تطفُ أخبار مباذلهم الى السطح وتطفح إلا

من بعد ان وقع « الثور » الذي هو أمين عام الحزب وكثُرتْ « سكاكينه » . فقد اطاحت اللجنة المركزية ، سياسياً ، برؤوس سبعة من كبار اعضائها من بينهم رئيس الوزراء ادورد بابيوشي الذي شهدت ولايته بداية تحركات العمال ورفيقه جيرزي لوكا سوبيتشي مسئول الجبهة الثقافية والايدولوجية في الحزب وكذلك الرفيق جان سبدلاك مسئول النقابات العمالية . وكان قد سبقهم الى نفس المصير الرجل الأول في الحزب والدولة الرفيق ادورد جيريك ، والذي كانت تسبح بحمده ، ولأسابيع قليلة مضتْ ، مواكبُ النفاق ، تشيد بانجازاته وتصفه بأنه القائد المظَّفر ، المعصوم من الخطأ والذلل ، والعزيز المقتدر الذي اوتي الحكمة وفصل الخطاب .

ولم تكتف اللجنة المركزية بفصل البعض من عضويتها بل وجهت باتخاذ الاجراءات الجنائية ضد آخرين لأنهم دنسوا الحياة وملأوها ، على حد قولها ، فجوراً وبغيا ، وعلى رأسهم المسئول الأول عن التلفاز والمذياع الرفيق ماسيغ سيزبانسكي الذي ظل يتقلب في النعمة الفاجرة منذ أن أسند اليه صديقه سكرتير عام الحزب مهام المنصب المرموق في عام ١٩٧٢ . . . وقد كان أمر هذا الرفيق عجبا . فبالرغم من إسرافه ومجونه وبشاعة تصرفاته ، وبالرغم من علم الكافة بممارساته وغلوها لم يجرأ أحد على نهيه عن المنكر الذي كان يفعله ، بل ظل كثير من المسئولين يتوددون اليه ويشاركونه الاثم والفجور والفاحشة ، فقد كان يشرف على خدمة زواره « وراحة » ضيوفه بداره بإحدى ضواحي فارسوفيا سرب من البغايا الفاتنات . وكان قد الحق بمكتبه الرسمي حماماً بالبخار يقوم بأعمال

« الدلك » فيه رهط من الصبايا الحسان . وكان قد بنى « لراحته والسلام » منتجعاً صيفياً قدرت الصحف البولندية قيمته بما يقابل المليون من الدولارات الامريكية . ويملك حظيرة للمواشي تزيد مساحتها عن الثلاثين فدانا . ويسكن في فيلا في داخل العاصمة يزيد عدد غرف نومها عن الاربعين . هذا غير تلك التي تقيم بها وعلى الدوام الغواني الفاتنات في ضواحي العاصمة ومنهن شقراوات ، وغرابيب سود ، وخلاسيات « لزوم التغيير » ، والتي جُدتْ بداخل حجراتها عشرات المئات من افلام الجنس الفاضحة الشائنة التي تحكى قصة انحدار الانسان الذي رده الله أسفل سافلين .

والسؤال الذي نعلم سلفاً انه لن يجد اجابة صادقة شافية من الرفاق هو كيف تسنى له ان يفعل كل ذلك علناً ؟ وكيف استطاع ان يستورد النساء ؟ ومن أين له كل هذا المال ؟ وأين كانت تنظيمات الحزب وقواعده التي تنتشر على نطاق القطر في القرية والمدينة والاقليم وتتصاعد من الخلية الدنيا في الحي ومجالات العمل الى قمة السلطة المتمثلة في المؤتمرات التي يقال أنها ذات كنف لايرام ؟ وأين كانت أجهزة رقابته التي يدّعي أن لها عينا ساهرة لا تنام ؟ وأين صحافته خادمة الشعب وحامية مكاسبه ولسان حاله ، أو كما قال . وأين المُثل الاخلاقية العليا الحميدة التي يزعمون انها تسمو على قيم الدين الأصيلة والتي يقال انها تغرس في نفوس الطلائع ومنذ الصغر .

ونُهوِّن الأمر على بولندا التعيسة والمغلوب على أمرها ، ونقول إنها لا تنفرد بهذا الحال وبمثل هذه الأحداث الصاخبة والفضائح

التي تزكم الأنوف والتي تعم اخبارها ويتناقل الناس تفاصيلها كلما مات زعيم واحد احد ، أو هوى وسقط . فهي ظاهرة تشاركها فيها اوروبا الشرقية حيث عبادة الفرد وتأليه الصنم ، وكل البلاد التي أبتليت بأنظمة لا تقيم وزناً لمؤسسات الديمقراطية الحقة أو التي جعلت منها مسخاً مشوَّهاً يحتمي وراءه حكم أوتقراطي أو الجاركي متسلط .

وما أحوجنا نحن الذين ارتضينا صيغة التنظيم السياسي الفرد أن نتعظ من تجارب الاحزاب الشيوعية ومن التنظيمات المماثلة ، وان نقف بين الحين والآخر عند تجاربنا الذاتية نضعها تحت المِجْهَر ، تمعن فيها النظر ، لنتذكر ونتدبر ، ولنستخلص منها الدروس والعبر .

وسيقول قائل القوم المحسوبين على التنظيم والذين يلتقون في الثرثرة واللت والعجن مع الحواريين رغم اختلاف المذاهب ومدارس الفكر : مالنا نحن والشيوعيين ، لهم دينهم ولنا دين . ومالنا وممارسات أحزابهم ، لهم شرعهم ولنا نهجنا القويم . ونقول لهم رغم الخصائص التي تميزكم عن حواري لينين فان ثمة صفات مشتركة تجمع بينكما الاثنين ، رضيتم أم أبيتم ، شربتم من ماء البحر الأُجاج أم من ماء العين السلسبيل .

فالاتحاد الاشتراكي هو السلطة التي تنفرد بالحكم في البلاد وكذلك حال الاحزاب الشيوعية في الدول الاشتراكية ، ولا مساغة للقول ان في بعض بلاد أوروبا الشرقية أحزاب تشارك الشيوعيين السلطة اذ أنها تأتي في المرتبة السفلى من مدارج الحكم وتدور في فلك الأحزاب الشيوعية .

والانفـراد بالسلطة أمـر خطيـر من شأنـه أن يؤدي الى بطرعيش الحكام والى الفساد . وقديما قيل ان كثير السلطة مفسدة واطلاقهـا مقبرة . ولا يقتصر نطاق تطبيق هـذه الحكمة على التنـظيمات التي تنفرد بالحكم بل ربما بانت صحتها حتى في البلاد التي تأخذ بنظام تعدد الأحزاب ان كان ثمة حزب واحد يستأثر بالأغلبية المـطلقة في أجهزة الدولة خاصة وان تقادمت أيـامه وطـال ليله ولم ينجل كليـل امرىء القيس ، وكليل العزيز دكتور سيد احمد نقدالله الذي سعدنا بمقـدمة الميمـون والذي نتعجـل صباح الثـلاثاء لنقـرأ الـدرر التي يسطرها قلمه القادر الظريف .

ولا مساغة للادعاء ايضاً بأن اتحـادنا الاشتـراكي يمثل في واقـع الأمر تجمع طبقات مختلفة وتحـالف قوى اجتمـاعية متعـددة ، فهو بـذلك أقـرب ما يكـون للجبهة المتحـدة منه للحـزب . ونقـول ان الاحزاب الشيوعية في بلاد الـديمقراطيـة الجديـدة تمثل هي أيضـا تجمعاً لكل القوى الاجتماعية السائدة وحتى البرجوازية التي وان كان قـد تم تصفيتها في المـدن الا أن بقايـاها لا تـزال تعيش في القرى متمثلة في الكولاك وفي اغنياء الريف .

ولا مجال كذلـك للزعم بأن الحـزب الشيوعي هـو طليعة طبقـة بعينها ، هي الطبقة العاملة . اذ أنه يجمع في صفوفه شتـات البشر وعلى رأسهم المثقفون . وحيث ان دكتاتورية البروليتاريـا التي يقال انـه اداة تحقيقها مـا هي الا تحالف ثـوري بين العمـال والفـلاحين والمثقفين الثـوريين والجنود ، وذلـك ليس من اجتهادنـا وانمـا هـو تعريف لينين مؤسس الحزب والدولة السوفيتية .

ثم اننا ، وهذا أخطر سلبياتنا ، مثلهم تماما من حيث انعزالنا عن

الجماهير وانفصالنا عن القواعد الشعبية ، وإن كنا نكثر مثلهم الكلام عن امتداد الجذور وصلابتها ، فنحن وهم تنظيمات فوقية تضم افرادا انتزعوا لأنفسهم صفة تمثيل مختلف قوى الشعب ولكنها لا تُحظى في واقع الأمر باهتمام تلك الفئات ولا تملك القدرة على اثارتها دعك عن تحريكها في الطريق الذي حددته مواثيق الثورة واهدافها التي أعلنت صباح الخامس والعشرين من مايو . . . ولا نسوق التهم جزافاً فالانتاج الزراعي يتدنى بالرغم من اتحادات المزارعين وبالرغم من قياداتهم . وجُل العمال لا ينتجون بالقدر المطلوب بل ويضربون رغم أنف بيانات اتحادات العمال وقياداتهم . والتسيب وعدم المبالاة يسودان المكاتب والدواوين رغم ادعاءات تنظيمات المهنيين وقياداتهم . والطلاب يفعلون ما يشاءون وما يريدون رغم تنظيمات الاتحاد الاشتراكي في المدارس والمعاهد والجامعات ورغم الامتيازات وتذاكر السفر بالطائرات في العطلات .

ونحن مثلهم أيضا نجيد اطلاق الشعارات . نمجِّد القيادة ونعظِّم التنظيم . وندبج المقالات التي تشيد بالانجازات ان كانت حقاً أو سرابا . ونحسن كتابة البرقيات والمذكرات . ونسارع في تسيير المواكب تأييداً وتهنئة للحكام حتى في التافه من المناسبات . ونتقن تنظيم الندوات والمؤتمرات حتى كادت بل غدت هي وحدها مظهر النشاط السياسي ، وليتها كانت في مجالات العمل والاحياء حيث بسطاء الناس الذين يصنعون الحياة .

ونحن مثلهم يومنا كأمسنا نقبع بالمكاتب ، نكثر الكلام ونسبِّح بحمد النظام ، ونكيل الثناء للقادة الكرام . ونتصدى لكل حادب صادق اللسان يقول إن بالامكان أحسن مما كان ، حتى اذا ما فاجأتنا

المشـاكـل وتفـاقمت الأمـور ، أسقط في أيـدينـا وأصـابنـا الشلل والذهول ، وقدرنا أنها ارهاصات الهلاك والثبور ، وتبارينا في تعداد مظاهر القصور ، وقلنا انـه لا مخرج الا بـالثورة من داخـل الثورة . وغاب عنا أنها أما أن تكون في الاصل ثورة واما لا تكون . فان كانت الاولى فان للثورة مشاكلها وآلامهـا . ولا تعالـج المشاكـل في هذه الحالة بالاجتثاث اذ أنها كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وجذورها متينة وانما تعالج بالاصلاح وبالتقويم ، وكذلك آلامها وهي آلام طلق ولا تعالج آلام الطلق ببتر الرحم ، أما ان كانت مسخاً للثورة ورِدَّة ، فهنا تكون الثورة الحقة ، ويكون التصدي الفعال . . . ولن يكـون ذلك بواسطة الاشخاص الذين هم سبب النكسة والبوار الذين اسهموا في التردي وسوء الحال .

ويؤلمنا ان نقول انا مثل كثير من الاحزاب السياسية العقائدية ، ومثل كثير من الأنظمة التي تضعف فيها قبضة مؤسسات الديمقراطية والقيادة الجماعية ، لا تتحرك الا اذا تحرك القائد . ولا نخطو خطوة الا اذا سبقنا هو اليها . ولا نقدم على عمل ، ولو كان خيراً كله ، الا اذا اشار هو علينا به . . . وليتنا التزمنا بتطبيق ما يوّجه به ويُشير اليه اذ غالباً ما نكتفي بالاشادة والتصفيق . . . ومرة أخرى نسوق الدليل ، ونتسـاءل كما تسـاءل من قبل السيـد الرئيس . مـاذا فعلنا لمعـالجة السلبيـات واوجه القصـور التي أشار اليهـا في لقاءاتـه الجماهيـرية الكثيرة والتي عدَّدها عِبر مواجهاته مع كـافة قيـادات العمل الـوطني وصاغها في شكل أسئلة منذ عام مضى بكامله وتمامه ؟

وقد كتبنا يومها وقلنا اننا نخشى أن يجهد البعض نفسه للرد عليها كما يفعل التلاميذ مـع أسئلة الامتحانـات ، وقد حـدث بالفعـل ما

توقعناه اذ تكونت اللجان التي قفلت نفسها بداخل الغرف لتسطر الاجابة على تساؤلات هي في حقيقتها مؤشرات للعمل وللاصلاح ، ولتحفظها في النهاية بالاضابير حيث تنام الان نوم العافية ولتبقى اسئلة رئيس الدولة وقائد التنظيم كاليتيم ، تنتظر من يبعثها من مرقدها ويزيل عنها الغبار .

وأخيراً ماذا نفعل وماذا نقول ؟ فاني واياكم كقابض ماء لم تُسقِه أنامله . . . ومعذرة لشاعر العرب القديم الذي نحسب أنه يتململ الآن في قبره فقد بترنا قوله .

صحيفة الأيام :
العدد ١٠١٢٠
التاريخ السابع من ذي الحجة ١٤٠٠ هـ
الموافق ١٦ من اكتوبر ١٩٨٠ م

كلمة حق أريد بها حق

دعت الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي لاجتماع موسع يعقـد في مطلع الشهر القادم يناقش العـديد من المسـائل التي تتعلق بتحسين اداء تنظيمات الاتحاد .

ولا نـريد أن نتعجـل الأحداث ونصـدر الأحكام ونبخس النـاس اشياءهم فنقول إنه لن يكون خيراً مما سبقه من اجتماعـات تعددتْ وتوالتْ وتواترت ولـم تصلح حالاً أو تخلف أثراً يغيـل العثرة ويعـدل المشية وينفع الناس .

ولا نـريـد أن نثبّط هم العـاملين الحـادبين المخلصين ، ولا أن نتتـطاول على مقام القـائمين بأمـره ، وندّعي بـأن الناس مـا عـادوا ليهتموا بما يجـري داخل أروقـة الاتحاد وبمـا يدور في اجتمـاعات لجانه وحتى مؤتمراته التي تعددت اسماؤها والحال واحـد . والتي جعل منها الديوانيـون منابـر لاستعراض القـدرات الخطابيـة ولتبادل زخرف القول ولاطلاق الشعارات المبهمـة ولاصدار القـرارات التي تحـدث زوبعة سـرعان مـا تنحسـر وتتـلاشى كمـا يتـلاشى اعصـار

ابليس . والتي تنقلب في النهـاية ، بفضلهم ، الى أرقـام يـرددهـا البعض وتلوكهـا السنتهم ردحـاً من الـزمـان حتى اذا مـا استهلكت و « سهكت » ومجّها الناس وضاقوا بها لجأوا الى غيرها لتلقى نفس المصير ، بعد وقت قصير . ولا يجد المكتبيون صعوبة في التبـديل والتحـويل ، والتغيير والتحوير ، وفي القفز والتنقل من أمر الى آخر ، فنظرية تعدد المراحل جاهزة وحاضرة ، تلبّي النداء وتسعف الحال ، وتبرر المقال .

وما أحوجنا بعد كل هذه السنين من عمر التنظيم السياسي أن نعيد النظر في أمره بـأن نتساءل عن أسبـاب الخلل ومصادره ، والخـطل ومنابعه بعد أن ظللنا نعدِّد دون جدوى بوادر السقم ومظاهر القصور ، حتى كرهنا البعضُ وضاقوا بنا ذرعاً وظنوا بنا الظنون ، وقالوا كما قال أهل مدين ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا .

وان كانت الوقفة المتأنيـة والنظرة الثـاقبة التي تنفـذ الى ما وراء المظاهر مطلوبة دائماً ومرغـوبة كضـرورة لاصلاح البنيـة ولملاحقـة اعراض الداء قبـل ان يستفحل ويصعب تـداركه فـان الظروف التي تُقبل عليها البلاد الآن والتي تتمثل في بداية السير في طريق الحكم الاقليمي تتـطلب اعـادة النـظر في كثيـر من ممــارسـات الاتحــاد الاشتـراكي وفي هياكله بـل وربما في أسـاسه ان ثبت عجـز ، عن مواكبة الضرورات التي تفرضها تلك الخطوة الدستورية الجزئية .

فنحن نُقبل على تجربة جديدة مشاكلهـا كثيرة واثـارها عميقـة . مجالها قطر هو بمثـابة القـارة من حيث اتساع رقعتـه وتعدد شعـوبه وتبـاين أمـزجتهم واختـلاف سبـل كسب عيشهـم ، ومن حـيث استعدادهم لتقبل الجديد ولممـارسة السلطة دون تجـاوز لحدودهـا التي نصت عليها قوانين الحكم الاقليمي .

ان الرحلة الدستورية التي بدأنا لتوِّنا السير في طريقها تستدعي وجود التنظيم الذي يعبر عن وحدة ارادة الشعب السوداني كله ، والذي يلهم الناس ويدفعهم الى تغليب مصلحة البلاد على مصلحة الاقليم ، والمصلحة الوطنية على المصلحة المحلية الضيقة دون المساس والاخلال بالتوازن المطلوب بين مختلف ربوع البلاد . والذي يشحذ الهمم ويحشد المواهب والملكات ويفجر الطاقات ويثير الحمية والعزة في النفوس والقلوب .

ولعل أول ما يجب علينا عمله لتأصيل وتأهيل التنظيم القادر المنشود ، هو افساح المجال امام كافة المواطنين لتلمس ارائهم حول الاتحاد الاشتراكي ، وهياكله وتنظيماته ، روافده واصوله ، ايجابياته وسلبياته . واعطاء الجميع الفرص كاملة ، مؤيدين ومعارضين أمام مختلف أجهزة الاعلام ولا استثناء لأولئك الذين يطالبون بالغائه وباعادة الحياة الحزبية ، وحتى لو اقتضى الأمر تجميد نشاطه طيلة فترة تلمس اراء الناس حوله درأً للشبهات ودفعاً لمظنة التأثير وقفلاً للطريق امام المنتفعين والمحسوبين عليه .

ونثق ان المواطنين الكرام لن يتجاوزوا الحدود إنْ مكنَّاهم من الصحف وأجهزة التلفاز والمذياع ، ولن يتغولوا على قواعد الأدب وحسن المخاطبة كما يفعل بعض المسرفين من الأخوة الذين يحررون الصحف المعادية للنظام خارج البلاد ، والذين ارتضوا لأنفسهم المنفى بعيدا عن « الكتَّاحة » والحر والبعوض والتراب ، وعن صفوف البنزين والرغيف والغاز والعذاب ، وعن مشاكل الترحيل ذهابا وإياب ، والذين أضحوا كشهبور بختيار رئيس وزراء ايران الذي لاذ بالفرار ـ تُسعدهم مآسي الوطن ومعاناة الاهل

والأحباب ، وتشقيهم انباء تخطى الموانع والتغلب على الصعاب ، والذين يستعينون بـالغريب لانتهـاك سيادة البـلاد ولقتل النفس التي حـرم الله ولا يخشون الحسـاب ، يـوم لا ينفـع مـال ولا بنـون ولا صحـاب ، ويوم تجـد كل نفس مـا عملت حـاضـرا في الصحيفـة والكتاب .

ولا نعتقد ان نتيجة تلمس الاراء ستكون هزيمة لفكرة قيام تنظيم واحد يجمع شمل المواطنين الذين تتقاسمهم الاقـاليم ، ويُعبِّر عن أمانيهم وتطلعاتهم الى تأسيس الـدولة المـوحدة الحـديثة ، والـذي يسمو بهم فوق النعرة الاقليمية الضيقة ويرتفع بهم الى رحاب الوطن الكبير وهامته السامقة .

ولن يكـون استفتاء الـرأي صفعة في وجـه صيغة تحـالف قـوى الشعب ، وذلك بالرغم من انها فكرة مستوردة ومقتبسة من التجربـة المصـرية كمـا قال السيـد رئيس الاتحاد الاشتـراكي السـوداني في حديث له مع مجلة روز اليوسف قبل بضع سنين . وكما قلنا من قبل ان مصر نفسها قد نقلتها من الأدب السياسي الماركسي ومن كتابات جوزيف بروز تيتو بالذات الذي اتخذها أسـاساً نـظرياً لقيـام الجبهة المعادية للفاشية التي كان يترأسها ابان مقاومته للطليان والالـمان في الحـرب العالميـة الأخيـرة ، والتي تـوسـع فيهـا بعض المـاركسيين المحدثين وطوعوها لتنـاسب ظروف بـلاد العالم الثـالث التي ترزخ تحت نير الاستعمار وتعاني من مخلفاته واثاره . ونضيف اليوم أن تيتو لم يكن هو مفجر نظرية تحالف القوى انما يرجع أصلها الى كتابات لينين وخاصة عندما تصدى في عام ١٩١٦ للرد على ليـو تروتسكي الذي كان يقول باستحالة تأسيس النظام الاشتراكي في بلد واحد وان

قيام الثورة البروليتاريا العالمية هي شرط أساسي لتحقيق دكتاتورية الطبقة العاملة . وكان لينين على نقيض ذلك يقول بامكانية قيام ذلك النظام في دولة بعينها اذا كانت تلك الدولة حبلى بالثورة واكتمل نمو الجنين في رحمها ، ولكنه وضع شرطاً لذلك هو تحالف القوى الثورية في ذلك البلد ، ومن هنا كان تفسيره لدكتاتورية البروليتاريا بأنها تجمع أو تحالف بين العمال والمزارعين والمثقفين الثوريين والجنود .

ولعل مما يَسَّر قبول الناس عندنا لفكرة تحالف قوى الشعب العاملة انها تعبر عن مجتمع موحد لم ينفصم ولم تهده الصراعات الطبقية الحادة ، والذي لازالت تسيطر عليه تعاليم الدين الحنيف وقيمه التي تدعو للمحبة وللاخاء والذي تسوده روح التعاون والتآزر والنفير .

ولعله مما يَسَّر قبول تلك النظرية زهد الناس واستهجانهم للخلافات المفتعلة التي عاقت تقدم البلاد منذ نيلها للاستقلال والتي تتحمل الأحزاب ونحن وآخرون وزرها . ومن هنا كان رضاؤهم بادي ذي بدء بتنظيم الاتحاد الاشتراكي كتجسيد لتلك النظرية .

وربما كان لعدم وجود البديل السليم والمُعَافَى أثره في انفراد الاتحاد الاشتراكي بالساحة . فالمواطنون كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالأحزاب وتعددها وممارساتها خاصة في أواخر الستينات . ولعل اليُسر الذي انتقلت به السلطة من أيديهم الى طليعة القوات المسلحة دليل على انفضاض الناس من حولهم . ولا يعني ذلك عدم امكانية تحوّل الناس من جديد نحو الأحزاب امام تجاوزات التنظيم البديل وقصوره .

والذي يفترض انه يعبر عن الارادة الشعبية والعمل الجماعي وتمثل فيه قيم التعاون والتآزر والمحبة والاخاء ، والتي تجعلهم يحنون الى الماضي حيث الانقسامات الطائفية والقبلية والعنصرية ويتجهون بأبصارهم نحو الأحزاب التي كان بعضها من افرازات الانفصام المفتعل بل وتعبيراً عنه .

ولكن قبل ان نسترسل في الاجابة على ذلك التساؤل نقول ان بعض المثقفين يرفضون الادعاء بأن صيغة تحالف قوى الشعب هي البديل الأمثل لنظرية تعدد الاحزاب على أساس ان تلك الصيغة تقتضي اشراك الجنود والزج بهم في النشاط السياسي مما يصرفهم عن واجباتهم التقليدية والمعروفة . ولكن غاب على هؤلاء ان القوات المسلحة في بلاد العالم الثالث قد شبّت عن الطوق ، ولم يعد بالامكان حبسها داخل القمقم أو الاطار الذي رسمه لها المستعمر ومن بعده الأحزاب التقليدية . وانها أصبحت قوة فعالة بل وعاملاً حاسماً في الحياة السياسية رضينا أم أبينا ، وان عدم اشتراكها مع بقية فئات الشعب في العمل السياسي سيؤدي بها في النهاية الى الاستيلاء على السلطة ، وهي قادرة على ذلك ، وعلى الانفراد بها .

وهناك نفر آخر من المثقفين يرى ان خير بديل لتعدد الأحزاب هو سيطرة الحزب الواحد الذي يمثل مصلحة الطبقة المتقدمة التي تصنع الحياة والتي ترعى الطبقات الكادحة الاخرى وتحرس مصالحها . . . وبالطبع فان هذا هراء ، فإنه ما من حزب واحد اقتصرت عضويته على ابناء طبقة بعينها . ونستشهد بتجربة بريطانيا

الحزبية ، وهي أعرق الديمقراطيات البرلمانية ، فحزب العمال يضم في عضويته ابنـاء الارستقراط وابنـاء الاجراء على السـواء ، بل ان أخطر شخصيات قيادة الحزب اليوم هو توني بن وزير الصناعة الأسبق ووزير الطاقة السابق وهو الذي يقود الجناح اليسـاري المتطرف في الحزب وهو في الاصل من ابناء الذاوات فأبوه لورد ستانسجيت الذي ترأس الوفد البريطاني في مفاوضـات الجلاء عن مصـر والسودان ، وتُعتبر زوجته الامريكية من اثرياء بلدها .

وحـزب المحـافـظين يضم هـو الآخـر بجـانب اللوردات الـذين يملكـون المنـاجم والمصـانـع ، العمـال الـذين يعملون في تلك المصانع والمناجم .

وحتى الاحزاب الشيوعية الحاكمة وغيرها تضم افرادا لا ينتمـون الى الطبقة العاملة التي يدعون انهم طليعتها ، بل ان أبرز قادتها من المثقفين . . . والادعـاء بـأن هؤلاء قـد انسلخـوا من طبقـاتهم وجذورهم انما هو مجرد كلام والسلام .

ونعود للاجابة على التسـاؤ ل الذي طـرحناه عن سبب انصـراف الناس عن التنظيم الذي يفترض انه يمثل ويرعى مصالحهم المشتركة ولا نجد رداً سليماً غيـر اسناد الخلل الى الكـادر الذي يشـارك في تصريف مسئوليـاته ، والى أسلوب عمله ، بعـد ان لم نجد مسـوِّغاً للطعن في النظرية التي يقوم عليها بنيانه .

ولقد سبق لنا ولبعض قادته أن كتبنـا وقلنا ، حتى بَـحَّ منا ومنهم الصوت ، أنه ينبغي اعادة النظر في أمر صفات ومواصفات كـل من يتصـدى للعمل العـام وقيادتـه ، وعلى رأسها تقـوى الله والالتـزام بـالنهج الـديني القويم وبـالتواضـع والاهتمام بـأمر النـاس وبقضاء

حوائجهم ما كان ذلك ممكنا ، وبتغيير أساليب العمل وممارساته الحالية والتي تتمثل في سيادة العقلية الديوانية الرتيبة التي تصرف شئون التنظيم من داخل المكاتب بعيدا عن مجالات العمل وتجمعات العاملين ، ولا تكف عن « الكلام الكثير » وعن ترديد الالفاظ الرنانة والطنانة واطلاق الشعارات التي لا تقنع غير قائليها . وبدون ذلك سيظل الاتحاد الاشتراكي تنظيماً حكومياً مفروضاً ينتفع به العاملون بأجهزته رغم محاولة جعل العمل به تطوعياً ، اذ هناك منافع غير مرئية وفوائد غير منظورة يحققها البعض الذين أُوتوا مقدرة فائقة على تطويع الأوضاع واغتنام الفرص .

ولن يقف الأمر عند حد عزل الاتحاد عن الشعب ، بل وربما أصبح التنظيم ساتراً يحجب الرؤ ية ، وعائقاً يباعد بين قيادة النظام وبين المواطنين . وبدل ان يكون جسراً يربط السلطة بالشعب ينقلب الى سد منيع كسد يأجوج ومأجوج الذي اقامه ذو القرنين ليحول بينهم وبين القوم الذين استغاثوا به فما استطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا .

الأيام :
العدد ١٠١٢٨
التاريخ ٢٢ ذو الحجة ١٤٠٠ هـ
الموافق ٣١ اكتوبر ١٩٨٠ م

مِن وحي الهجرة

الحمد لله الذي أغال العثرة ، وأصلح المشية ، وأذهب عنا الحسرة ، وازال الغشاوة ، وهدانا الى صراط العزيز الحميد . وسبحان الله مغير الأحوال ، الذي جعلنا فضلاً منه ونعمة ، في زمرة المهتدين الذين يحتفلون بهجرة نبيه الكريم سيد الخلق وخاتم الانبياء سيدنا محمد بن عبد الله الرسول الامين . . . فقد كنا لا نكاد نشعر للسنة الهجرية مقدما ، ولا نستخلص منها عبرة ولا درسا ، ولا نتدبر من أمرها رشدا . . . وعلى النقيض والمقابلة ، كنا نترقب تجدد رأس السنة الموافقة الأخرى ، نُحيط بها خُبرا ، ونعِّدُ لها عدًّا ، ونعيش ليلتها فجوراً وصخباً وإثما . فقد كان القلب أغلفا ، والعقل غائبا ، والسلوك أعوجا .

ونستعيد شريط الايام والليالي الخوالي التي لا أعاد الله لها مثيلا ولا نِدّا . ونجتر الذكريات ليس تعلقاً بماضٍ نرجو له عودة ، ولا حنيناً الى رِفقة قوم نتمنى لهم جمعا ، ولا رغبة في مسلك نريد له رجعة ، وانما استلهاماً للموعظة علَّها تسعف أولئك الذين لازالوا في الضلالة يعمهون ، وبالجهالة ينعمون ، والذين نتحمَّلُ ، ضمن آخرين من

المسرفين ، وزر تزيين السبيل الجائر الذي عليه يسيرون .

ولا نجد مسوِّغاً يبرر سقطتنا وسلوكنا المعوج القديم ، إلا الطيش والنزق وخفة العقل والغرور اللئيم . فقد وُلدنا على الفطرة السليمة ، ونشأنا تحت ظلال القرآن الكريم ، فما كان لنا أن نحيد عن النهج القويم ، وان نذّل عن الطريق المستقيم . . . ولكن حق علينا قول الشيطان الرجيم لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلَصين . وصدَّق ابليس علينا ظنه فتلقفنا رسلُه الملاعين ، وكنا فتية يافعين قصدنا مصر طلباً للعلم الرصين . وكانت عقولنا يومئذ طيِّعة كالعجين ، يشكّلونها كيفما شاءوا وكما يريدون . وقال لنا الجندُ المكلفون مالكم كيف تحكمون . . . أتحسبون أن هناك آخرة وعذاباً مقيماً وانكم ستُبعثون . . . إنْ هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما نحن بمنشرين . . . ألم تقرأوا فتوى لينين العظيم ، وأساتذته ورفاقه الميامين بلنسكي ، وشير نشفسكي ، وماركس ، وانجلز ، وبلخانوف ، واكسلرود ، ومارتوف ، وقولهم ان الدين افيون المستضعفين ، وان جنة السماء إنْ هي إلا سراب يحسبه الظمآن ماء وماله من قرار ومعين . واننا واياكم والمناضلين ، على إقامتها في الأرض من دون الله ورسله لقادرون .

وبهرنا زخرفُ القول اللعين . وسلّمناهم ذقوننا كالتيوس ، وصرنا من الحواريين نردد كالببغاوات أحاديث الافك مصبحين وقائلين وممسين ، فقد كنا بعلمهم الفاجر القاصر فرحين . ولم نكن ندري ان أساتذتهم الذين ملكوا العقول والقلوب مقلِّدون . يرددون بدورهم ، ودون تبصر ، ما قاله الأقدمون بيترونياس ، ولوكريانيس ، وغيرهم من الرومان وابناء هيلين ، من أن فكرة الآله والرب مستحدثة ومن

وحي الخوف ومن صنع الحائرين ، وانـه ما من نبي ولا من ملك ولا من خالق ولا من رب للعالمين . واننا كلنا من خلق الطبيعة والصدفة والضرورة والتطور الذي دام ملايـين السنين . ونـردّ اليومَ ، الصـاع صاعين بعد أن صرنا من الهادين المهتدين ، ونتساءل لماذا وقف التطور ونحن عـلى ما نحن عليـه شكـلا وخلقـة منـذ القـرون الاولى وأيـام الغابرين ؟ ولماذا لم نشهد صـوراً لهذا التـطور في خلق الانسان في أي بقعة من بقاع الأرض والعالمين ؟!

ويسترسل القوم الذين عمـوا وصموا في إفكهم وضـلالهم المبين ، ويقـولون إن الـدين مثله مثـل بقيـة القيمَ الأخـرى إنعكـاس للبنيـة الاقتصادية التي تتغير بتغير علاقات الانتاج ووسائله وعمل العاملين . ونتسـاءل ان كان زعمكم هـذا صحيحاً فلمـاذا لم تتغير تعـاليم وقيم اليهودية والنصرانية والاسلام وقد شهد العالم انماطاً مختلفة من علاقات الانتـاج ووسائله وادواتـه منذ ان بعث الله رسله المكـرمين ، مـوسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؟!

ونـذكّرهم بقـول أعظم فـلاسفة المـاركسية المحـدثـين ، مـاكسيم رودنسـون وروجـر قـارودي ، ان لـلاسـلام بـريقـاً يجـذب أبصــار الناظرين ، وان له حُجّية لا تبلى على مر السنين ، وانه يزداد قوة وفُتّة رغم كيـد الكائـدين وإفـك المفتـرين . ونضيف ورغم تعـدد النـظم الاقتصادية وتغيرها ونظريات المتفلسفين . . . ولا غرو ولا عجب فقد قال رب العرش العظيم في محكم تنزيله الكريم « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ويقول آخرون إننا مثلكم نضيق بأفكار لينين وزمرته حول الدين ، ولكن عقولنا تأبى قبول فكرة البعث بعد المـوت الذي نؤمن أنـه حق

ويقين . . . فكيف نحيا بعد ان نموت أو بعد ان يبلعنا الحوت أو بعد أن تذرو الرياح رماد موتى الهنود . ونقول إنها قضية طرحها قبلكم الاولون ، منهم الجادون الحادبون ومنهم المعجزون المستهزئون . وقد ردَّ القرآن الكريم على الفئتين بأحسن ما يكون . . . فان كنتم من الذين يريدون أن تطمئن قلوبهم فدونكم قصة نبي الله عزيز الذي أماته الله مائة سنة ، ثم بعثه ليجد حماره كما تركه قبل موته وطعامه على حال لم يتسَنَّه . وقصة ابراهيم الخليل والطير اللاتي قطعَّهن جذاذا وجعل على كل جبل منهن جزءاً ودعاهنَّ فاتينه سعيا . . . وان كنتم من المكذبين الضالين فدونكم سورة يس ، والرد الشافي المكين ، على الخصم المبين الذي ضرب مثلاً ونسىَ خلقه وقال من يُحيى العظام وهي رميم .

ونعود مرة أخرى لقولِ الذين يزعمون أن بملكهم اقامة المدينة الفاضلة على الأرض أو مجتمع الكفاية والعدل حتَّى من دون أساس لعقيدة أو دين . . . ونرد بأنه هراء وادعاء فشَل في تحقيقه المفكرون والطوباويون منذ عهد أثينا ، وسيمون ، وفوريير ، وروبرت أُوين ، ومختلف مدارس الهيبز المعاصرين والمحدثين .

ويقولون مهما كان من أمر ، فان الغربيين الذين لا يقيمون في حياتهم اليومية وزناً لشرع أو دين ، ولا يخلطون بين قِيمَ سماوية وقيم مكتسبة وضعية ، هم أيسر حالاً وأفضل معيشة منا نحن الذين نتمسك بأهداب الدين ، ونقحمه في كل صغيرة وكبيرة ، وعلى هديه نسير وبتعاليمه نستعين .

ولا نتجنى على هؤلاء ، إن قلنا إنهم يعيشون على هامش الحياة . لا يسبرون غورها ولا يغوصون تحت مظاهر تقدمها التقني والآلي ،

فقد فتنهم الإبداع المادي وغاب عنهم ان الغرب جسد بلا روح ، وحضارة بلا قيم ، وأسرة بلا ترابط ، ومجتمع هو أقرب ما يكون لدنيا الغاب ، حيث القوي يأكل الضعيف ، وحيث البقاء للأصلح الذي هو أقوى جسداً وأعتى زئيراً ، وحيث يتحايل البعض على الحياة . . . مجتمع مجنون ، تسوده الجريمة والدعارة والخلاعة والمجون . ونسترسل ونزيد ، وبالرأي السديد ، وبعزة المؤمنين وبتاريخهم المجيد ، وبالفخر الذي ليس من بعده مزيد ، ان البشرية لم تعرف طيلة تاريخها المديد ، مجتمعاً أفضل من مجتمع مدينة الرسول الذي أسس على تقوى الله قبل ألف وأربعمائة من السنين والذي لم يتسن حتى لأي من الرسل أو الأنبياء اقامة ما يشابهه أو يقاربه وحتَّى لسليمان الحكيم الذي سُخرت له الرياح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص .

ومن هنا كانت عظمة الهجرة وأثرها الباقي البالغ الخالد فقد اقامت المجتمع الذي كان يحلم به المثاليون والذي يصلح انموذجا ومثالا يحتذى على مر العصور والقرون . والذي وضع أساسه الرسول الكريم بعد ان ظل طيلة ثلاثة عشر عاما في مكة المكرمة يدعو لتثبيت العقيدة ولترسيخ كلمة الحق والتقوى ، ولتوحيد الله وللاقرار له بالعبودية وحده لا شريك له وللخضوع لربوبيته .

وبعد أن تم له ما أراد ، وتوالى نزول آيات القرآن المكي واكتملتْ ، وقضى الله أمرا كان مفعولا ، توجه المصطفى المعصوم الصديق الامين الى يثرب بعد ان أذن له حيث اقام المجتمع الذي حدد القرآن مواصفاته ، وقيمه ، واخلاقياته ، والتي لو تمسك بها الناس

والتزموا نهجها لما ضلّوا ولما وهنوا ولما هانوا ، ولطابت لهم الحياة ولنعم الحال .

ونُقلِّب صفحات تاريخ أمتنا الاسلامية وعلى مدى ألف وأربعمائة عام فنجد ان عزتها ونصرها ، وبؤسها وشقائها ، يدوران وجوداً وعدماً مع مقدار التزامها بكتاب الله وسنة رسوله .

ونعبر القرون ونطوى السجل وننظر لحالنا اليوم ولا نأسى ولا نيأس بالرغم من مظاهر الفرقة والشتات بل وبالرغم من الخصام والاقتتال فقد توفرت للمسلمين كل أسباب المنعة والقوة عدداً ومالاً وعتاداً وعلماً يقينيا . وستزول غداً وبإذن الله كل المكدّرات والمنقصات والمؤثرات التي تسلب العقول وتعمى الأبصار فما من مبرر يسوِّغ النزاع والصراع ، وما من مطلب مهما كان قدره يبيح القتال بين المسلمين ، وبين أبناء فارس وابناء الرافدين . . . فلا غالب بينهم فالكل مغلوب . . . ضعف الطالب والمطلوب . ويا قادة العرب والمسلمين اتقوا الله واذكروا قوله « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

الأيام :
العدد : خاص بالهجرة رقم ١٠١٣٥
التاريخ : غرة محرم ١٤٠١ هـ
الموافق ٩ من نوفمبر ١٩٨٠ م

من وحي : الانتخابات الامريكية
يوم شبَّه
عبد الناصر الروس بالدب القطبي

كنا نضحك كثيرا ونعجب لقول جدتنا ان آخر حدود الدنيا هي « فاس الماوراها ناس » . وكانت تلك فرصتنا لاستعراض حصيلتنا من علم الجغرافيا التي يدعمها الأطلس الذي كنا حديثي عهد بمعرفته واقتنائه . ولعل الجدة العزيزة كانت محقة في زعمها ذاك فقد كان ما يحدث فيما وراء مدينة المغرب العربي لا يؤثر لا من قريب ولا من بعيد على حياة الأولين من ابائها واجدادها الذين ورثت عنهم المقولة والذين اتخذوا من سهول السافنا جنوب الصحراء الافريقية الكبرى موطناً لهم ومستقرا . والذين كان بعضهم ، وذرياتهم من بعدهم ، ضحايا الابل والانعام ، التي أقلتهم من ديارهم الأصلية والتي بهرها النيل فأرخوا لها الزمام واللجام ، لتنعم بالكلأ والماء ، فسرحت بهم وتمادت جنوباً حيث طابت لهم الحياة ونَعم المقام ، على ضفاف النهر الذي كان الظن أنه يتفجر من جبال في القمر ويمتلىء ويفيض عندما يبلغ البدر التمام .

وتعاقبت الأجيال ، والحياة تسير سيرتها الرتيبة ، والأجداد ينعمون بها ، يتناكحون ويتناسلون ، ويحرثون ويزرعون ويرعون ،

لا يهمهم بعوض ولا هبوب ، ولا غبار ولا تراب ، ولا شمس تلفح الوجه وتحرق الجلود والأبدان .

وفيما وراء فاس ، وفي أوروبا ، كان هناك أيضا ناس يتناكحـون ويتناسلون ويزرعون ويحصدون . ولكنهم كانوا يبدعون . فقد انكب بعضهم على الدراسة والعلم والتحصيل يمعنون النظر في الظواهر ، يتـدبرون ويتفكـرون . يستقصون الحقـائق ويستقرؤ ن الأحـداث ، ويستفيـدون من تجـارب الآخـرين ومن التـراث . فكـان ابـداعهم المادي وكانت اكتشافاتهم المذهلة واختراعاتهم التي يسَّرت الحياة ، وربطت بين بقاع الأرض وسهلت الاتصال والانتقال بين أطـرافها ، لتجعلها تبدو أصغر كثيرا وأضيق مما كانت تـظن المرحـومة جـدتنا والسابقون من اسلافها ، ولتكون آية للناس ومصداقاً لقوله عز وجل « أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها . . . » والقرآن حَمَّالُ معانٍ .

وتتـابعت الابداعـات ، وضـاقت الفتـرات الـزمنيـة بين اختـراع واختـراع . وتطورت أجهـزة الارسال والاستقبـال ، حتى أصبح مـا يحـدث في أية بقعـة من بقاع الأرض بـل وفي القمر ، في متنـاول السمع والبصر ، دون جهـد وعناء وسفـر . وتبع ذلـك وترتب عليـه تشابك مصالح البشر ، وتأثرهم سلباً وايجـاباً حتى بـالأصوات التي يدلى بها رعاة البقر ، وغيرهم من ساكني البـدو والحضر ، وزارعي البقول والخضر ، في القارة التي حباها الله بالخيرات الكُثر تمييـزاً بين ريجان وغريمه كارتر الذي خسر .

ومـادامت نتيجة الاختيـار بين الرجلين تؤثـر علينا وعلى مختلف صنـوف البشـر ، من يهـود وعـرب وتتـــر ، وعلى مختلف اصقـاع

المعمورة من الاسكا الى الكاب الى المجر ، فلا بد من وقفة تأمل ونظر في الاسباب التي جعلت من ريجان الفائز المنتصر .

وتعددت التفسيرات وكثرت اجتهادات الفِكر . وكان منها ما عزى الأمر الى تدني الانتاج وتدهور الدولار وما تبع ذلك من عطالة وبطالة وقَتَر ، والى غيرها من العوامل الاقتصادية والمالية والنقدية التي أثقلت كاهل الرئيس كارتر ، واضافت الى رصيده السلبي والى خفة موازينه . ولكن مهما كان من أمر هذه العوامل فانها لا تقدم وحدها التفسير المقنع للانحسار المذهل لشعبية كارتر ومن ورائه حزبه التي لم يشهد مثيلا لهذه الهزيمة التي مُني بها منذ ما يقارب القرن وعلى التحديد ، منذ عام ١٨٨٨ عندما رفض الامريكيون تجديد خلافة رئيس ديمقراطي كان هو ابن كليفلاند قروفر. ولأول مرة ومنذ عام ١٩٣٢ ومنذ هزيمة هربرت هوفر على يدي فرانكلين روزفلت يرفض الشعب الامريكي تجديد البيعة لرئيس تجري انتخابات الرئاسة تحت ظله وابان عهده . ولأول مرة أيضا يخلع ربع عدد الناخبين الديمقراطيين ردائهم الحزبي ويستظلون بمظلة الحزب المناوىء لهم ويدلون بأصواتهم لمرشح جمهوري . وكذلك فعل أكثر من نصف المستقلين الذين لا ينتمون لحزب بعينه . ولأول مرة في تاريخ الحركة العمالية الامريكية يكسب المرشح الجمهوري أغلبية أصوات تنظيمات العمال ، ولأول مرة وبعد ثلث قرن كامل ومنذ عهد ايزنهاور يسيطر الجمهوريون على مجلس الشيوخ ويحرزون انتصارات غير متوقعة في مجلس النواب . . . وقد كانت نتيجة كل ذلك أن حُظى ريجان ، وفق قانون الانتخابات الامريكي الفريد والمعقد ، بأصوات أربع واربعين ولاية من خمسين .

وهكذا كان انتصار الجمهوريين كاسحاً بالدرجة التي أذهلت المراقبين والمعلقين السياسيين والصحفيين ، مما جعلهم يبحثون عن أسباب خارج اطار المشاكل الاقتصادية والمالية . فالعالم كله يشكو من تعقد النظم الاقتصادية وفشلها كلها في مقابلة احتياجات المواطنين التي تضاعفت تضاعفا غير حسابي كما تنبأ عالم الاقتصاد مالتس منذ أكثر من قرن . والدول كلها تئن تحت وطأة التضخم . وليست أمريكا وحدها الاستثناء . وليس الدولار وحده الذي يعاني من الهبوط وعدم الاستقرار . وليست السياسة التي أعلنها ريجان هي الحل الأمثل والعلاج الشافي لأزمة البطالة والعطالة بل ربما فاقمت من أمرها وذلك تأسيساً على التزامه المعلن بالعمل على تخفيض نفقات مرافق الخدمات العامة وخفض مصروفات دواوين الحكومة وتوقع أسباغه الحماية على مؤسسات القطاع الخاص مما يطلق أيدي التنفيذيين واصحاب رؤوس الاموال تشريدا للعمال وقفلا للمصانع التي لا تحقق الربح المرجو كما يحدث الآن في بريطانيا تحت حكم مسز تاتشر وحزبها الذي يشبه كثيرا صنوه الامريكي .

ان هزيمة كارتر ليست هي هزيمة لسياسته الاقتصادية التي لا تناقض تناقضا جوهريا مع سياسة منافسه ، بقدر ما هي هزيمة للاتجاهات الديمقراطية اللبيرالية التي سادت المجتمع الامريكي منذ ربع قرن من الزمان ، ومنذ انحسار المد الرجعي الذي كان مهندسه وطليعته السنتور مكارثي مؤسس جمعيات محاربة النشاط المعادي لامريكا .

إن فوز أقصى اليمين الامريكي يعني تراجعاً ونهاية لروح التسامح الدولي الذي صاحب انسحاب امريكا من فيتنام . ويعني رجعة

محمومة لسباق التسلح ، وعودة مسعورة للحرب الباردة . ويعني تجميداً لاتفاقية سولت الثانية والتي كان من شأنها ان تخلق توازناً من حيث الكم والنوع بالنسبة لترسانة الأسلحة النووية الاستراتيجية الروسية والامريكية .

ولن تكون ثمة دولة في مأمن من آثار الحرب الباردة وسباق التسلح ، فالعالم كما أسلفنا قد ترابطت أوصاله وتشابكت مصالحه ، ونحن لن نستطيع أن نكون نشازا أو استثناء ، بل ربما كان علينا أن نبذل قصارى الجهد مع الدول العربية والافريقية لاثناء الرئيس المنتخب عن تنفيذ بعض جوانب سياسته الخارجية التي أعلن عنها ابان معركته الانتخابية . فالرجل قد عُرف بتعاطفه مع اسرائيل ومع جنوب افريقيا . والأمل أن يخفف من غلواء ممالاته لهما وإلا كان علينا أن نعيد النظر في بعض مناحي سياستنا الخارجية وان ندعم قواتنا العسكرية بمضاعفة منعتها تحسباً لما يمكن أن يؤدي اليه غرور الدولتين الباغيتين اللتين تهددان الأفارقة والعرب على السواء . ونرجو أن يكون ما التزم به ريجان نحو اسرائيل أبان حملته الانتخابية من مستلزمات كسب الأصوات ينتهي بانتهائها . وقد قال الصينيون عنه أخيراً انه رجل مرن يدرك خلفيات الظروف المتغيرة ويتفاعل معها ويتعامل على ضوئها .

ولكن مهما كان من جنوح الرجل الصارخ فان سياسته ستحد من أطماع الروس ومن مؤامراتهم وتطلعاتهم الى ابتلاع اراضي الغير وسعيهم الى كسب مزيد من مناطق النفوذ رغم تصريحاتهم المتكررة التي تجافي حقيقة مراميهم ورغم اقوالهم المعسولة التي تناقض أفعالهم .

ولعل الروس واستفزازاتهم المتتالية وسياستهم الخرقاء كانت هي العامل الرئيسي الذي أدى الى تحول الرأي العام الامريكي واتجاهه نحو الجمهوريين الذين ما فتئوا ينددون بسياسة الوفاق ويبدون التحفظات بشأنها ويثيرون المخاوف من إتباعها . وقد حاول الروس استغلال الاتجاهات الانعزالية والانطوائية التي سادت أمريكا في أعقاب انتهاء حرب فيتنام فضاعفوا من وجودهم العسكري في المحيطين الهادي والهندي وظلوا يمدون الفيتناميين بالعدة والعتاد لمواصلة اعتداءاتهم على كمبوديا ولتحقيق مآربهم في جنوب شرقي آسيا . ولم يكتفوا بتحريض الكوبيين للتدخل في أفريقيا بل بعثوا بخبرائهم العسكريين وقوادهم اليها وتمادوا في استفزازهم باحتلالهم العسكري لافغانستان حتى باتوا يطلّون على مشارف آبار البترول ويهددون طرق ووسائل اعداده وشحنه الى الغرب والى الولايات المتحدة . ولم يكتفوا بذلك بل سعوا الى ايقاظ الفتنة النائمة بين بعض دول الخليج وبين ايران وذلك بالتحريض الخفي والوعود الكاذبة للجانبين ، بغرض تدمير آبار النفط ومنشآت ضخه وتكريره ومن ثم حرمان الغرب منه .

ولكن وبالرغم من نجاح الروس في تحقيق بعض مآربهم في المنطقة وفي استغلالهم لحالة انعدام الوزن التي كان يعيشها الشعب الامريكي في السبعينات الا أنهم سيندمون كثيراً اذ لا قبل لهم بمصارعة أمريكا والى منافستها في سباق التسلح . ولن يستطيعوا أن ينازلوا المارد الصناعي الامريكي والتكنولوجية الامريكية اذا اتجهت نحو تطوير الأسلحة بنوعيها الاستراتيجي النووي والتقليدي . ولن يقوى الاقتصاد الروسي على تحمل نتائج التحول للانتاج الحربي .

وستزداد متاعب الاتحاد السوفيتي في اوروبا الشرقية وكذلك الأنظمة الموالية له بل التابعة له اذ ستضطر تلك الأنظمة الى مضاعفة ميزانياتها العسكرية على حساب اقتصادها وخدماتها المتهالكة والتي كشفت عنها أحداث بولندا الأخيرة .

وسيكون الروس هم الخاسرين من الحرب الباردة التي بدت تطل برأسها ، والتي يتحملون هم وزر ايقاظها . وسيدفعون الثمن بأكثر مما دفعوا في الخمسينات عندما كان العالم على حافة الحرب ابان عهد هاري ترومان وجون فوستر دالاس . فقد كان رصيد الروس السياسي يتضاعف ويزداد في تلك الايام نتيجة اخطاء الامريكان ومحاولات تدخلهم السافر في مختلف مناطق العالم ، ونتيجة عدم انكشاف حقيقة الاتحاد السوفيتي وتصديق الكثيرين لأقوال ساسته وتصريحات زعمائه ، ولان جل الدول التي تعرف اليوم بدول العالم الثالث كانت تخوض معارك ضارية ضد المستعمرين الغربيين من أجل نيل الاستقلال وتحقيق السيادة على اراضيهم .

ان مشكلة الروس أنهم لا يحسنون التصرف والحساب وتقدير الأمور . ومن قبل وفي عام ١٩١٧ اخطأوا في تقدير قوة المانيا القيصرية ورفضوا الوصول الى اتفاق معها يحفظ لهم اراضيهم وحدودهم وكانت النتيجة أن احتل القيصر غليوم الثاني مزيدا من الأراضي الروسية واضطر لينين وتروتسكي وبوخارين واشياعهم من البلاشفة الى توقيع المعاهدة التي عرفت باسم صلح « برست ليتفوسك » بعد أن قدموا مزيداً من التنازلات .

واخطأوا كذلك في تقدير قوة المانيا الهتلرية مما مكن هتلر من اكتساح الأراضي الروسية حتى بلغ مشارف موسكو ولولا جند الله

الذين منهم الشتاء لظل مارد الطين جاثياً على ركبتيه الى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا .

واخطأوا في حق مصر والعرب اذ دفعوا عبد الناصر الى الحرب الخاسرة في عام ١٩٦٧ ثم تملصوا من تبعة رأيهم الخاسر . واخطأوا في حق مصر بعد وفاة عبد الناصر برفضهم الوفاء بالتزاماتهم بامداد الجيش المصري بالأسلحة التي كانوا قد وعدوا بارسالها ابان حياته ومن بعدُ لخَلَفِه .

ولعل الكثيرين لا يعرفون حقيقة رأي عبد الناصر فيهم ولا يدركون مدى الألم الذي كان يشعر به الرجل ، ومدى الأذى الذي لحقه من ترددهم في امداده بالأسلحة التي كانوا يوعدونه بها ثم ينكصون . وأذكر انه في احدى زياراتي العديدة له وكان ذلك في الاسبوع الثالث من ديسمبر ١٩٦٩ وقبيل سفره للرباط لحضور مؤتمر القمة العربي وكنت في طريقي من موسكو الى الخرطوم لممارسة مهامي كوزير للاقتصاد الوطني والتجارة الخارجية أن سألني عبد الناصر عن تجربتي مع الروس أيام كنت سفيرا معتمدا لديهم فرددت بأنهم « متعبين واغبياء » فأمنَّ على قولي وزاد بأنهم (بطيئوا الحركة كالدب الروسي تماماً وانه يصعب على المرء أن يمسك بزمامهم وقالها بالانجليزية « سلبري ») وكان من عادة عبد الناصر ادخال بعض الالفاظ الانجليزية في اثناء حديثه (وانه يصعب عليهم أن يضعوا اصابعهم على الحلقة الأساسية في أية قضية) ـ وقالها بالانجليزية « سنترال ايشو » (ولكن ماذا نفعل فان الامريكان لم يتركوا لنا سبيلاً بديلا) .

واخطأوا في حق السودان وفي حقنا عندما دفعوا بالمنشقين

المتشنجين من الشيـوعيين السودانيين الى قلب نـظام الحكم الذي كان يبادلهم الود ، والذي حقق لهم ولبعض الدول التابعـة لهم من بلاد أوروبا الشرقية مكاسب ما كانوا ليحلموا بها في أفريقيا .

واخــطأوا في حق دولـة الصــومــال التي مكنتهم من اراضيهــا وسواحلها بمالم تسبقها عليه دولة افريقية اخرى .

ولعـل سوء ادراك الـروس ، وعدم تبصـرهم ، وخطأ تقـديراتهم الحسابية والسياسية تبدو في موقفين . احدهما في عام **١٩٦٢** عندما أوشكوا ان يوقدوا نار الحرب العالمية بارسالهم الصواريخ الى كوبا ، ثم ما كان من أمر تراجعهم عندما كشّر الرئيس كندي عن أنيابه وحذر وأنذر . والموقف الثاني هو تأييدهم لانقـلاب **١٩** من يوليـو **١٩٧١** بالسودان فقد اخطأوا اولاً في تقدير قوة الحزب الشيوعي وغرَّهم أن أحد كبار الضباط الشيوعيين قد استطاع أن يضمن لجانبه احدى فرق الجيش المتعددة ، وثانيا لجهلهم بحقائق الحياة الافريقية الصارخة وأن السودان دولة تحيط به ثماني دول تعادي الشيوعية ولا يمكن لها أن تقبل التعايش مع نظام به ثماني دول تعادي الشيوعيـة ولا يمكن لها أن تقبل التعايش مع نظام شيوعي في حدودها . وتكفي الاشارة الى اسماء رؤساء نصف ذلك العدد من الـدول في ذلك الـوقت ، الـرئيس السادات ، العقيـد القذافي ، الامبـراطـور هيـلا سـلاسي والرئيس تمبل باي .

وسيظل الروس يرتكبون الاخطاء ، ويفقدون المواقع لاستعجالهم النتائج ، ولجريهم وراء المكاسب المؤقتة مثل الامم الكافرة الباغية التي سبقتهم .

وصدق الحق دائما وابدا :

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » .

الأيام :

العدد **١٠١٤٦**

التاريخ **١٣** من محرم **١٤٠١** هـ

الموافق **٢١** من نوفمبر **١٩٨٠** م

يا أبناء السودان تعالوا
الى كلمة سواء

نحتفل غدا بمرور خمس وعشرين سنة على مولد السودان الحر المستقل . فقد مضى ربع قرن من الزمان على ذلك اليوم الأغر الذي أعلنا فيه سيادتنا على أرضنا واشهرنا فيه بلوغنا سن الرشد واعترف العالم بحقنا في الحياة الكريمة .

وكنا نحسب أن حياتنا بعده ستكون كلها يمناً ويسرا ، بعد ان كانت نكداً وعسرا . وان كل يوم يعقبه سيكون أحسن منه حالاً واكثر خيرا . . . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فلم تكن ايامنا التي تلته كلها ربيعاً كما كنا نرجو ونبتغي ، ولا أعياداً كما كنا نظن ونشتهي . فقد عشنا بعضها اعراساً وافراحا وبعضها مآتم واتراحا ، ذقنا فيها الحلو وتجرعنا منها المر ، تنازعنا في الطيبات منها كؤوسا لا لغو فيها ولا تأثيم . وادرنا في نحساتها اكوابا من حميم فشربناها شرب الهيم .

وما كان لنا كأمة بلغت سِّن الرشد ان نتنكب الطرِيق المستقيم فنشقى ، فقد عركتنا الحياة الدنيا وظننا أنا اجتزنا الامتحان وأخذنا

نصيبنا من البلوى . . . ونعود القهقري ، ونطوي سجـل السنين طيًّا علنًّا نعي الدرس وننتفع بالذكرى فلا نجد يوما أعـظم شأنـا من غرة يناير لربع قرن مضى . وما كان له ان يكون هكذا ، وان يتميـز عن سائر الايام ويبزها بزا ، إلا لأنه كان اليوم الذي التقى فيه السودانيون كلهم على الحسنى . دفنوا الأحقاد ، وتناسوْا الاختلافات ، وتعـالوا على الصغائر ، ورنوا بأبصـارهم الى السماء ، حيث العلم الحبيب يـرفرف لأول مـرة في الأجواء ، معلنـاً قيام الـدولة التي كـان الظن والعهد انها ستكون دولة الحق والعدل والعلم والحجا . . . ولكن ، وما اقساها من وقفة وفاصل وكلمة ، فقد تبين أننا مازلنـا في حاجـة لمـزيد من الامتحـان والتجـارب الاخـرى لنقلل من غلواء الانسـان الظلوم الجهول الكامن فينا ، والذي ما انفك يدفعنـا الى المهالـك دفعا ، ويزيّن الباطل ويصـوره لنا حقـا ، فكان ان بـدّلنا نعمـة الله كُفرا .

ولازلت أذكر الصيحة والنداء والدعوة التي أهملنا أمرها فضاعت سدى ، فقد اقترح بعض العقلاء منا صبيحة يوم السعد الذي تحقق فيه المنى ، ان يجتمع اصحاب الرأي وأهل النهي ، وقادة الاحزاب فوراً ، وعلى التوَّ وضحى ، من قبل ان تزَّل قـدم وتهوى ، وتـزول الفرحة وتعقبها النكسة ، فتكـون الندامـة والحسرة ، لـوضع ميثـاق يصون الاستقلال ويحفظ الوحدة . ولكن كنا في حالة انعدام وزن لا تعيش الا اللحـظة . فكأنمـا نحن في الجنة التي لا مـوت فيهـا الا الموتة الاولى ، وكأنما نحن أهلها الذين اطمأنوا بعد شفقة وتيقنوا ، أن لا رجعة للحياة الدنيا فلا موت ولا بؤس ولا شقاء .

وما هي الا بضعة ايام وتطفح الخلافات بين القادة مـرة أخرى .

ويسوء الحال والشعب يكتوي بنارها ويشقى . ويسود الانقسام الحزب الحاكم ويتفرق أيدي سبا . وتُكَشِّر الطائفية عن نابها ويعلو صوتها نذير شؤم وارهاص ابتلاء ، وتفرض حكماً ائتلافياً هزيلاً ولمّا يمضي على اعلان الاستقلال شهرا ، وقد كان الأمل والرجاء ان تشكل حكومة تجمّعٍ وطنيٍ عن رِضا ، وان تكون أوسعَ تمثيلا ، ومن ثم ، أعظم شأناً . وواصل الطائفيون الهجوم واجبروا أزهري ليستقيل ويتنحى ، لينفردوا بالحكم إثر انتخابات كان أمرها عجبا . فقد تدفقت الأموال يمنة ويسرا . وامتلأت الجيوب بالمال الحرام الذي كان ثمناً لشهادات الجنسية التي راج لها سوق تباع فيه وتُشرى . . . ولكن سرعان ما دب الخلاف بين قطبي الرحى . والذي كان سببه شكوك حزب الأمة في نوايا مصر ، وتردد حزب الشعب في قبول معونه امريكا . وقبل ان ينفض الائتلاف رسمياً ويفنى ، سارع رئيس الوزراء بتسليم السلطة لقائد الجيش ليلا . . . وأُسدل الستار على السودان ست سنوات عجاف إلا أشهرا . امتلأت خلالها المعتقلات ، وفتحت ابواب السجون ، وشُكلّت المحاكم العسكرية لأول مرة منذ محاكمة علي عبد اللطيف وصحبه الذين زلزلوا الأرض تحت اقدام المستعمر وطيّبوا الثرى . وصارت الاحكام الصارمة تتوالى وتترى . وأُعدم من اعدم وقتل من قتل في جامع الخليفة ليلة المولد ظُلما . وأُودع الزعماء المعتقل في جوبا ، ولم يستثن حتى رئيس الوزراء الذي كان قد تنازل عن الحكم اختيارا وطوعا ، ولم يشفع له أنه كان قائدهم الذي يهرعون الى داره صباح مساء . والغريب في الأمر ان زعماء الطائفة المتصالحة الأخرى والتي كان الظن أنها كانت عيناً لمصر وتبعا ، والتي اراد رئيس

الوزراء ان يكيد لها كيدا ، ظل رجالها خارج السجون والمعتقلات بل صاروا سنداً لقائد الجيش وعونا ، يتناجون معه سراً ويحرضونه علنا .

وجاء اكتوبر المرتجى . وماج الشارع وفاض وامتلأ . ولم تذهب روح القرشي وعبد الحفيظ سُدى . فقد انزاح الكابوس وانجلى . وشُكلِّت وزارة ضمت كل الاحزاب وكافة القوى . وحسب الناس انهم سيسعدون وينعمون بالاستقرار تماماً كما كان الظن ليلة الاستقلال وفجر مولد الهدى . . . ولكن تلاشت الاحلام وخاب الفأل وانزوى . فقد عُدنا الى ممارساتنا القديمة والى المكر الذي تزول منه الجبال ، والى الافك الآثم الذي ينسفها نسفا .

وأصبح الطريق امام فتية مايو واضحاً وممهدا ، واستبشر الناس وعبروا عن فرحتهم بالمسيرة الكبرى ، التي كان أولها في ميدان عبد المنعم وآخرها في المحطة الوسطى . . . ومرة اخرى تظهر الخلافات وتطفو الاحقاد وينقسم الطامعون فرقاً وشيعا . وظن البعض ان الفرصة سانحة والظروف مواتية . فكانت احداث ودنوباوي والكوه وابا . وكان رد الفعل عنيفا وسالت الدماء أنهرا . ثم كان يوليو من السنة التالية ، وتكررت المأساة وحصدت الارواح حصدا . ثم من بعده سبتمبر حيث حمى الله البلاد من الفتنة العنصرية الكبرى . ثم يوليو مرة اخرى وأحداثه الدامية التي راح ضحيتها مئات الموتى وآلاف الجرحى .

ولم أسق كل ذلك تجنياً ولا افتراءً ولا حباً في نبش القبور واحياء ما اندثر من المآسي وما مضى ، وانما لأذكر بما كان عليه حالنا علّنا نهتدي وتنفعنا الذكرى .

ويا أهل السودان جميعا ، تعالوا الى كلمة سواء علّنا ننعم بالوحدة التي مازالت حلماً يرتجى ، والتي كلما لاح لها بريق تصدي لها الشيطان الذي ضلّ وغوى ، والتي كلما قرب منالها وكادت ثمارها ان تُجنى ، تركناها للطير تقطف منها ما تشاء ، وللريح تذروها هباء .

ولعل بداية طريق الودة والهدى ، ان نعترف بفضل الأجداد والأباء والرجال الذين بذلوا الجهد والدم والمهج والارواح فداء والذين أسسوا المؤتمر ونازلوا الاستعمار علانية وخفاء ، ورفعوا علم البلاد خفّاقا في السماء . وأن نكف عن قارص الكلم وعن الهمز واللمز والغمز وعن الافتراء ، وان نكرم الاحياء منهم والموتى ، وان نرعى الأسر والابناء ، وان نحتفل دوماً بذكرى الشهداء ، ونترحم عليهم عقب كل صلاة .

وحسناً فعل زين الشباب ابن عبد القادر الفتي ، بخطابه الذي فاح عبيره وعم الارجاء ، وبندائه لأبطال الاستقلال واعترافه بفضلهم الذي لا ينكر ولا ينسى .

وحسناً فعل الرشيد وعز الدين بدعوتهما للنواب للاجتماع في الدار التي شهدت مولد الهدى . وبالمسيرة التي يستقبلها القائد بأذرع مفتوحة وبقلب خلى من الغل والحقد والهوى .

ونلِّح في القول ونكرر الدعوة والنداء للشريف ولمن حوله من الرفاق والاصدقاء ان يتدبروا الأمر وان يلحقوا بالركب قبل ان تبعد الشُقة ويطفح الكيل وتستحيل المصالحة واللقاء ، فليس مايو شجرة صفراء شاحبة تتساقط اوراقها اليابسة صباح مساء . وحتى لو سلّمنا بصحة الادعاء وبأن السودان صار صحراء قاحلة جرداء ، فماذا يضير

ويمنع ان نلتقي لنبعث فيها الحياة ونزرع أشجارا أوراقها خضراء ، وان نسأل الله ان يسوق الى الأرض الجرز الماء فيخرج به زرعاً نأكل منه جميعا .

و « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم » .

الأيام :
العدد : **١٠١٨٠**
التاريخ : **٢٤ من صفر ١٤٠١ هـ**
الموافق يناير **١٩٨١ م**

هل كان مؤسس الحركة الشيوعية في مصر وراعيها في السودان عميلا مزدوجا للروس والفرنسيين ؟

قدمت جريدة الاهرام القاهرية وعلى مدى حلقات ثلاث عرضاً لكتاب « شبكة الارهاب » لمؤلفته الكاتبة الامريكية كلير ستيرلنج . ولعل مرد اهتمام الصحيفة المصرية بالكتاب إلى اعتبارات تماثل عدداً الحلقات التي أفردتها له . وأولها زعم الكاتبة ان العقيد معمر القذافي يقف في طليعة حركة الارهاب العالمية تمويلاً لنشاطها وتوجيهاً لعملياتها ، وهو أمر يصادف بطبيعة الحال هوىً لدى القوى التي تنطق الاهرام باسمها . وثاني الاعتبارات ان الكتاب يكشف الكثير من الأسرار التي تثبت ان عمليات الارهاب العالمية من مرتكزات السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي ومن ادواتها . وثالث أسباب الاهتمام بالكتاب انه يتعرض بشيء من التفصيل ، الى الظروف التي أحاطت بمصرع هنري كورييل ، أحد أبرز مؤسسي الحركة الشيوعية في العالم العربي وفي مصر على الخصوص .

وقد زعمت جريدة الاهرام ان هنري كورييل كان عميلاً مزدوجاً للمخابرات السوفيتية والفرنسية ولكنها لم تقدم دليلاً مباشراً ولا قرينة

قاطعة على ما ذهبت اليه غير ما أشارت اليه الكاتبة من ان المخابرات الفرنسية كانت على علم تام بنشاط الرجل الارهابي وانها تحتفظ له بملف سرى رَقم س ٦١٩١٣٥ يحتوي على تفاصيل نشاطه على مدى سبعة وعشرين عاما هي مدة اقامته بفرنسا التي اتخذها موطناً بديلاً عن موطنه الأصلي بمصر . وان كلاً من أجهزة المخابرات الامريكية والبريطانية والالمانية والايطالية والبلجيكية والكندية كانت ترصد حركاته ونشاطه الذي كان مسرحه اطراف المعمورة على اتساعها . فقد كان على صلات حميمة مع كل تنظيم يساري وارهابي في الغرب وفي بلاد العالم الثالث من الانفصاليين الفرنسيين في كوبيك الكندية والذين لا تخفي فرنسا تأييدها لهم الى الالوية الحمراء الايطالية ، وبادر ماينهوف في المانيا الغربية ، الى جبهات التحرير المختلفة في جنوب القارة الافريقية ، الى ثوار البوليساريو في الحصراء المغربية ، الى الحركة الثورية المناهضة لشاه ايران ، الى تشكيلات المنظمات الفلسطينية في اوروبا الغربية ، الى الجيش الاحمر الياباني ، الى ثوار توبا ماروسي في ارغواي والارجنتين ، الى الحزبيين الشيوعيين المنقسمين باسرائيل ، الى الجيش الجمهوري الايرلندي ، والحركات الارهابية التي تنظمها الاقليات المهاجرة من المستعمرات السابقة والمقيمة في هولندا وبلجيكا والبرتغال والسويد واسبانيا والحركات الدينية والعرقية في تركيا وايران والعراق .

وقدمت الكاتبة بعض القرائن التي تثبت ان كورييل كان هو العقل الذي خطط ودبَّر مقتل السفير الامريكي بجواتيمالا والذي أحدث مصرعه دوياً عالمياً هائلا .

ولكن الصحيفة أغفلت الفترة التي قضاها بايطاليا عندما أسقطت عنه الجنسية المصرية في أعقاب الحرب الفلسطينية ومكث بها الى نهاية عام ١٩٥١ ولعله كان هو نفسه محلاً لرقابة المخابرات السوفيتية في تلك الفترة للتأكد من ولائه لها . وكنت قد التقيت به في منتصف تلك السنة بروما حيث كان قد بعث يطلب مني الحضور لمقابلته هناك كما سبق ورويت في مذكراتي التي نشرت صحيفة الايام طرفاً منها وكان قد نظم وهيأ لي فترات للاقامة بلغت السنة قضيتها متنقلا بين برلين الشرقية وبراغ وفينا ووارسو للالمام بنشاط الشباب الالماني الحر « اف ـ دي ـ يوت » وحركة السلم العالمية واتحاد الشباب الديمقراطي العالمي واتحاد نقابات العمال العالمي ومنظمة الشبيبة البولندية « زد ـ ام ـ بي » مما يدل على مدى نفوذه وطول باعه في الحركة الشيوعية العالمية . . . ولعل الرجل قد أراد ان يؤهلني لمهام عالمية شاءت ارادة الله الغالبة ان يبعدني عنها بعد أن تمرغتُ في اوحالها وتهتُ في متاهاتها مدة تقارب نصف تلك التي قضاها جدوده الأقدمون تائهين في صحراء سيناء .

وبالطبع لم يدهشني الزعم بأن الرجل كان مطية للمخابرات السوفيتية أو أنه احد أبرز مخططي عملياتها اذ أنه ليس استثناء من رصفائه قادة الحركات الشيوعية التي تدين بالولاء المطلق لموسكو والتي ترى في منعة الاتحاد السوفيتي الضمان لانتصار الحركة الشيوعية العالمية . ولكن هالني اتساع ساحة نشاطه الارهابي والزعم بأنه كان جاسوساً مزدوجاً للروس والفرنسيين على السواء . وربما كان الأمر مجرد ادعاء من اجتهادات مسز كلير ، أو فرض افتراء من صنع الاهرام الغراء .

وقد ذكرت المؤلفة ان المخابرات الفرنسية بالرغم من انها كانت تحتفظ لـه بملف خاص الا انهـا لم تكتشف مدى صـلاته العميقـة والحميمة بالاتحاد السوفيتي والارهاب الدولي الا في عام ١٩٧٦ . وربما كانت هذه المعلومة بمثابة القشة التي قصمت ظهر الـرجل اذ أغتيل داخل مصعد منزله الفاخـر بضواحي بـاريس في أصيل اليـوم الرابع من مايو ١٩٧٨ .

وقـد اتاحت لي صلتي الشخصيـة السابقـة به ان ألم بـطرف من أسرار حياته السياسية التي كان بـدايتها عـام ١٩٣٧ حيث أسس هو وأخوه راؤ ول ويهودي آخر يسمى مارسيل اسرائيل ونفر من المثقفين المصريين على رأسهم دكتور فؤ اد الاهواني التنظيم الماركسي الذي اطلقوا عليه اسم الاتحاد الديمقراطي .

ولم يكن هنري كورييل هو اليهـودي الوحيـد الذي بـادر بتكوين تنظيم شيوعي في مصر فقد سبقـه آخرون اسهمـوا في انشاء اتحـاد أنصار السلام الذي كان اول من دعي اليه بول كاجو دي كومب في القاهرة في عام ١٩٣٤ . كما ان اليهود لم يكونوا هم وحدهم الذين عملوا على قيام تنظيمات شيوعية أو ماركسية بمصر فقد كانت هناك مجموعة الشيوعيين الطليان ومن أبرز قادتهم دينا فورتي وريناتوميلي وكانت هناك المجموعة الاغريقية ويتـرأسها المحـامي سقراط كـاليا ريكوس والأديب الكاتب تسير كوس ولكن اليهود كانوا أكثر الجاليات الأجنبية نشاطا وأوفرهم حظا من رعاية الكومنترن فقد كان اليهود في كل انحاء العالم في طليعة المعـادين للفاشيـة التي كانت تنـاصبهم العـداء والتي صاغت نـظرية متكـاملة ضد السـامية . ولم يقلل من اهتمام الدولية الثالثة بمثقفي اليهود المصـريين انهم كانـوا من ابناء

الطبقات الغنية ذات الصلات الحميمة بسدنة مصر من الباشوات وحاشية الملك وأذناب السراي . وقد كان والد كورييل مليونيرا يملك بنكا مناصفة مع مليونير آخر سمياه باسميهما « بنك كورييل وصروف للتسليف العقاري والزراعي » .

ويتميز كورييل عن بقية رصفائه من ابناء اليهود الذين أسهموا واشتركوا ، وهم كُثر ، في التنظيمات الشيوعية التي كانت تعج بها مصر ، في أنه كان متفرغا تماما للعمل الثوري يعيش على الاموال الطائلة التي ورثها من والده ، وكانت زوجته روزت لا تقل عنه ثراء فاحشا . وقد كان الرجل اول من نادى بتمصير الحركة الشيوعية بمعنى انه كان يهتم بأمر الرفاق المصريين يرصد نشاطهم ويرعى نموهم الثوري ويدفع بهم الى أعلى السلم القيادي ولم يكن هذا بالأمر السهل فقد عارضه اليهود والأجانب على أساس أنه لا يليق بحزب شيوعي ان يرفع شعارا شوفينيا كالتمصير يناقض المبادىء الأساسية للماركسية اللينينية الستالينية التي تدعو للأممية وتناهض التعصب العرقي والقومي .

ويتميز أيضا بأنه كان الزعيم الحقيقي لمنظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني التي يرمز لها « بحدتو » ومن قبلها الحركة المصرية ورمزها « ح . م . » ولم يقف نفوذه عند مصر وحدها بل كان بمثابة الأب الروحي للحركة السودانية للتحرر الوطني والتي كان يرمز لها « بحستو » والتي كادت ان تكون توأماً لحدتو في خصائصها وصفاتها لولا اختلاف ظرفي مكان وزمان ميلاد كل منهما . وكان الرجل يبدي اهتماما زائدا بنا نحن معشر الطلبة السودانيين الذين التحقوا بالجامعات المصرية في منتصف الاربعينات وكان يكِّن لعبد الخالق

محجوب وداً خاصاً ولعله كان أقرب الرفاق المصريين والسودانيين على السواء الى قلبه . وقد ظلت صلتهما متينة الى ما قبل انتقال الأخير لرحمة الله . ولا شك عندي ان كورييل كان يقف من وراء الحملة الجائرة الظالمة التي شنتها الصحافة الفرنسية على النظام القائم في السودان في أعقاب فشل محاولة استيلاء الشيوعيين على الحكم في يوليو من عام ١٩٧١ ، والتي كان يقودها الصحفي اليهودي المصري الفرنسي اريك رولو المحرر السياسي لشئون الشرق الأوسط بصحيفة لوموند والذي كانت تربطه بهنري أوثق الصلات ولم ينكر هو ذلك فقد كانت لي معه مقابلة عاصفة بمكتبي بوزارة الصناعة ابان تلك الأيام الصاخبة ولكن علمت ان الرجل قد اعتدل واصلح من مشية قلمه وكتب مقالات التزم فيها جانبا من الحق والصدق كان لها أثرها في تغيير بعض مفاهيم قادة الأحزاب الشيوعية في أوروبا عن حقيقة مغامرة الرفاق وحماقتهم التي قصمت ظهرهم السياسي الى ما غير علاج أو شفاء ان شاء الله .

وان كان كورييل قد أثر تأثيراً مباشراً على مسار الحركة الشيوعية في كل من مصر والسودان الا أن تأثيره غير المباشر قد امتد الى منطقة الشرق العربي كلها فالرجل كان يقف بجرأة وعناد وراء شعار تقسيم فلسطين في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ ، وكان ان تبنى الشيوعيين المصريون الشعار وكانوا رغم قلتهم العددية يزحمون الشارع السياسي عن طريق المظاهرات الطلابية والنشرات الدورية والصحف التي كانوا يستأجرونها من أصحاب امتيازها ، وعن طريق التنظيمات العديدة التي كانت بمثابة الواجهة العلنية والقانونية للتنظيم السري مثل جماعة البحوث والاتحاد الديمقراطي والمركز

الثقافي والاجتماعي ولجنة نشر الثقافة الحديثة ودار الأبحاث العلمية .

والغريب في الأمر ان كورييل ومن حذا حذوه كانوا يجدون الجرأة الكافية للخروج من مسلمات الماركسية والتي تقرر ان السبيل امام الأقليات المضطهدة هو المساهمة في النضال ضد المستغلين في البلاد التي يقيمون بها وفي ازكاء حدة الصراع الطبقي واشعال ناره بوصفه الطريق الوحيد لتأسيس الدولة التي لا تعرف الفروقات الطبقية والجنسية والعرقية وان المخرج امام المضطهدين من اليهود هو النضال داخل البلاد التي يعيشون فيها مع بقية الكادحين وليس في ايجاد وطن خارج الأرض التي ولدوا فيها ونشأوا تحت سمائها .

ولعل موقف الاتحاد السوفيتي اللامبدأي بالنسبة لتقسيم فلسطين والذي تمثل في موافقته على قرار التقسيم الذي أصدرته الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة في ٢٩ من نوفمبر ١٩٤٧ هو الذي أسهم في جرأة كورييل وزمرته .

ولكن وان كان ذلك الموقف من كوريل وشركاه قد رتَّب آثاراً بالغة الضرر على قضية فلسطين الا انها كشفت حقيقة الرفاق وتبعيتهم للاتحاد السوفيتي الذي لا تحكم تصرفاته مبادىء ولا قيم اخلاقية وانما تسيره مصالحه الذاتية التي جعلته يؤ يد قيام دولة خطط لها غلاه العنصريين من الصهيونيين في اواخر القرن الماضي ، وباركها سدنة الاستعمار أمثال لورد بلفور الذي أعطى الاشارة الخضراء إيذاناً بمولدها وذلك عبر تصريحه المشئوم في الرابع من نوفمبر ١٩١٧ والذي سمح بانشاء وَطن قومي لليهود بفلسطين .

ولقد كان الاتحاد السوفيتي يحسب أن دولة الشيطان ستكون واحة

ماركسية في صحراء العرب القاحلة ، ولذلك سمح بهجرة اليهود من بلاده ومن البلاد التي تدور في فلكه ، ولكن خاب ظنه فقد كان مؤسسوا إسرائيل من عتاة الصهاينة الذين نزحوا من روسيا ومن أقطار أوروبا الشرقية ومنهم « المصيبة » قولدا مايير واللعين مناحم بيجين وقبلهما كبيرهم الذي علمهم السحر بن غوريون . . . وعلى عكس تقدير الروس كانت رؤية راعي الحركة الصهيونية ومؤسسها هرتزل الذي كتب في عام **١٩٠٨** يقول :

« ستكون الدولة اليهودية في فلسطين امتدادا لحضارة اوروبا الغربية وحصناً منيعاً ضد همجية الشرق » .

وهكذا دائماً الروس . تقديراتهم خاطئة وميزانهم خسران ، حساباتهم ناقصة ورأيهم « **تلفان** » .

خواطر عن الماركسية وحقيقة الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية

طلب مني اخوة كرام من أساتذة جامعة الخرطوم الاشتراك في ندوة اختاروا لها نادي الأساتذة مكاناً ، واحدى أمسيات الاسبوع المنصرم زماناً ، والصراع بين المادية والدين وبين الاشتراكية والرأسمالية موضوعاً وذلك ضمن نشاطهم المحمود بمناسبة اطلال العام الهجري الجديد .

وقد شاءت الظروف أن أبارح الخرطوم يوم الندوة مبكرا . . . ولكن فان فاتني شرف اللقاء بالاساتذة الأجلاء ففي صفحات الايام الغراء العزاء .

والصراع بين الدين والكفر قديم قدم الحق ونقيضه ، فقد انقسم الناس فرقاً وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً منذ عهد نوح وقومه الذين كانوا هم أظلم واطغى ، ومنذ أيام النمرود وابراهيم الذي وفّى ، ومنذ ان كان هرون وموسى وفرعون الذي تجبر وبغى وقال انا ربكم الاعلى .

وبالرغم من ان هذا هو أس الخلاف الذي ساد البشرية منذ القرون الاولى ، فان هناك من يحاول طمس تلك الحقيقة الكبرى . وذلك بتسبيب الأمر واسناده الى التباين بين النظم الوضعية ، والى اختلاف

بنياتها الاقتصادية ، التي هي في نظرهم وليدة التناقض بين علاقات الانتاج السائدة في مجتمع ما وبين درجة نمو القوى العاملة التي تحققه . وفرح القوم باكتشافهم النظري القاصر هذا ، وصاحوا كما صاح ارخميدس من قبل وقال « يوريكا » . وحسبوا انهم قد افلحوا في الوصول الى القاعدة الاصولية والشمولية التي استعصى ادراكها على كل العقول التي سبقت زماناً كارل ماركس الذي اتخذوه لفكرهم إماما . وتمادوا في إسرافهم النظري ، وترفهم الفكري ، وادعوا بأن المجتمع لا بد وأن ينهار اذا عجز عن انتاج الثروة المادية ولا بد ان يتلاشى إن أصبح غير قادر على توفيرها . وبمفهوم المخالفة فان اساس الحياة ، في تقديرهم ، وأساس تطور المجتمع هو انتاج تلك الثروة ، وان الصراع حول انتاجها هو الذي يحرك عجلة التاريخ ويدفعها دفعا . وهو الذي يحدد مقومات المجتمع وخصائصه التي ينفرد بها ، ومناهج سلوكه الاجتماعي والسياسي ، وقيمه المعنوية والروحية . وخلصوا الى ان الصراع الاساسي في عالم اليوم هو ذلك الذي يدور بين النظامين الرأسمالي وظهيره الاشتراكي ، وان بقاء الأديان كمؤسسات وكقيم رهين بنتيجة ذلك الصراع حيث انها ستضعف وتتلاشى ثم تنتهي بانتهاء المجتمعات الطبقية بوصفها أسلحة في أيدي الطبقات الغنية تستغلها في تخدير المستضعفين وتضمن بها ولاءهم على أساس أنه قدرهم المكتوب الذي لا فكاك من أساره ولا خلاص .

وصَدَّق الحواريون الزعم الكاذب والظن الآثم وعموا أو تناسوا حقائق التاريخ الحديث ووقائع التاريخ المعاصر والتي تثبت ان النظامين الرأسمالي والاشتراكي المزعوم ظلا يتعايشان منذ مولد الدولة السوفيتية في أواخر سي الحرب العالمية الاولى ، وان المانيا القيصرية الرأسمالية

قبلت الصلح مع الدولة الاشتراكية الوليدة بينما واصلت الحرب ضد أمريكا وبريطانيا وفرنسا وهي دول رأسمالية مثلها .. وظلت تحارب جمع تلك الدول وحتى الرمق الأخير من حياتها ولم تلق السلاح طوعاً وتضع حداً للقتال كما فعلت مع روسيا السوفيتية . والحرب العالمية الثانية لم تكن هي بدورها لا في بدايتها ولا حتى نهايتها بين الدول الرأسمالية في جانب وبين روسيا في الجانب الآخر . وانما كانت بين دول المعسكر الرأسمالي حيث ان المانيا النازية وايطاليا الفاشية ما خرجتا عن كونهما دولتين رأسماليتين ، وذلك وفق منطق الشيوعيين أنفسهم وبمقتضى تعريفهم ، بل كانتا طليعة الأنظمة الطبقية ، وان هتلر لم يدفع جيوشه لغزو الاتحاد السوفيتي إلا من بعد أن احتل وسط اوروبا وشرقها وشمالها ودول البنولكس وبعد ان هزم فرنسا ونازل بريطانيا وعزلها وهزمها في دنكرك وكانت تلك كلها دولاً رأسمالية .

وفي الواقع فاننا اذا ما طبقنا المعيار الذي وضعه لينين مؤسس الدولة السوفيتية وحزبها للتعريف بماهية النظام الاشتراكي لتبين لنا أن الاتحاد السوفيتي لم تكتمل فيه مواصفات ذلك النظام ودولته . اذ تنعدم فيه الحريات الشخصية التي هي المقوم الثاني للدولة الاشتراكية بجانب تأميم وسائل الانتاج وادواته حسب تعريف لينين الذي وصف بالمقابل النظام الرأسمالي بأنه النظام الذي لا تملك فيه القوى العاملة وسائل الانتاج بالرغم من أنها تتمتع وتحظى بالحريات الشخصية .

ولو واصلنا تطبيق ذلك المعيار لوجدنا ان بعض البلاد التي يصفها القاموس الشيوعي بأنها بلاد رأسمالية هي في حقيقتها بلاد تطبق النظام الاشتراكي بأكثر من بعض البلاد التي تدعى أنها اشتراكية . فهنالك من الدول ، ومن بينها بعض دول العالم الثالث، من أممت المرافق العامة

الرئيسية كـالمناجم والسكـك الحديـدية والصنـاعات الكبيـرة والثقيلة وكفلتْ لمواطنيها الحريات العامة والخاصة بأكثر مما هو عليه الحال في كل البلاد التي تدعى أنها اشتراكية .

وبالرغم من الادعاء بأن الاتحاد السوفيتي يقود الصراع ضد الدول الرأسمالية بوصفه قائد المعسكر الاشتراكي وبالرغم من الزعم بحتمية ذلك الصراع حيث اختلاف أنظمة الحكم في كل من المعسكرين الا أنه يدعو ويلح وينادي بضرورة التعايش السلمي مع دول الغرب ، ويعقد معها الصفقات التجارية والمالية ويفتح ابوابه لرؤوس الاموال الالمانية والامريكية واليابانية والايطالية ويستقبل الخبراء الغربيين بل يستجدي تشريفهم اراضيه في الوقت الذي يقرر ويكرر ألا تهاون مع الأديان والا تعايش سلمي في ساحات الفكر ، وان الصـراع بين الالحـاد والدين سيظل قائما وان الحزب الشيوعي بوصفه طليعة المجتمع وقائد التطور والتقدم سيظل يؤجج نار ذلك الصراع ويشعل لهيبه ولن يسمح للحرب الدائرة بين الماركسية التي يسترشد بها وبين الدين ان تضع اوزارها .

وبعد ان كان يصف نفسه بأنه دولة علمانية تفصل بين الدين والدولة أخذته العزة بالاثم وصار يفتخر بأنه دولة ملحدة .

ودعوة روسيا للتعايش مع مختلف الأنظمة الرأسمالية وحتى تلك التي تنعتها بالرجعية بل ومع الدول الفاشية ليس أمرا جديدا فقد ظل لينين يدعو له منذ تأسيس الدولة السوفيتية بل وقبل قيامها وذلك عندما رفض نظرية الثورة البروليتاريا العالمية كشرط لانتصار الاشتراكية وتحقيقها في بلد واحد دون غيره .

وقد التزم كل الزعماء السوفيت الذين خلفوا لينين في زعامة الحزب وفي رئاسة الدولة بمبدأ التعايش السلمي مع الدول الرأسمالية . فستالين

بذل قصارى جهده لعقد معاهدة تعاون ودفاع مشترك مع فرنسا ولما لم يجدْ أذناً صاغية عقد في أغسطس من عام **١٩٣٩** اتفاقية عدم الاعتداء مع هتلر ، اقتسما بمقتضاها بولندا . وبارك مع دول الحلفاء ، وكلها دول رأسمالية ، مقررات كازبلانكا ويالتا وبوتسدام . وحتى في الساعات التي فقد فيها عقله وطاش صوابه وكاد أن يضع العالم على حافة الحرب والهاوية سرعان ما كان يتراجع عن مواقفه كشأنه ابان تصاعد أزمة حصار برلين في عام **١٩٤٨** . ومن بعده ظل مالينكوف طيلة فترة حكمه القصيرة يدعو لصداقة الغرب والولايات المتحدة . وكذلك فعل بولجانين ومن بعدهما نيكيتا خروشوف الذي حاول أن يجرب حظه بالخروج عن مبدأ التعايش السلمي مع أمريكا بتزويد جارتها كوبا بالصواريخ ذات الرؤ وس النووية وذلك في السابع والعشرين من اكتوبر عام **١٩٦٣** فكان ان قبل الرئيس كندي التحدي وهدد وأنذر فتراجع عزيز الروس ونكص على عقبيه مذموماً مدحوراً .

والرفيق برجنيف لا زال يعلن تمسكه بمبدأ التعايش السلمي ويؤ كد حرصه على صداقة أمريكا والمانيا الغربية وحلفائهما . ونراه اليوم يبذل الجهد لكسب صداقة الرئيس الامريكي الجديدة في الوقت الذي يقرر عزمه على استبقاء جيوشه في أفغانستان تأديباً لشعبها المسلم وقهراً له . فحق عليه القول أسد عليَّ وفي الحروب نعامة .

وهكذا يتضح بالشواهد التاريخية الثابتة افلاس الزعم بأن المعركة بين الرأسمالية والاشتراكية هي أعظم معارك الفكر الانساني .

وقد فطن بعض المفكرين الغربيين للأمر وادركوا أن خطر الاتحاد السوفيتي لم يعد يكمن في احتمال انتقال عدوىِ تطبيق نظامه الذي ثبت

أنه يبعد أميالاً وفراسخ عن الاشتراكية الحقّة وانما في تزايد منعته العسكرية وفي نواياه العدوانية .

وألحق ان الماركسية وان كانت تمثل خطراً على دول الغرب في مطلع القرن العشرين ونصفه وثلثيه لبريق زيفها الذي يجذب الشبان والقصر ، خاصة في الأمم المقهورة ، إلا أنها لم تعد كذلك اليوم بعد أن بان افلاس نظرياتها الاقتصادية والاجتماعية وبقي أمر منازلتها فيما تبقى من أصولها وينابيعها الثلاث وهو جانبها الفلسفي .

الأيام :

التاريخ ١٤ ربيع الأول ١٤٠١

الموافق ١٠ من يناير ١٩٨١

خواطر عن الماركسية وحقيقة الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية

\- ٢ -

القول بأن أعظم معارك الفكر البشري هي تلك التي تدور بين الايدلوجيتين الرأسمالية والاشتراكية زعم مردود وادعاء أجوف . فالاتحاد السوفيتي الذي يدعى أنه حامل لواء الاشتراكية في العالم لم تكتمل فيه بعد مقومات النظام الاشتراكي رغم مضي أكثر من ستين عاما على قيام ثورة البلاشفة ، وذلك لغياب الركن الثاني من دعائم النظام الاشتراكي وهو توافر الحريات كضرورة لا تقل أهمية عن تأميم المرافق العامة وذلك حسب تعريف لينين مؤسس الدولة السوفيتية وحزبها . ونضيف ولعدم تحقيق دكتاتورية البروليتاريا التي اعتبرها فلاديمير ايلتش لينين أساس النظام الاشتراكي ومظهر حكمه وعنوانه .

ولعل خير مجهر يعرى الأدعاء باشتراكية النظام المطبق حالياً في روسيا وتوابعها ويظهر افلاسه هو مسلمات النظرية الماركسية نفسها وتعريفاتها لماهية النظام الاشتراكي وتحديدها لمواصفاته ولمقوماته .

والماركسية وان كانت قد أفلحت في وصف بعض اعراض

وامـراض المجتمعات الـطبقية وفي نقـد المجتمع الـرأسمالي وفي السيـر خـطوات في طـريق معـرفـة الأسـاس النـظري والاقتصـادي للاستعمار الـذي تصوره بـأنه أعلى مـراحل الـرأسماليـة الا ان كل اشتراطاتها النظرية لتحقيق المجتمع الاشتـراكي المعافى قـد ظلت حبرا على ورق والفاظا يرددها البعض دون تبصر وتدبر وروية .

وفي الواقع فان الأفكار التي جاءت بها المـاركسية حـول أساس المجتمعـات الـطبقيـة والمجتمـع الـرأسمـالي على الخصـــوص ، وتنبؤ اتهـا التي تصـل عنـدهـا لمـرتبـة اليقين عن حتميـة المجتمـع الاشتـراكي ومن بعـده المجتمـع الشيـوعي والتي يعتـز بـاصـالتهـا المـاركسيون وبتحقيقُ تنبؤ اتهـا يحلمون ، ان هي الا أحـلام يقـظة واشتات آراء نادى بها السابقون منذ عهد سقراط وأرسطو وافلاطون .

ولم يكن كارل ماركس ومن بعده تلامذته وعلى رأسهم فـردريك انجلز الا ابناء عاقّين لكثير من الفلاسفة والمفكرين . فقد قرفوا من معين بنلسكي وتشـرنشفسكي في النقد وعلم الجمـال ، ونهلوا من دراســات هيجل وفيـوبر بـاخ في الفلسفة ، ومن نـظريـات اهـرنـج وسافيني في فقه القـانون ، واقتبسـوا من نظريـة لاسال عن الأجـور وتابعوا رصده للحركة النقابية ونشأتها وتاريخها . وتتلمذوا على آدم سميث الـذي كان كتـابـه ثـورة الامم مـدخلهم لـدراسـة الاقتصـاد السياسي ، وكذلك ريكاردو وكتـابه عن مبـادىء الاقتصاد السيـاسي والضرائب الذي صدرت اولى طبعاته في عام ١٨١٧ والذي فتنهم بنظريته عن الريع ثم انقلبوا عليها كمـا انقلبوا على مـالسس وادانوا نظريته عن الموازنة بين تزايد السكان وتناقص الغلة على آساس أنها نـظرية متشـائمة تسـرف في تبريـر الحلول التي من شأنهـا أن تعيد

الصواب للميزان المختل . واستوعبوا أفكار ابن خلدون التي ضمنها مقدمته الخالدة واقتبسوا من آرائه في علمي الاجتماع والتاريخ وعن حركة الامم والشعوب وكانت اقتباساتهم تلك هي أساس نظرية المادية التاريخية التي تشكل بجانب نظرية المادية الجدلية قاعدة التفكير الماركسي . وقد تيسر لماركس ولانجلز ومن بعدهما لينين الاطلاع على كتب الفقه الاسلامي وذلك اثناء تجوالهم بين باريس ولندن حيث تزخر المكتبات بالنادر من الدرر وبالنفيس من المطبوعات .

ومن مجموع تلك الدراسات الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية صاغ كارل ماركس نظريته التي زينها بزخرف القول ، وشحنها بالمصطلحات البراقة ، ولخصها في شعارات رنانة . وزعم أنها تختلف عن كل النظريات التي سبقتها بتفسيرها الصائب لحركة التاريخ وبنظرتها الشاملة ومعرفتها للقوانين التي تحكم مسار المجتمعات البشرية ، وانها لا تقف عند مجرد تلك المعرفة وانما تسعف الطبقات الكادحة وتهديهم وترشدهم الى سبل تغيير أنماط حياتهم والارتقاء بها الى المجتمعات الأفضل حيث الاشتراكية التي وصفها بأنها المجتمع الذي يسير وفق القاعدة القومية « من كل حسب طاقته لكل حسب عمله » ثم الى الشيوعية حيث تتلاشى الطبقات والحكومات ومؤسسات القمع والردع الطبقي وحيث يرتقى الشعار ليكون « من كل حسب طاقته لكل حسب حاجته » .

وبالطبع فقد ظل الشعاران مجرد نصين يرددهما البعض . ولم نر لهما تطبيقا بالرغم من مرور ما يجاور ثلثي القرن على ثورة اكتوبر الاشتراكية .

وقـد كان من العـوامل التي سـاعدت على انتشـار الماركسيـة ، بجـانب بريق شعـاراتها ووهجهـا ، اختيارهـا وتركيـزهـا على أكثـر مجالات الاقتصاد ارتباطا بحياة الناس وهو توزيع الأموال أو قسمتها بين ابناء المجتمع الواحد . فقد قدمت في هذا المجال ، الذي لا يستوعب كل ساحات النشاط الاقتصادي ، نظرية فائض القيمة والتي تعتبر العمل أساسا لقيمة الأموال وقد صاغ ماركس هذه النظرية بعد دراسته لنظريات اقتصادية متعددة سبقته منها نظرية الـريع العقـاري للاقتصادي البريطاني ريكاردو الذي وصف الريع بأنه ذلك الجزء من الدخل العقاري الذي لا يقابله عمل ، ومنها نظرية الفائدة وهي دخل رأس المال . وقد تأثر مـاركس بنظريـة الائتمان الجمـاعي لبرودون والتي تدعو للقرض بدون فائدة وكان هذا قد تأثر بدوره بدراساته في أصول الفقه الاسلامي وبالنصوص القاطعة من القرآن الكريم . وقد تأثر ماركس أيضا بقراءاته للنـظريات المتعـددة حول الأجـور وحول طرق تحديدها وخاصة تلك التي تنظر للعمل كسلعة تباع وتُشرى ، ومنها نظريات ريكاردو ولاسال وستيوارت ميل .

ويكمن خطأ نظرية فائض القيمة التي يرى الماركسيون أنها تشكل أعـظم اضافـات ماركس وانجـازاته في علم الاقتصـاد السياسي في رفضها لدور العوامل الاخـرى التي تتفاعـل وتحدد الأجـور ومن ثم قيمة السلعة . وقد رفض ماركس ومن بعده حواريـوه كل النـظريات التوفيقية التي أشارت الى بعض من تلك العوامل والمؤثرات وعلى رأس تلك العوامل المنفعة اذ أن التراجع عن نظرية فائض القيمة كما وضعها ماركس يعني هدم كل البنيان النظري الذي اقامه تأسيسا على تلك النظرية .

وربما كان هذا هو الذي يفسر لنا اصرار الماركسين على رفض وانكار دور المنفعة كعامل أساسي يحدد سعر السلعة وقيمتها وذلك بالرغم من الشواهد الحديثة والمعاصرة في دنيا المال والاقتصاد وعلى رأسها سعر سلعة البترول الذي ظل في تصاعد مستمر لا تحكمه كمية عمل أو زيادة أجر .

وخلاصة القول ان الماركسية بالرغم من الهالة التي حولها وبالرغم من القداسة التي يسبغها عليها رجالها لا تعدو أن تكون احدى نظريات عديدة سبقتها وعاصرتها وخلفتها . ولا تخرج عن كونها احدى الايدلوجيات القائمة على تركيبات اقتصادية وان كانت تبالغ في تصوير دورها وفي الادعاء بشمولية نظرتها واحاطتها بمقومات المجتمعات البشرية وخصائصها وفي زعمها أنها تملك بصيرة نافذة ثاقبة تنير الطريق وتكشف حجب المستقبل .

وقد أدى تطور الحياة وتفاعل العوامل التي تؤثر سلبا وايجابا على ذلك التطور وتتابع الأحداث وتغير الظروف التي تشد التطور وتحتمه الى انتشار الأفكار الليبرالية التي تشكل الخطر الحقيقي على الماركسية في جانبيها الاقتصادي والاجتماعي بوصفها نظرية سلفية جامدة بالرغم من الادعاء بأنها الوحيدة بين النظريات التي تنظر الى الظواهر في تطورها وحركتها . . . . ومن هنا كان عداء الماركسيين لتلك الأفكار ومن هنا كانت لعنة القاموس الماركسي لكلمة الليبرالية . ولقد ظل دور الاتجاهات الليبرالية في تسيير شئون العالم يتعاظم خاصة منذ بداية النصف الأخير من هذا القرن وسيظل الأمر كذلك حيث ان الناس قد ضاقوا ذرعا بالافكار المتحجرة وبالنصوص الجامدة وحيث ضرورة التفاعل والتكيف مع المتغيرات التاريخية

والظروف الموضوعية .

وفي الواقع ورغم الادعاء بغير ذلك فان المسافة بين الأفكار الاشتراكية والافكار الليبرالية قد بدأت تضيق ويرجع ذلك لتراجع الأفكار الاشتراكية الجامدة وعلى رأسها الماركسية عن كثير من مواقفها السابقة فقد أصبحت هذه تكيف نفسها مع الظروف فأصبحنا نسمع ونقرأ عن الشيوعية الاوروبية وعن الاشتراكية الجديدة وغيرها من الأفكار التي تمثل انعتاقا من قبضة الماركسية وتنصلا من بعض مسلماتها ، كدكتاتورية البروليتاريا .

ولم يقف الأمر عند مجرد النظريات بل تعداه الى التطبيقات ، فبعد أن كان تأميم المرافق العامة هو الذي يميز البلاد الاشتراكية عن غيرها أصبحنا نرى تراجعا من جانب الدول التي تفتخر بأنها اشتراكية فقد بدأ الاتحاد السوفيتي وتوابعه يدرسون أساليب الانتاج الرأسمالي بغرض الاستفادة منها اعترافا منهم بتخلفهم ويتوسعون في الأخذ بنظام الحوافز الشخصية وفي تشجيع المواهب الفردية وفي التقليل من وضع العراقيل امام حركة قانون العرض والطلب وبل وفي التراجع عن الاصرار على تأميم كل وسائل الانتاج ومنها الأرض التي لازال سبعين بالمائة منها في بلد كبولندا تخرج عن نطاق وسلطان القطاع العام بالرغم من مضيء أكثر من خمسة وثلاثين عاما على ايتلاء الحزب الشيوعي على السلطة فيها . وفي الجانب الآخر نرى توسعاً في الملكية العامة وفي التأميم في بلاد أوروبا وفي أمريكا حيث بدأت قبضة الكارتلات والترستات وغيرها من صور الاحتكار تضعف ويصيبها الوهن بل صارت تدعو لتدخل السلطات الفدرالية

والحكومة المركزية وتقبل اشتراطات هذه واشرافها كمقابل لتزويدها بالقروض والسلفيات التي تحتاج لها . . . وأول الغيث قطره .

الأيام :

العدد ١٠٢٠١

التاريخ ٢١ ربيع الأول ١٤٠١ هـ

الموافق ٢٧ يناير ١٩٨١ م

من وحي محاولة اغتيال الرئيس رونالد ريجان

منـذ عشرة أيـام ولا حديث لـلأنام غيـر محاولـة اغتيال الـرئيس ريجان . . . وفي هذه الفترة القصيرة من الزمان هلك كثيرون ونجى آخرون من الهلاك ومن العذاب ولم تقم الدنيا وتقعد كما فعلت مع عزيز الامريكان . رغم أنه هو وهم جميعا من نسل آدم ، كلهم من تراب وكلهم الى تراب ، بل ربما كان منهم من أثرى حياة المخلوق الذي يسميه دكتور محمد عبد الله الريح وأترابه بالهومو سيبيان بأكثر مما أسهم بطل الشاشة الممثل الفنان . . . ولكن قديما قيل « حلوه السلطة » . . . ومن قديم أيضا أدرك أهلنا الطيبون في غرب السودان الحكمة . فهم أهل دراية وحنكة ، ولسان وفطنة . فقد لخصوا الأمر في المقولة « حُكُم للرُكبة ولامال للرقبة » .

والسلطة فعلا حلوة ، تُطوِّل العمر . وترد الروح . وتبهج النفوس وتـدير الـرؤ وس . وهي كذلـك رغم أنف ادعـاء المنـافقين الـذين يزعمون أنهم عنها معرضـون ، وفيها زاهـدون ، وانهم لا يعيرونهـا أدنى التفات ، ولا يولـونها أدنى اهتمـام . وهُم هُم الذين يـطرقون الابواب . ويتمسحون بالأعتاب . ويتمرقون في الـوحل والتـراب .

يلاحقون الحكام . يزحمون اوقاتهم ، ويسبحون بحمدهم اناء الليل واطراف النهار ، وبالغدو والاصال ، ويلازمونهم كالظل في الحِل والترحال . ويتلمسون كل السبل ، ومنها جائر ، طمعا في منفعة بائرة . أو حظوة زائلة . وجريا وراء دنيا فانية . واستجداء لرفيع مقام وما أبخسه من مقام ذلك الذي مدخله مداهنة اللئام . ووسيلته الفعل الحرام . ونتيجته مضاعفة الآثام .

وحقب التاريخ تزخر بأمثال البعض الذين سعوا للسلطة سعيا حتى حفيت منهم الاقدام . فاذا ما تسلقوا الدرج ونالوا المرام بدأوا يهمسون ويتمشدقون بأن الأمر لم يكن من الأماني ولم يكن في الحسبان . وان السلطة المفتري عليها قد جاءتهم طائعة منقادة تجرجر اذيالها كشأن الخلافة مع المهدي العباسي الذي قال فيها ابو العتاهية شعراً سارت بذكره الركبان :

أتته الخلافة منقادة ... اليه تجرجر أذيالها
فلم تك تصلح الإله ... ولم يكن يصلح الا لها
ولو رامها أحد غيره ... لزلزلت الأرض زلزالها

وما أكفر الانسان . . . ومن زمان كان النمرود وكان هامان الذي استكان وركع للفرعون واستهان ، حتى اذا ما نال الحظوة وتقلب في النعمة وطاب له الحال قال انما أوتيته على علم من عندي . . . وهي كلمة قالها كثيرون ، ومنهم قارون وسيقولها آخرون الى أن تصيبهم القارعة وتغشاهم الغاشية ويحل بدارهم البوار . ولكن ليس كل بني الانسان في صلف النمرود ، ومن صنف قارون وهامان فهناك الحكيم ابن داؤ ود سليمان الذي تبسم ضاحكا من قول النملة وقال « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وان

اعمل صالحا ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين » ومن قبله يوسف الصديق الذي قال « رب قد اتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليِّ في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » .

ونعود الى حيث تركنا عزيز الامريكان ونشير الى سكرتيره الصحفي ، جيمس بريدي ، الذي لم يكن في العير ولا في النفير ولا في الحسبان ، والذي يَصْدُقْ عليه قول اعراب كردفان « الجايه من السماء تتحملها الواطه والماعندها ضنب يحاحي ليها ربها » .

ومنذ قديم الزمان وسالف الدهر والآوان ذهب كثيرون ضحايا للغدر ولتخطيط الليل وتدبير النهار . وقبل ذلك ومنذ ايام هابيل وقابيل كان ظلم الانسان لاخيه الانسان ، وكان الاقتتال الذي تنوعت وسائله وتعددت أسبابه الى أن عرف العالم الاغتيال الذي تحركه صراعات السياسة واطماعها . وقد كثرت تبعا لذلك الاجتهادات لدراسته كظاهرة اجتماعية تشغل البال . وقد صاغ فلاديمير ايلتش لينين نظرية في هذا الشأن جديرة بالاعتبار ولكن دون غلو الحواريين الذين يحسبون أنها أصدق الاقوال . فقد أسند الرجل ظاهرة الاغتيال الى فعل المثقفين والى قلقهم الطبقي الفطري والى تعجلهم النتائج والى استعلائهم وعدم صبرهم على العمل اليومي الدؤوب وسط الجماهير لتغيير الحال . وأشار الى ان الاغتيال السياسي لن يكون بديلا للنضال الجماعي الذي تشترك فيه الطبقات ذات المصلحة في التغيير ، وانه بوصفه عملاً فردياً لا يرتب أثراً ذا بال اللهم الا عندما تكون الدولة حبلى بالثورة وعلى وشك الانفجار .

ونقلب صفحات التاريخ نستقرىء أحداثه ونستشهد بوقائعه على

صحة نظرية الرجل أو خطئها ويبدو لنا أنه قد صدق في زعمه ولكن خاب استنتاجه ـ ونبدأ به هو نفسه فقد كان له أخ محامي يكبره سنا يسمى الكسندر وكان قد أُتهم في محاولة قتل قيصر روسيا في الثلث الأخير من القرن الماضي وتم اعدامه شنقا ومثقفين آخرين ممن تواطؤا معه . وقد كان لواقعة اعدام اخيه اثرها الفعال بالنسبة لتغيير مسار حياته وتفكيره ، فقد ترك هو بدوره مهنة المحامة وانصرف الى العمل الثوري الذي كان نتيجته تأسيس أول دولة شيوعية في العالم ـ وهكذا يتضح ان حادث اغتيال القيصر والذي كان من فعل المثقفين قد أثر على مسار تاريخ البشرية كلها تأثيرا فعالا ولو كان عن طريق غير مباشر .

وبعد حادث اغتيال قيصر روسيا بما يقارب نصف القرن اندلعت اتون الحرب العالمية الاولى التي استمرت لمدة خمس سنوات وكان حصيلتها ملايين الموتى وعشرات الملايين من الجرحى وكان سببها المباشر حادث اغتيال وقع في الثامن والعشرين من يونيو عام ١٩١٤ بمدينة سيراجيفو من أعمال يوغسلافيا والتي كان ضحيتها الارشيدوق فرنسيس فرديناند ولي عهد النمسا على يد طالب حربي من الصِرب يُدعى برنشيو .

وما لنا نذهب بعيدا ولنا في تاريخنا الحديث خير شاهد فقد حدث أن أطلق مجهولون مجموعة من الطلقات النارية على السير لي ستاك حاكم السودان العام وكان ذلك في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم الأربعاء التاسع عشر من نوفمبر ١٩٢٤ عندما كان يهم بركوب سيارته بعد ان فرغ من أعماله الرسمية بمكتبه بوزارة الحربية المصرية بالقاهرة اذ كان يشغل بجانب منصبه كحاكم عام للسودان وظيفة سردار الجيش المصري .

ولقد كان اغتيال السيرلي ستاك حدثاً جللاً اذ ترتب عليه طرد الجيش المصري من السودان وانفراد الانجليز بحكمه ولم يقتصر أثره على مسار الحركة الوطنية في مصر نفسها وكما قال عنها بحق بعض المؤرخين المصريين انها سجلت بداية انحسار المد الثوري العظيم الذي انطلق في شهر مارس ١٩١٩ وانها كانت أول ضربة حقيقية استطاع الانجليز توجيهها الى القوى الوطنية . ولعل أصدق تلخيص لأثر مصرع السردار على الحركة السياسية المصرية هو ما كتبه المؤرخ المصري د . عبد العظيم رمضان بأن حادث السردار « يجب ان يؤخذ على أنه أنموذج لما يمكن ان يلحقه العمل الفردي من ضرر محقق بالقضايا الوطنية مهما قدم لها من خدمات بل ان الضرر الذي ألحقه العمل الفردي بثورة ١٩١٩ في حادث السردار قد فاق ما قدمه لها من السنوات السابقة من فائدة » .

ولكن استشهادنا بوقائع التاريخ الثلاث من روسيا ومن اوروبا ومن مصر والسودان لا يسوغ اطلاق الزعم المناهض لرأي لينين بأن كل أحداث الاغتيالات السياسية ترتب اثارا عميقة على مجريات الاحوال سواء بالسلب أو الايجاب . فالحقيقة تكمن فيما بين الزعمين فمن الاغتيالات ما ترك بصمات غائرة على صفحات التاريخ ، ومنها ما طاش أثره وتلاشى كما يتلاشى أعصار ابليس ولم يخلف أثرا غير زيادة عدد من يتوسدون الثرى في مثيلات ضيعات احمد شرفي والكبرى وحمد النيل من أرض الله الواسعة .

صحيفة الأيام : العدد ١٠٢٦٥

التاريخ ٥ من !مادي الثاني ١٤٠١ هـ

الموافق ١٠ من ابريل ١٩٨١ م

بداية الهداية

لا شـك عندي أن روجيـه غارودي أكثـر المفكرين المعـاصرين الماماً بالماركسية وباصولها الفلسفية والاقتصادية والاشتراكية . ولعل درايته التامة بها هي التي أهلته للفصل من الحزب الشيوعي الفرنسي بواسطة الجهلة من قـادته وعلى رأسهم أمين الحـزب العام جـورج مارشيه . . . ورب ضارة نافعة . فلولا ذلك لظل الرجل مع بقية ابناء جلدته وبجدته في الضلالة يعمهون .

ولا نتجنى على مارشيه فقد أقر هو نفسه بقصور ثقافته وضحالتها واعترف بأنه يعاني معاناة شـديدة عنـدما يحـاول تلخيص أو تدوين ارائه . وانه يحتاج ليوم كامل لتسطير أفكار لا تستغرق كتـابة مثلهـا أكثر من ثلاثين دقيقة من وقت المثقفين . وقد سجل الاعتراف الرفيق الينشتاين احد قادة الحزب الشيوعي الفرنسي ومن كبار مفكريه الذين صحوا اخيرا من غيبـوبتهم الفكريـة ، وذلك في كتـابه الـذي صدر اخيرا والذي جعل عنوانه « اصحوا أيها الرفاق فان قادتكم يضحكون عليكم » .

ويعتبر غارودي وبحق أبرز مفكري ذلك الحزب ومنظريه فقد كان المسئول الاول عن جبهته الثقافية ونال أعلى درجات أكاديمية العلوم السوفيتية وارفع أوسمتها . ولكن ذلك لم يشفع لـه ولم يعصمه من الفصل من عضوية الحزب الـذي سماه الكـاتب الانجليزي جـورج ارويل « حظيرة البهائم » وذلك لأنه شجب وادان « الغزو الرفـاقي » الروسي لتشيكوسلوفاكيا وأصدر كتابا حوله سماه « الحقيقة » .

وللرجل قلم مدرار لا ينفد مداده ، ولا يتدانى عطاؤه . وقد حباه الله بعقل نيِّر وبفكر ثاقب وببصيرة نافذة . . . ولعل أشهـر مؤلفاتـه أربع ماركسيـة القرن العشـرين ، والاشتراكيـة في مفترق الـطرق ، والمستقبل البديل ، وحوار الحضارات .

وقد أجرت معه مجلة الحوادث البيـروتية حـوارا نشرتـه بعددهـا الصادر في السابع والعشرين من مارس الماضي . والحوار عبارة عن سياحة فكرية وطواف سريـع حول عـدد من القضايـا التي تهم قراء الصحيفة والناخبين الفرنسيين على السواء ، فقد قرر المفكر الكبير ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية الفرنسية التي ستجري انتخاباتها في السادس والعشرين من هذا الشهر . والذي يهمني من ومضات فكره في هذا المقام انصافه للاسلام ووصفه له بأنه المخرج من الأزمات الكثيرة التي يعاني منها مجتمع البشر .

وقد سجلت الحوادث قوله « ان اهتمامي كمفكر بقضايا الآخرين ونضالي ضد الأنانية الفردية وسعي وراء تحقيق الشروط الاقتصاديـة والاجتمـاعية والسيـاسية والثقـافية التي تمكن كـل طفل يحمـل في داخله عبقرية علمية أو فنية أن يستخدمها في حرية مـطلقة ، كـانت كلها مؤثرات جعلتني أتحدث باستمرار عن المجتمع الاسلامي في

المدينة حيث كانت الانطلاقة الاولى للنبي محمد وحيث استطاع الاسلام ومنذ تلك المرحلة ان يوضح وكما فعل في مراحل لاحقة أيضاً أن بالامكان ايجاد طريق أصيل وكامل . وان مرد الأمر ان الاسلام انما يعتمد على دعامتين يشكلاٰن الأساس لكل مجتمع انساني هما التعالي والجماعة . وان كل ذلك يجعلني أؤكد مرة أخرى ان بإمكان الاسلام ان يلعب دورا حاسما اذا هو لم ينغلق على نفسه وعلى ذاته » .

وبداهة فان غارودي لم يقدم معلومة جديدة بالنسبة لنا نحن معشر المسلمين الذين نعرف وبأكثر منه قيم الاسلام وصلاحيته المطلقة وأهليته التامة لتقديم الحلول لمشاكل الناس ولوضع ركائز المجتمع الانساني الطاهر والمعافى . ونعرف أيضاً وبتفاصيل أكثر وأدق الدعامات الروحية والمرتكزات المعنوية لمجتمع مدينة الرسول الكريم فقد ظللنا ومنذ الصغر نستمع ونردد القصص الواقعية التي تحكى لنا سيَّر أصحاب الرسول وعن طبيعة العلاقات التي كانت تسود بين الناس في صدر الاسلام . . . وقد سبق لي ان كتبت بجريدة الايام في نوفمبر الماضي بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري « . . . ومن هنا كانت عظمة الهجرة واثرها البالغ الباقي الخالد فقد اقامت المجتمع الذي كان يحلم به المثاليون والذي يصلح أنموذجا يحتذى على مر العصور والقرون والذي وضع أساسه الرسول الكريم . . . والذي حدد القرآنُ مواصفاته وقيمه واخلاقياته والتي لو تمسك بها الناس والتزموا نهجها لما ضلوا ولما وهنوا ولما هانوا ولطابت لهم الحياة ولنعم الحال » .

ولكن قيمة ما كتب غارودي تكمن في ان له قراء كثيرين في

الغرب الذي يجهل حقيقة الاسلام والذي قصد المستشرقون ومن سلك سبيلهم الجائر ان يفسدوا عقول ابنائه بتصوير الاسلام على أنه دين السيف والقسوة والقتل والشدة الذي لا يؤمن بالحجة ولا يعرف الحوار ولا يتعاطى الكلمة الطيبة ولا يجادل بالتي هي أحسن والذي يضطهد المرأة ولا يعترف بحقوق الأسرة . وقد كتب غارودي كثيرا وتحدث كثيرا عن تراث الاسلام وعن فضل الاسلام وعن سماحة الاسلام وعن حضارة المسلمين وعن أيامهم المجيدة بالأندلس التي امتدت لسبعة قرون وعن ظلهم الوارف الذي استظل به الكتابيون من يهود ونصارى وقسيسين ورهبانا . وحاضر مُعرِّفاً ومنصفاً لدويلات المسلمين في شمال افويقيا وخاصة دولة المرابطين بما لم يفعل مثله عربي أو مسلم .

كما تكتسب كتابات غارودي أهمية خاصة في هدا العصر الذي يشتد فيه الصراع بين الاسلام ، بوصفه خاتم الرسالات المهيمن على سائر الديانات ، وبين الماركسية بوصفها طليعة الكفر وامام الالحاد . فهو يدحض الزعم بأن الاسلام دين الاستكانة والخضوع ، والاستسلام والركوع ، والاستهانة والخنوع ، وينكر القول الفاجر والظن الآثم بأن الاسلام افيون الشعب ومخدره .

ولكن مشكلة غارودي وكثيرين غيره انهم لا يفرقون بين الاسلام وبقية الأديان اذ المهم في نظرهم الايمان وانهم لا يرون بأسا أن يكون المرأ متدينا وماركسيا في وقت واحد وهو زعم حرص كثير من ناشري مؤلفات غارودي على تأكيده في مقدمة مطبوعاته بأنه أشهر فلاسفة أوروبا الماركسين وأعمقهم ايماناً وأشدهم تمسكا بتعاليم الدين المسيحي . . . وقد كتب هو عن نفسه يقول في الفصل الاخير

من كتابه المستقبل البديل :

« انهـا لتجربـة فريـدة عاتيـة ان يكتشف الانسان حقيقـة الرجـل المسيحي الكامن فيه بعد ان ظل يعتقد وعلى مدى سنين عديدة انه ملحد » .

ولعلها بداية الهداية . . . وربما كان سبب هذا التناقض في فكره أنه لم تتهيأ له الفرصة الكافية لدراسة أصول فقـه الاسلام والتعـرف على مكنونات ودرر القرآن .

وهي تجـربة مـررنا بهـا من قبل . فقـد كنا على شفـا حفرة من النـار . . . ثم كانت بـداية الهـداية حيث لفـظنا جـانب الماركسيـة الفلسفي وتمسكنا ببقية أصولها . وحيث كنـا نؤمن بمحمد صلوات الله عليه وسلامه نبياً وهـادياً ، وبلينين دليـلاً في متاهـات السياسـة ومـرشدا . ثم كـان تمامُ فضـل الله وكمـالـه ان ازال عن أبصـارنـا الغِشاوة ، وصرف عنا الغوايـة ، وبيَّن لنا طـريق الهدايـة، الذي لا يعرف تعايشاً بين كفر وايمان ، ولا يقر تسامحاً بين دين والحاد .

الأيام :
العدد ١٠٢٧١
التاريخ ١٢ من جماد الثاني ١٤٠١ هـ
الموافق ١٧ من ابريل ١٩٨١ م

عندما هددني عبد الناصر بالسجن

ونعود للشباب وذكرياته وقد طوينا ثوبه كقول بشار بن برد . . . ونقف عند الرابع والعشرين من ابريل **١٩٥١** الذي مضى عليه اليوم ثلاثون عاما بالكمال والتمام . . . وكنا شلة من الرفاق السودانيين الذين يدرسون بالسنين النهائية بكليات جامعة فؤاد الاول بالقاهرة وقد استأجرنا حجرتين صغيرتين في حديقة احدى العمارات التي تطل على نيل منيل الروضة ، وكانت الحجرتان قد أعدتا أصلا لسكن خفير العمارة ولحفظ غذاء البط والديوك الرومية التي كانت تعج بها الحديقة وتزخر .

ولكن الخفير ، وكان نوبيا من جنوب مصر ، آثر ان يستفيد من ايجار الغرفتين فاستأذن صاحب العمارة السماح بمشاركتنا له السكن حيث ادعى أننا من أقاربه وان مدة اقامتنا رهينة بنهاية الامتحان الذي كان وشيكا . ولم يعترض المالك طالما أننا لا نسبب ضيقا لطيوره التي كانت لها فوائد غير مرئية بجانب منفعتها الغذائية له ولاسرته . فقد كانت تدخل عليه البهجة والمسرة صباح كل يوم ليس بجمالها وزينتها وبرواحها وغدوها فحسب وانما لأسباب اخرى منها أن

الديوك تشبه شكلاً ومشية وخيلاء ، والبط يثير شجونه وكوامن نفسه اذ يذكره بشبابه الـذي ولّى . فقد حبـا إلله ذلك الـطير الـذي يشبه عضوه التناسلي مزجا فـريدا من أجهـزة الرجـال والكلاب والتيـوس بطاقة جنسية فائقـة وبشبق دائم ونشاط عـارم وهو لا يبـدأ يومـه الا بالجماع الذي يقبل عليه بحماس دافع تدل عليه حالة الانهاك التي تصيب الذكر بعد الفراغ من المهمة التي يحسده عليها البيك التركي صـاحب العمارة حيث لا بـد ان يقع الفحـل بعد ان ينـزل من ظهر الانثى التي لا تأبه لما يعتريه ولا تلتفت اليه . ويذهب البك صاحب العمارة لحاله أيضاً ولكن بعد أن يلعن النساء اللائي هن كرصيفاتهن من البط يرهقن الرجال ولا يأبهن لأمرهم بعد أن يقضين منهم وطرا .

وقد بدأ ذلك اليوم منذ ثلاثين عاما مثل بقية اخوانه الـذين سبقوه من أيام الربيع بمصر دافئـاً وصحواً وكنـاقد تفـرغنا قبله ببضعـة أيام للمذاكرة لتعويض ما فات من اهمال للدراسة ، حيث كان علينا أن نجلس في بداية الاسبوع الثالث من مايو الذي يليه لامتحان التخرج النهائي . وكان حرصنا على النجاح كبيرا اذ كنـا نمني النفس بحياة مقبلة هانئة سعيدة مدخلها مزاولة مهنة المحاماة بوضعها الاجتماعي المرموق وبدخلها الذي تسيل له اللعاب . وكانت الحياة في مصر قد ضاقت بنا وضقنا بها . فقد ارهقتنا ملاحقة البوليس ومطاردته لنا التي استمـرت وظلت تتصاعـد طيلة الاربع سنـوات التي قضيناهـا هناك خاصة اثر هزيمة حرب فلسطين النكراء وما تبعها من اغتيال النقراشي باشا وحكمدار القاهرة وردود فعلهما الـذي تمثل في اغتيـال مرشـد الاخوان الشيخ حسن البنا وغيره من الشهداء والابرياء .

وبجانب المواظبة على مذاكـرة الدروس والمثـابرة حـرصنا على

الابتعـاد عن أعين أجهزة الأمن حيث جـرت عادتهم على اعتقـالنـا اعتقالاً تحفظياً قبل عدة أيام أو أسـابيع من ذكـرى أحداث سيـاسية معينة منها ذكرى أول مايو الذي كنا نهتم به اهتماما خاصا بوصفه عيد الـطبقـة التي يؤلهها الشيـوعيـون لفـظاً ويكيلون لهـا الثنـاء قـولا ويستغلونها فعلا . . . وقد كنا مثل بقية الرفاق بالجهالة ننعم .

ولكن بالرغم من التزامنا الحيطة والحذر فقد غلبت علينا شِقـوتَنا في ذلك اليوم اذ دعونا بعض الاصدقاء والـزملاء السـودانيين لتناول الملوخية الملوكية بدارنا العامرة توطئة للذهاب سويـا لتشجيع أحـد الفرق الرياضية السودانية لكرة القدم ، والذي كان في زيارة لمصر ، في منازلته لفريق الترسانة المصري الذي كان يضم ثلاثة من عتاولة الكرة السودانية هم النور بله وحمدتو وعبد الخير .

ولعل الذي أذهب عنا الحذر ، ومهد لنفاذ القدر، الظن بأننا قـد أفلحنا في مداراة رجال البوليس وخـداعهم اذ لم يكن قد بقي على احتفالات عيد أول مايو غير ستة أيـام فقط ولم نتشرف بعـد بزيـارة فرسان الليل من أتباع الصاغ حلاوة واعـوان اليوزبـاشي المنياوي . وكان هذان الضابطان قد تخصصا في مـداهمة بيـوت السودان وفي مراقبة نشاط الشيوعيين السودانيين .

ولكن ما أن فرغنا من تناول الطعام حتى داهمنا طوفان من رجال الأمن بقيادة اليوزباشي المنياوي كما داهم الطوفان أخاً لنـا من قبل كان ظنه أن الجبـل يعصمه من المـاء كما كـان ظننا ان اقـامتنا بين ظهراني الديوك الرومية والبط ستعصمنا من زباينة الأمن وتصرف عنا أعين رجاله . . . ولكن لا عاصم من أمر الله فقد كنا نحن وابن نوح نعمل عملاً غير صالح .

وطوقت قوات الأمن المنطقة واحاطت بالحديقة وبعثرت ما فيها حتى بعض أرضها لم تسلم من الحفر بحثا عن المحظورات الشيوعية . . . وكانت حصيلتهم بالفعل كبيرة . فقد كانت هناك اطارات عربات قديمة ملأنا بطونها واجوافها حتى الثمالة بالمنشورات بعد ان أحكمنا سدادها واجرينا عليها لمسات ورتوش خدعة للناظرين . . . ولكن فات علينا ان المنياوي رجل متمرس وان باعه طويل وان له عينين كعيني صقر الجديان .

وزج بنا في رتل من السيارات وكان عددنا كبيرا اذ بجانبنا وضيوفنا الكرام كان هناك نفر من الطلاب السودانيين يسكنون بالقرب من نزلنا أصابهم ما أصابنا ثم كان هناك غيرهم في طريقهم الى مشاهدة المباراة وكانوا قد عبروا لتوهم النهر بالمركب الشراعي الذي يربط فم الخليج بمنيل الروضة وقد استوقفهم البوليس اذ كان الظن انهم قادمون لزيارتنا فقد كانت العمارة التي نسكن في حرمها تطل على المرسي الذي منه تبدأ المركب الشراعي مجراها ، غدوها ورواحها .

وفتحت ابواب سجن مصر وقال لنا خزنتها كما قال فرعون لموسى ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنينا ، وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين . . . وقد كنا بالفعل ، ولا نزال ، كافرين بأنعم الملك وباشواته وسدنة عهده وشاكرين أفضال مصر وشعبها .

وطلعت الصحف المسائية وتلتها صحف الصباح تحمل انباء اكتشاف اكبر وكر شيوعي في تاريخ البلاد واعتقال قادة الحركة الشيوعية من السودانيين . وعربدت صحف اولاد أمين ونسجت

القصص الخيالية عن الكيفية التي تم بها القبض علينا وعن مراقبة البوليس لنشاطنا . . .

وتوالت أيامنا بالسجن وأخذونا بعد انقضاء اليوم السابع الى المحكمة ومثلنا امام قاضي المعارض الذي كان عليه ان يقرر هل يستمر حبسنا أو يطلق سراحنا بالكفالة والضمان لحين الفصل في موضوع الدعوى وترافع المحامون واطلق سراح بعضنا . وبعدها باسبوع آخر مثلنا امام قاضي آخر وافرج عن آخرين وتكررت القصة مرة ثالثة وبقيت قلة منا . وكان ممثل النيابة والاتهام يركز علينا تركيزا شديدا ورجعنا الى السجن . . . وانقضى الاسبوع وبقي على الامتحان النهائي بضعة ايام وكان واضحا ألا أمل في الافراج عنا وتوجهنا الى المحكمة وهمس في أذني قرين حرص ألا يسمعه الآخرون وقال أئنك لمن المصدقين اننا لخارجون من هذا السجن اللعين . . . وقررتُ أمراً وطلبت من الرفاق رفض فك القيود التي كانت على أيادينا وان نمثل امام القاضي ونحن مكبلون بها . وطلبت من رئيس هيئة الدفاع وكان الأخ الكريم المغفور له يوسف حلمي المحامي ان يترك لي أمر المرافعة عن نفسي وعن بقية زملائي وكانت دهشته عظيمة ، واعتراضه شديدا . حيث أنه وزملاءه ، الذين تطوعوا للدفاع عنا ، أقدر بداهة مني أنا الذي لمّا أزل طالبا . وقد أوجس بعض الرفاق خيفة ولكن امام اصراري قبلوا مكرهين .

ومثلنا امام المحكمة وغضب القاضي غضبة مضرية اذ ظن أن ادارة السجن هي التي أصرت على ان نمثل امامه مكبلين بالحديد ولم تجدِ اعتذارات وكيل النيابة الذي كانت اوراقه قد شغلته عن ملاحظة القيود عند دخولنا .

وقبل أن يأذن القاضي للمحامين للترافع وتقديم طلبات الافراج ، تقدمتُ أنا وتصديت للمرافعة وقبل ان يتساءل القاضي وكان رجلا كبيرا في السن بدأت المرافعة وقلت كلاماً أشبه بكلام « الطير في الباقير » لا معنى له ولا مبنى ولا ترابط بين جملة ولا حتى كلماته . وكانت الكلمات تخرج من فمي سريعة كالطلقات حتى لا يفهم المستمع ما أقول . وحرصت على ان يكون كلامي منظوماً ومسجوعاً . وقد استعنت بحصيلتي من الأغاني السودانية التي كانت سائدة في تلك السنين . . . ومن أمثلة الكلام الفارغ الذي كنت أردده قولي : « إننا أيها القاضي ، قد حضرنا لمصر من فاس الماوراها ناس ومن كسلا حيث القاش وحيث الأحباش والتي هي بعيدة يا ناس . »

وكان القاضي يعجب لأمري ويقاطعني « ما هذا وماذا يقول ؟ » وانا مستمر في هذياني وكلامي الفارغ . واخيراً توجه الي وكيل النيابة مخاطباً : « ألا زلت مصرا على ترديد اتهامات رجال البوليس السياسي عن هؤلاء الهُبل البُله . هل يمكن ان يكون مثل هذا عضوا باللجنة المركزية للحزب الشيوعي كما يدعي الاتهام . انهم مجرد اولاد سذج ربما غرر بهم بعض الشيوعيين ولكن مثلهم لا يقدم ولا يؤخر . لقد قررت اطلاق سراحهم جميعا وبالضمان وفورا » .

وتقبلتُ التهاني وكان على رأس المهنئين المرحوم يوسف حلمي الذي شهد بكفاءتي كمحام وكمهرج أيضا .

وتوالت السنين وصرتُ وزيرا وكنت في حضرة الرئيس عبد الناصر ، وكان حبل الود بيننا متصلا ، وكعادة اخواننا المصريين تساءل عن أية خدمة ؟ والتمستُ ان يأمر المنياوي أو حلاوة وكان كل

منهما قد ترقى الى رتبة اللواء شرطة ان يسلماني بعض الأوراق التي كان البوليس قد تحصل عليها عند تفتّيش الحديقة التي كنا نقيم بها وكانت تلك الاوراق عبارة عن ترجمة لكتاب « النجمة الحمراء فوق الصين » لمؤلفه الكاتب الامريكي ادجارسنوكنت قد قمت بها في عام ١٩٥٠ هدية الى قراء العربية بمناسبة تأسيس الدولة الجديدة في الصين الشعبية . . . وضحك عبد الناصر وقال مازحا « كله الا كده واذا ما أصريت على طلبك فسنلقي عليك القبض اذ ان الدعوى الجنائية ضدك لازالت قائمة حيث أنه قد أُطلق سراحك بالضمان فقط ، وحيث ان الدعوى لم تسقط بعد بالتقادم ، ولن يشفع لك أنك قد صرت وزيرا » .

ولعل أدب الرجل منعه من أن يسترسل ويضيف وفي غفلة من الزمان . . .

الأيام :
العدد ١٠٢٧٧
التاريخ ١٩ جمادي الثاني ١٤٠١ هـ
الموافق ٢٤ من ابريل ١٩٨١ م

الى الرفاق والحواريين
وجادلهم بالتي هي أحسن

ـ ١ ـ

احتفلت الأحزاب الشيوعية في الاسبوع الماضي وبالتحديد في الثاني والعشرين من أبريل بالعيد الحادي عشر بعد المائة لميلاد فلاديمير ايلتش لينين زعيم الحزب الشيوعي البلشفي ومؤسس الدولة السوفيتية . وقد أصبح الاحتفال بتلك الذكرى تقليدا سنويا تحرص عليه تلك الأحزاب ، فالرجل في نظر حوارييه عملاق لا يتطاول الى مقامه ابن انثى وان طال الزمن .

ولعل الكثيرين يذكرون الضجة الهائلة والمهرجانات الصاخبة والاحتفالات الفخمة التي اقامتها الأحزاب الشيوعية في روسيا واوروبا الشرقية في ابريل من عام ١٩٧٠ بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد الرجل . ولم تكن تلك الاحتفالات وقفا على الاحزاب الشيوعية الحاكمة وحدها بل أسهمت فيها كل الاحزاب الشيوعية كبيرها وصغيرها ، ولم يكن الحزب الشيوعي السوداني استثناء منها بل ربما كان من اكثرها إهتماما بأمرها فقد وجهت لجنته المركزية في دورة انعقادها في أغسطس من عام ١٩٦٩ ، أي قبل حلول موعد الذكرى بأكثر من سبعة أشهر ، بالاحتفال بها احتفالا يليق بمقام نبي

الشيوعية ويناسب مكانة حزبها الذي تشبهت قمة قيادته بالضفدعة التي ظنت انها قادرة على شرب البحر كله فشربت وشربت حتى انتفخت بطنها ثم انفجرت .

واتخذت اللجنة عدة قرارات منها الاشتراك في الندوة التي أتفق على انعقادها بموسكو في اكتوبر من عام ١٩٦٩ والتي سميت « بسمنار لينين وحركة التحرر الوطني » وتم بالفعل اشتراك الحزب فيها وقدم مندوبه خطابا ضافيا قوبل بالحماس والاستحسان اللذين يليقان بحزبه الذي زعم انه هو الذي فجر ثورة السودان بعد أن كان قائده قد تنصل من تبعتها في ايامها الاوائل ووصفها بأنها مجرد انقلاب لن يكتب له البقاء . ومنها الدعوة لتكثيف النشاط الايدولوجي بهدف التوسع في نشر الأفكار الشيوعية التي فتحت ثورة مايو آفاقا جديدة لازدهارها ، ومنها ايضا تنظيم احتفالات جماهيرية واسعة تعد لها تنظيمات الحزب العلنية والفئوية والمهنية والنقابية ، ليس ذلك فحسب بل قررت مطالبة الحكومة - حكومة السودان وليست حكومة موسكو أو بكين - باصدار طابع بريد بتلك المناسبة الفريدة .

وحلت الذكرى « الشريفة » . . . وارتفعت الاعلام الحمراء في بعض المنازل وفي دور بعض النقابات التي لم يسبق لها أن رفعت علم البلاد حتى بمناسبة ذكرى الاستقلال . وتبادل الرفاق التهاني وعقدوا الندوات وعرضت بعض دور السينما افلاماً تمجد الذكرى ، وتحكى عن البطولات والمعجزات والمنجزات ، بطولات ناتاشا ومعجزات ايفان ومنجزات الرفاق والرفيقات .

وبدل أن تكون ذكرى لينين حافزا للتفكير الرصين، ولتدبر الأمر

ولمراجعة المسار ، كانت وبالاً على الحزب الذي تملكه الغرور وظن بعض قادته انهم قادرون على الأنفراد بالسلطة في أرض السودان الواسعة والتي حسبوا أنها أيضا هاملة .

ولكن ان كان من اولئك الرفاق من اتخذ لينين الاهه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فان رحمة الله واسعة عسى ان تشمل اخرين فيرجع العقل ويعود السمع ويرتد البصر . . . وماذاك على الله بعسير .

ولو تفكرتم وتدبرتم وتابعتم ، أيها الرفاق والحواريون ، سيرة لينين ورفاقه البولشفيك الأولين ومن خلفهم من التابعين ، لتبين لكم ان الرجل وشيعته من السابقين واللاحقين لم يكونوا غير سياسيين مغامرين لا يبتغون غير السلطة وغير الحفاظ عليها . وانهم لا يختلفون عن الغابرين من رواد الثورة الفرنسية من اليعاقبة والجاكوبين الا من حيث ظرفي الزمان والمكان . فالشعارات متشابهة والسلوك يكاد يكون واحدا والتجاوزات هي نفس التجاوزات ، والتي تمثلت في القتل وسفك الدماء الذي شمل الابرياء بل وحتى الزعماء الذين كان لهم القدح المعلى والقدر الأوفى في تفجير الثورتين . . . وماروبسبير وتروتسكي الا اسماء نسوقها مثالا لا حصرا . وان أمثال اليعاقبة والبلاشفة كثيرون ممن زعموا أنهم اوتوا الحكمة وفصل الخطاب فملأوا الدنيا ضجيجا وصخبا حتى اذا ما ظنوا انهم عليها قادرون جاءهم بأس الله بياتاً أوهمُ قائلون ، فدالت دولتهم وذهب ريحهم وعفى اثرهم . . . والأرض لله يورثها من يشاء .

ولو تمعنتم وفحصتم ما يسمى بمأثورات لينين وتعمقتم في دراسة

مسلمات النظرية التي حملت اسمه ومن قبله اسم استاذه كارل ماركس لوضح لكم أنها شتات أفكار نادى بها السابقون من الاشتراكيين الفرنسيين والفلاسفة الالمان والاقتصاديون الانجليز .

وتعالوا ، أيها الرفاق الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن نُحكِّم العقل ، وان نتجنب التعصب الأعمى الذي يقود الى التهلكة والردى ، والذي لن يورث الا الندامة والشقاء . وليكن سبيلنا لاستقامة الفكر المجادلة بالتي هي أحسن ، ووسيلتنا الى الهداية الكلمة الطيبة .

ويهمنا في البداية مخاطبة الشباب من بينكم الذين أُخفيت على كثير منهم الاخطاء وبعض أحداث التاريخ ووقائع الحياة . والذين جذبتهم الشعارات البراقة والتحليلات التي تكذبها التجارب والممارسة والمعاناة .

ونبادر ونعترف بأخطائنا وتنكبنا الطريق السوي . . . ولكن كانت لنا أسبابنا التي جعلتنا نمشي مكبين على وجوهنا دون هدى ، رغم تطاولنا وادعائنا أننا كنا وحدنا دون غيرنا من السياسيين نسترشد بالنظرية التي تنير الطريق حتى للأعمى . والتي جعلتنا نتمسك بالعروة الوثقى مع الدولة العظمى ، التي كان ظننا أنها نصيرة الكادحين والمستضعفين وحامية الحِمى .

ولا نسوق تلك الأسباب ولا نعددها الا لنبين أن السُحب التي حجبت عن كثير من ابناء جيلنا الحقيقة فترة طويلة لم تعد ماثلة أو قائمة ، وانها لم تكن في الأصل أسبابا مقنعة ، وان كانت قد بدت لنا وقتها كمسوغات لها حجية مطلقة . . . وعليه فليس ثمة مسوغ يبرر الثقة المطلقة في الاتحاد السوفيتي كما كان شأننا ، ولم يعد

هناك من تبرير يسوغ التعصب الاعمى للماركسية بـوصفها النـظرية الشمولية الكاملة ، ولا لمسلماتها التي كان الظن أنها براء من الباطل ومعصومة من الخطأ .

وأول الحقائق الكبرى التي جعلتنا نرنو بأبصارنا نحو روسيا ، أننا نشـأنا تحت ظـل القهر الاستعمـاري البريـطاني وذقنا مـرارة كأسـه المترعة . وكان طبيعيا ان نتعاطف مع الدول التي تناصب بريطانيـا العظمى العداء . وكان تعلقنا في البداية بهتلر رغم ما كان يقال عن هـوسه ورجسـه ، وبالـرغم من أحلامـه التوسعيـة واحتقـاره للسـود والملونين أمثالنا . وكنا نسفه ونكذب ما يقال عن تجاوزاته التي فاقت في قسوتها ما قرأنا عن أفعال هولاكو ودراكولا .

وانهـزمت دول المحور ، ومـات هتلر ، وكادت أن تمـوت معـه تطلعاتنا للتحرر وتحقيق الجلاء . وتمادت بريطانيا المنتصرة في غيها وصلفها فقد أعلنت في سنة ١٩٤٦ على لسان الحاكم العام الجنرال هدلستون أن ادارة السودان ستعمل على تـأهيل السـودانيين للحكم الذاتي بعد عشرين عاما ، وكان الظن قبلها ان الانجليـز لا يخلفون ميعادا . وهم الذين كانوا قد وعدوا في عام ١٩٤٢ باعطاء الشعوب الحق في تقرير مصيرها بعد نهاية الحرب وضمنـوا ذلك الـوعد في الميثاق الذي عـرف باسم ميثـاق الاطلنطي واكـدوا الالتزام بـه في كازبلانكا وكرروا القول به في اجتماع يالتا .

ولكن فإن انهزمت المانيا فقد انتصرت روسيا . وتلفتنا حولنا ولم نجـد غيرهـا وكانت هي أقـدر من الآخرين على الـدعـايـة لفسهـا ولمبادئها وقد كثفت من أمرها بعد ان بدأت الأزمات تتصـاعد بينهـا وبين دول الغرب وخاصة مع بـريطانيـا منذ اجتمـاع بوتسـدام الذي

طوى سجل التحالف الذي أملته ضرورات الحرب ضد المحور . وقد بهرتنا الدعاية السوفيتية التي تمثلت في البرامج الاذاعية التي كانت تبث صباح مساء والتي لم يستطع مجاراتها أو التشويش عليها الحلفاء . وفي الافلام التي كانت تُزّين الحياة في روسيا وتعرض علناً في دور السينما .

واستغل الاتحاد السوفيتي منابر هيئة الامم المتحدة التي كانت وليداً يافعا تجذب الأنظار ويتابع الناس مداولاتها ويهتمون بما يدور في اروقتها . وصال جروميكو وجال فشنسكي ورفاقهما وشنوا حرباً كلامية على الاستعمار لا هواده فيها ولا مزايدة . وكنا نطرب لما نقرأ ونسمع ، وقد سعدنا أيما سعادة بموقف المندوب السوفيتي من قضية السودان في عام ١٩٤٧ عندما ذهب وفد السودان الى ليك سكس لحضور جلسة الجمعية العمومية التي دعى لعقدها رئيس وزراء مصر محمود فهمي النقراشي باشا حيث نادى ممثل موسكو بحق الشعب السوداني في تقرير مصيره .

وفي الواقع فان الاتحاد السوفيتي كان قد بدأ في تكثيف حملته الدعائية منذ بداية دخوله الحرب في اوائل الاربعينات وكانت له أجهزة متعددة ، متفرغة ومتخصصة ، بمالا مثيل لها في دول الغرب وعلى رأسها تنظيم الدولية الثالثة المسمى بالكومنترن . وبعد ان حل ذلك التنظيم عربونا لصداقة الحلفاء ومظهرا ، حل محله الكومنغورم أو مكتب الاستعلامات الشيوعي وكان من مهامه بث الدعاية للاتحاد السوفيتي ولبلاد الاشتراكية والديمقراطية الجديدة التي تم تحريرها من النازيين حديثا . وقد ساعد الحصار الذي فرضه ستالين على روسيا ومنذ وفاة لينين في عام ١٩٢٤ على عدم تبين حقيقة ما يجري

داخلها من تجاوزات وانتهاكات لحقوق الافراد والجماعات ، ومن اعدامات لمؤسسي الجيش الأحمر من كبار الضباط ، ومن تصفيات جسدية للخصوم السياسيين وحتى للرفاق والرفيقات الذين كانوا ضحية الواشين والوشاه اللذين كانت لهم سوق رائجة وتجارة رابحة على عهد الطاغية . وعلى عكس حقيقة الحال ونقيضه كانت أجهزة الدعاية السوفيتية تصور روسيا بأنها جنة الله في الأرض ، حيث دولة العلم والمساواة والعدل ، وحيث ترفرف رايات السلام وتظلل مختلف الشعوب التي كانت حتى الأمس القريب وقبيل ثورة اكتوبر الشيوعية الكبرى تئن مثلنا تحت الحكم الاستبدادي وتشكو من القهر القومي والتميز العنصري .

ولم تقتصر أجهزة الدعاية للاتحاد السوفيتي على الوسائل التقليدية من مذياع وتلفاز وسينما وصحف بل كان هناك الرسل والحواريون . وكانت هناك الاحزاب الشيوعية التي تدعو سرا وعلانية وبكل الوسائل والسبل لتطبيق الشيوعية والى سيادة أفكارها . وكانت هناك أيضا الماركسية ببريقها الذي يخطف البصر ، ويلفت النظر ، ويسلب العقل . وكانت المكتبة العربية خلوا من الكتب التي تصارع مادية الماركسية وكفرها اللهم الا كتابا واحدا ظهر بعد ذلك بسنين هو معالم الطريق لسيد قطب . وكان هذا وأخوه محمد رائدين من رواد الفكر الاسلامي في مصر فقد بادرا بالتصدي لكفر الماركسية والحادها . وكانت أغلبية العلماء الدينيين وائمة المساجد من السلفيين التي شغلتهم قضايا ممارسات البنوك الربوية ، والسفور والتعليم المختلط ، والسينما ، بوصف بعضها بدعاً مستحدثة تجب مقاطعتها ، عن الانتباه لخطر الأفكار الماركسية الذي بدأ يطرق الابواب مع دخول روسيا للحرب والذي تغاضى الحلفاء طيلة قيامها

عن محاصرته ، وغضوا الطرف عن محاربته ، بل كان هناك من أئمة المساجد من يدعو الله في خطبة الجمعة لنصرة أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد الذي كان قد توسد الثرى ومات وشبع موتا .

وهكذا كانت الظروف حولنا . . . وكنا شبابا يملأ الحماس قلوبنا . وتدير الشعارات المنمقة رؤوسنا . والتعابير الثورية المستحدثة تخلب لبنا . والقصص المثيرة عن روسيا وعن البلشفيك وعن لينين ورفيق نضاله ستالين تلهب مشاعرنا .

والتقينا في الجامعة مع ابناء شعوب جريحة مثلنا ، من مصريين وفلسطينيين وأردنيين وعراقيين ويهود ، ولم نتردد في الانضمام للحزب الذي جذبونا اليه وسرعان ما صرنا مثلهم نسبح بحمد روسيا صباح مساء . ونردد دون تبصر مأثورات ماركس وانجلز ولينين وستالين كما يردد الببغاء قول السابلة والغافلين الابرياء . ولم يكن في الجامعة تنظيم يضاهي الحزب الشيوعي فكرا وقولا ، ولا يبزه اثارة وبذلا ، فأحزاب الوفد والسعديين والدستوريين والوطنيين كانوا تبعا لباشوات مصر وسدنة عهدها وللفاروق المفدي ، الذي ظلم وطغى . وكان يمكن ان يكون تنظيم الاخوان المسلمين لنا بديلا ، لولا انه كان يتعاون مع السراي عندما وطئت أقدامنا أرض مصر في اوائل عام ١٩٤٧ . ولعله أراد أن يحتمي بها حتى يقوى ساعده ويستقلظ عوده ، وقد كان هذا بالفعل شأنه فقد انقلب على الملك واحزابه وحاربهم حربا ضروسا لا هوادة فيها بعد هزيمة فلسطين وبعد ان اشتد وقوى تنظيمه السري وتوسعت قاعدته الشعبية نتيجة تضحيات وجسارة افراده الذين قاتلوا واستشهدوا في فلسطين . . . ولعلنا لو كنا قدمنا مصر في ذلك الوقت لكنا قد انضممنا الى

صفوفهم فقد كانت عمليات الارهاب والعنف تستهوي عقولنا وتلهب مشاعرنا ، ولكنا كنا قد قطعنا في الطريق لآخر شوطا بعيدا فأصبحنا لا نرى للماركسية فكراً نـدا ، ولا لموسكـو قرينـاً أو شبيها . وكـان العشب الاشتراكي والكلأ خير لنا من أرز الرأسماليـة كقول الـرفاق الصينيين على عهـد الوثبـة الكبرى ، التي كـانت هي في حقيقتهـا سقـطة كبـرى . ولم نكن نـدري أن الايـام ستكشف المستـور ومـا خفى ، ولم يكن قـد تبين لنا ان مـوسكو ليست دارنـا كمـا لم يكن الكرخ داراً لأبي العلاء :

فـيـا بـرق لـيس الـكـرخ داري وانـمـا
رمـانـي الـيـه الـدهـر مـنـذ لـيـالـي

ولم نكن نظن أننا سنقول في الصنم الذي عبدناه دهرا كما قالت زوجة الصحابي أبي ذر :

فـمـا عـبـد الـحـجـارة غـيـر غـلـوٍ
وكـيـك الـعـقـلُ لـيس بـأي لـب

ونثق أن منكم ، أيها الشباب ، من سيدرك كما أدركنـا مؤخرا ، ان الكرخ ليس بداره ، وان منكم من سينبذ الصنم كما نبـذناه منـذ عقـد من الزمـان مضى ، وكما لفـظه الصحابي الجليـل عمـرو بن الجمـوح من قبلنا وقـال فيه شعـرا صـار مثـلا . . . والى لقـاء مـرة أخرى .

صحيفة الأيام :
العدد ١٠٢٨٠
التاريخ ٢٤ جمادي الثاني ١٤٥١ هـ
الموافق ٢٩ ابريل ١٩٨١ م

الى الرفاق والحواريين
وجادلهم بالتي هي أحسن

ـ ٢ ـ

ونواصل ما انقطع من حديث الصفاء . . . والكلمة مازالت موجهة اليكم أيها الشبان الاعـزاء . . . وكنا قـد وقفنا عنـد بعض الاسباب التي جعلتنا نتعلق بالاتحاد السوفيتي ونثق به ثقة جاهلة عمياء . . . ولا حاجة بنا أن نرددها مرة أخرى . . . والسؤال اذا كان ذلك شأننا نحن الجيل الذي تبوأ الدار من قبلكم فما عذر من يتعلق به الآن وقد ظهر الحق وبان الأمر وانجلى ، فالاستعمار قد ذهب من حيث أتى . ولن تفلح أبواق روسيا في اثارة هواجسنا بالقول انه انما يتخذ صورا واشكالا شتى ، وانه قد اضطر للتكيف مع الظروف ولم يفعـل شيئا غيـر تغيير ثـوبه الـذي أصابـه البلى ، وانه قـد ارتدى ثـوبا جـديدا زاهيـا . . . ولعله قد فـات على الرفـاق ان الشعـوب قـد شبت عن الطوق وما عدنا قصرا سذجا ، تنطلي علينا الحيل والاحابيل والافك القديم ، ويذهب عقلنا القول الهـراء . وقد خبـرنا على مـدى ربع القرن الذي مضى مختلف انواع الحكومات وأنظمـة الحكم ولـم نر استعمارا قديماً أو حديثـاً قد تسلل ليعـود بنا القهقـري ، أو استعاد أرضا كان قـد فقدهـا منذ أن طـار وولى ، بل على نقيض ذلـك قد

شهـدنا مصـرع أمم على أيدي الـرفاق الحمـر الذين طـاش عقلهم وغرهم بالله الغرور ، فجاثوا خلال الـديار واصـابوا الأرض بـالبوار والثبور .

ولم تعد الماركسية وحدها فارسـة الساحـة والحلبة ، فقـد فاض السوق وامتلأ بالكتب التي تفند مسلماتها القاصرة الفجة ، وبالـدرر التي تهـزمها فكـرا وحجة وتحمـل العلم النافـع والمعرفـة الحقة . وانقـرض السلفيون من الأئمـة ، الذين كـانـوا يـدعـون في خـطبـة الجمعة ، للخليفة النابه ذي الشـوكة والمنعـة المحفوف بعنـاية الله المبـدىء المعيد مـولانـا السلطان الغـازي عبـد الحميـد . واعتلى المنصة العلماء أصحاب الهمة ، أمثال الشعراوي الذي يتحفنا مساء كل اربعاء وجمعة ، وغيره من الفقهاء ذوي الرأي السديد . وصـار المذياع والتلفاز والكاسيت يقدمون لنا كل يوم الجديد ، الذي غاب عنا من مكنونات القرآن المجيد .

ولكن ربمـا احتـاج الأمـر للمـزيـد من الحـديث عن الاتحـاد السوفيتي ، لنفسد أثر دعايته المقتدرة ، ولنفضح إفكه القـديم حتى يستبين الطريق المستقيم .

وقد توالت علينا الايام واحداث الزمن ، وابتدأ الغطاء ينزاح رويداً رويداً عن جسم الوثن ، حتى وضحت الصورة تماما فتعرى الصنم . وكانت البداية اكتوبر من عام **١٩٦٢** عندما هدد خروشوف وزمجر . وأرسل الصواريخ لكوبا عبر البحر . ولكن سرعان ما تراجع عنـدما رأى وجه كندي المكفهر ، وعاد الى قـواعده كـالرخم . وكنـا قبلها نحسبه ، كوصف الشاعر ، ليث كتيبة في المزدحم . وتبارت الابواق وأجهزة الدعـاية الشيـوعية في تصـوير الأمـر على انه انتصـار لقوى

السلام ، ولحزب لينين الذي لا يضام . وكان نيكيتا قد تمادى قبلها في غيه وسدر . وكان مثالا للصفاقة والجلافة التي دعته يوماً ان يدق على منضدة هيئة الامم بحذائه المفتخر .

ولم تمضِ سنتان الا وقد أطيح بالرجل ، الذي كانوا يلقبونه بالعبقري البطل ، فارس الأمل . ونسيتْ تلك الابواق أو تناست ما كانت تردده عنه من قبل ، وقالت انه مغامر كاد ان يقود العالم الى الهاوية والى أتون الحرب . وكان هذا شأنهم ودأبهم مع كل ثور يُذبح أو يقع . . . ورغم كل ذلك وغيره ظللنا نتمسك بالاتحاد السوفيتي ونُعزِّى النفس بأنه إنما فعل ما فعل ، حرصاً على السلم وحياة البشر .

وتجيىء هزيمة مصر في منتصف عام ١٩٦٧ . وكان يمكن أن تكون بالنسبة لتعلقنا بالروس قاصمة الظهر . فقد كانوا هم الذين دفعوا ناصر في البداية للحرب وللخطر . ثم كان تراجعهم عن مساندته بعد ان خاض غمارها وركب المركب الصعب . بل ان سفيرهم في القاهرة كان اول من ثبط الهمم ، وطرق باب الرجل ليطلب منه وقف الحرب وقبول شروط العدو المنتصر . . . ومرة أخرى تنشط أجهزة الاعلام السوفيتية وترمى باللائمة على المقاتل المصري وروحه المعنوية وتصفه بالجبن والخور .

وتمر الايام لتفضح الكذبة الكبرى ، فقد كان ذلك المقاتل هو نفسه الذي حقق المعجزة في رمضان الأغر ، اذ عبر البحر الاحمر ، ودك حصون خط بارليف وانتصر .

وبعد شهور من هزيمة العرب في الجولان وسيناء ، احتلت روسيا تشيكوسلوفاكيا وصدقنا ، ويا للغباء ، الزعم بأن ضرورة الحفاظ

على النظام الشيوعي من الاعداء هي التي دعت الى الغزو الرفاقي . ولم يكن العدو المزعوم غير حفنة من الرفاق ورئيس الوزراء الذين لم يغتصبوا الحكم وانما تولّوا المسئولية برغبة أغلبية عضوية الحزب والزملاء . وقبلها بعقد من الزمان قالوا مثل ذلك تبريراً لاحتلال هنغاريا ولدخول قواتهم لالمانيا . . . ويقولون لنا هذه المرة إن الضرورات تبيح المحظورات . وكنا نتهرب من الاسئلة المفحمة ، بالهجوم على امريكا وعلى حربها الغذرة في جنوب شرق آسيا ، ونعيد للأذهان تدخلها السافر في الدومينكان ولبنان ، وتأييدها للأنظمة الرجعية في امريكا اللاتينية وفي أفريقيا وفي البلاد العربية .

ولكن بالرغم من دفاعنا الأعوج عن مواقف الاتحاد السوفيتي المتردية فقد بدأ العقل يصحو الى ان جاءت الطامة الكبرى في عام ١٩٧١ متمثله في محاولة انقلاب رفاق السودان الفاشلة ، فبدأ الصنم عاريا .

وان كنتم ، أيها الشبان الأعزاء ، لم تعايشوا ، زماناً ، أحداث المانيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا فانكم اليوم تعايشون أحداث بولندا وافغانستان وكمبوديا .

وقصة بولندا مع روسيا قصة قديمة ولعلها تفضح أكثر من غيرها حقيقة الأطماع الاستعمارية السوفيتية والتي تثبت أن النظام السوفيتي لا يختلف كثيرا عن النظام القيصري الذي سبقه من حيث الرغبة في التوسع في أراضي الغير رغم الزعم والادعاء بأن السلطة السوفيتية بطبيعة تكوينها الطبقي ونظرتها الأممية لا تفرخ أطماعا ، ولا تسمح باضطهاد شعب واحتلال اراضيه . وقد ظل الشعب البولندي في صراع مرير وغير متكافىء مع القيصر ومع النظام الذي خلفه . ولعل

أكبر مأساة حلت به كانت يوم أن وقع فون روبنتروب وزير خارجية الرايخ الثالث مع ظهيره الرفيق مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي في اليوم الثالث والعشرين من أغسطس **١٩٣٩** اتفاقية عدم اعتداء ، تقاسما بمقتضاها بولندا الدولة المستقلة ذات العلم وذات السيادة . وكانت حجة الروس القاصرة وتبريرهم الاعرج انهم انما فعلوا فعلتهم تلك حماية لجزء عزيز من أرض الجارة بولندا من غزو الماني بات وشيكا . . . وبالطبع لم تقنع الحجة احدا ولم يفلح الغزو السوفيتي في صد جحافل الالمان الذين اكتسحوا بولندا في بضعة ايام . ولم يكتفوا بذلك بل توغلوا في ارض روسيا نفسها حتى اصبحوا على أبواب موسكو . ولولا الشتاء الذي صد من قبل نابليون لجثى مارد الطين ولذاب واراح واستراح .

وليست بولندا وحدها التي تثبت اطماع الروس . فقد هجم السوفيت فجأة على الجارة فلندا وتوغلوا في اراضيها . ولكن بسالة الفلنديين وحنكة قائدهم الجنرال ما ينهايم أفسدت تخطيط الروس واحلامهم في ضم اراضي فلندا الى جمهوريات الاتحاد السوفيتي كما فعلوا من بعد مع ليتوانيا ولاتفيا . . . ومرة اخرى تسارع الدعاية السوفيتية لتعيد على مسامع العالم قصة الحَمَل الوديع الذي هو الاتحاد السوفيتي مع الضبع اللعين الذي هو الشعب الفلندي الذي يقِّل تعداده عن عدد سكان مدينة موسكو والذي اراد ان يحرم الحمل من الحياة بمنعه من ورود الماء . . . ولله في خلقه ومقدره عباده على الكذب شئون .

ولعل قادة الكرملين قد ظنوا ان شعوب العالم كالشعوب السوفيتية نصفها مُدرك ولكن مغلوب على أمره ، والآخر مُضلَّل أو عنده

« قنابير » كما يقول أهلنا الطيبون .

وقصة بولندا بجانب كشفها لحقيقة اتجاهات الروس التوسعية فانها تفضح الكذبة الكبرى التي ظلت ترددها مختلف أجهزة الدعاية السوفيتية ومن سار على دربها عن اصالة الحياة في بلاد الاشتراكية وعن دكتاتورية البروليتاريا وعن الامتيازات التي ينعم بها العمال . وهي امتيازات أظهرت أحداث بولندا الاخيرة أنها تقل كثيرا عن بعض تلك التي يتمتع بها العمال في بعض بلاد العالم الثالث الذي يطلقون عليه اسم العالم المتخلف . ولعلنا لا نتجاوز الحق ان قلنا ان قانون المخدم والشخص المستخدم الذي صدر في عام **١٩٤٨** وابان الحكم الاستعماري في السودان يحقق مكاسب لازال العمال البولنديون بعد خمسة وثلاثين عاما من الحكم المنسوب اليهم يطالبون بمثلها .

والغريب في أمر الروس وأعوانهم من قادة الحزب الشيوعي البولندي جرأتهم على الحق وعلى الحقيقة فقد ظلوا يزعمون أن كل هذا الذي يحدث في بولندا مفتعل سببه الغرب . وبالأمس طالب سكرتير الحزب الشيوعي البولندي الرفيق كانيا ، دول الغرب بألا تزج بنفسها في شئون بولندا ، هذا في الوقت الذي يبعث بالرسل ومنهم نائب رئيس وزرائه لامريكا للحصول على مزيد من القروض والمساعدات التي جاوزت العشرين الف مليون دولار ، وفي الوقت الذي يطوف رفاقه دول أوروبا الغربية يستجدون تجميد دفع القروض المستحقة لمدة سنة أخرى .

ومن قبل كانت جرأة الروس الذين زعموا أن الامريكان يقفون وراء أحداث المانيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا مما اضطرهم هُم

للمبادرة بغزو الأقطار الثلاثة .

وبالأمس غزا الروس أفغانستان بعد أن عـدلوا قليـلا وحوروا في مسـوغات ذلـك الغزو ، فقـد قالـوا انهم قـد فعلوا ذلـك مكـرهين ومستجيبين لالتماس الرجل الأفاق الذي لم يكن في السلطة ، وانما جلبـوه معهم كما تجلب السـائمة ، وعـرضوه كمـا تعرض البهيمـة السـائبة . وقبـل ذلـك بشهـور قليلة ايـدوا خصمـه حفيظ الله أمين وباركوا استيلائه على السلطة ، وإطـاحته بحكم الـرفيق نور الـذي كانوا قد باركوا له ايضا إطاحته بحكم الرئيس داؤ ود الـذي كان قـد وثق بهم ومكنّهم من نفسه ومن بلاده فلم يبخلوا عليـه بالثنـاء . . . ويريد الـروس بعد كـل هذه السلسلة من التجـاوزات والانتهاكـات لسيادة البلاد الصديقة لهم ان يرموا باللائمة على دول الغرب وعلى مخربين مزعومين . . . وقديما قال اخواننا المصريون « اللي اختشوا ماتوا » .

ولا بد أيها الاعزاء من وقفة وقفنا مثلها منذ شهور . فالملاحظ ان اعتـداء الروس المسلح يكـون دائما على دول مجـاورة صـديقـة أو تابعة . ففلندا أمة تجاور الروس وتربطها بها أوثق الصلات التاريخية وكذلك بولندا ، وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية وكلها دول تابعة تدور في الفلك الروسي . وافغانستان ظلت صـديقة لـلاتحاد السـوفيتي منذ عهـد النظام الملكي فيهـا وتصاعـدت علاقتهـا به ، بداهة ، بعد اغتصاب الشيوعيين الافغان للسلطة .

ومهما حاول الروس فلن يفلحوا في اقناع الناس بأن نظام حفيظ الله الذي اطاح به كارمال كان نـظاما عميـلا لامريكـا يبطن العـداء للروس وانه بذلك ربما هدد الاتحاد السـوفيتي الذي يجـاوره . . .

ومرة أخرى تدور بخاطرنا قصة الحمل الوديع المفتري عليه . ومن قبل كان الشاه الذي يجاور الاتحاد السوفيتي ايضا وكان يجاهر بصداقته لامريكا بل منحها تسهيلات عسكرية تهدد روسيا تهديدا مباشرا ولكن هذه لم تحتل ايران كما فعلت مع افغانستان بل ظلت تتودد للرجل وها هي تفعل نفس الأمر مع الذين ورثوا الأرض من بعده . ومن قبل الشاه كان تيتو الذي شق عصا الطاعة على ستالين وقاد يوغسلافيا في طريق مستقل تماما عن موسكو وبعده شاوسيشكو الذي تبرم بسلطة الكرملين واهمل توجيهات حلف وارسو وسار برومانيا في الدرب الذي يحقق لها مصلحتها كما يراها هو ورفاقه لا كما يريد برجنيف وزمرته . . . ولم يجرأ الروس على غزوها كما فعلوا ببرلين الشرقية وبودابست وبراغ . . . ومن قديم كان من شيم اللئام عض اليد التي تحسن وتقبيل تلك التي تصفع .

وقبل افغانستان وقبل احتلالهم تشيكوسلوفاكيا ببضع سنين حاول الروس استذلال الصين التي كانت تبادلهم الود والاعجاب ولم يكتفوا بمعاهدات الصداقة والتحالف المبرمة معها بل طالبوا بالمزيد وكانت عنجيتهم وصلفهم هي التي قطعت الوشيحة والعروة التي كان الظن انها لن تنفصم . وقد تمادى الروس في عدائهم للصين للدرجة التي جعلتهم يحرضون فيتنام الدولة الصغيرة للتحرش بها وذلك باحتلال كمبوديا والاطاحة بالنظام الذي كان يعترف للصين بأفضالها على نضال شعوب جنوب شرق آسيا .

ومالنا نذهب بعيدا وأمامنا تجربتنا مع الروس وتجربة اخواننا الصوماليين . . . ولا نريد ان نعيد ذكر مأساة الروس في بلادنا ولكن لا بد من اتكاءة عند بعض الأحداث التي تظهر كذب الروس

ولؤمهم . فقد كانوا يؤكدون وفي كل المناسبات تأييدهم لسلطة مايو وانهم لا يرون لها بديلا تقدمياً . وقد أكد ذلك الرفيق بـرجنيف في مقابلته مع الرئيس نميري في موسكو في الرابـع من نوفمبـر ١٩٦٩ والتي رويت طرفا منها في مذكراتي التي تفضلت الايام الغراء بنشر مقتطفات منها . وقد أشار برجنيف انه لا يؤيد شخصا في السودان غير نميري وان الادعاءات التي ظل يرددها سكرتير الحزب الشيوعي السـوداني بأنـه قادر على سحب تـأييد مـوسكـو للنـظام القـائم في السـودان ان هي الا أكاذيب وتـرهات . وقـد ظل المسئـولون طيلة اقامتي بموسكو عندما كنت سفيرا معتمـدا لديهـا يؤكدون لي ذلـك وكذلك كـان حال سفيـرهم معي والذي كـان يكثر من التـردد على مكتبي بوزارتي الاقتصاد والتجـارة والصناعـة والتعدين وبمنـزلي بل اكثر من ذلك فقد بعثوا بأحد كبار رجال الحـزب والدولـة السوفيتيـة الرفيق كوزنتسوف للخرطوم ليسبر غور الخلاف الـذي ساد صفـوف الحزب الشيوعي وليجد الحل الذي يرأب الصدع . وبالفعل اجتمع الرجل مع الجانبين ولم يخف استهجانه لمسلك الرفاق الذين كانوا يعادون ثورة السودان وقد وصفهم بالمغامرة ولكن ما هي الا شهور الا وقد اتضحت حقيقة ارتباط السوفيت بالجناح المتشنج المغامر الذي حاول ان يستولي على السلطة والذي أقدم على مغامرة تفوق طاقتـه فانقصم ظهره كما انقصم ظهر عباس بن فرناس الذي ظن أنـه قادر على الطيران وعلى التحليق فوق رؤوس العباد . . . ونحن لا نتجنى بهذا الزعم على الاتحاد السوفيتي فقد أكد الرفيق ايليا زيركفيلوف ، ضابط المخابرات الروسية الذي كان يعمل بالخرطوم مراسلا لوكالة انباء تاس ، تورط الروس والرفيق كوزنتسيف في المغـامرة الفـاشلة وقد ورد ذلك ضمن اعترافاته التي أدلى بها الى التايمز اللندنية بعد

ان منـح حق اللجوء السيـاسي في بـريـطانيـا في ابـريـل من العـام المنصرم .

وثمـة موقف آخـر يبين مدى لؤم الـروس ، وامثالـه كثـر ، فهم أصحاب سوابق في هذا المضمار . وقد اخترت هذه التجربـة التي أذيع سرها لأول مرة لأثبت ان سلطة مايو وعلى رأسها الرئيس نميري لم تبادر الروس بالعداء كما يزعمون وكما يدعي الحواريون . . . فلا زلتُ أذكر تلك الليلة التي كنا نجلس فيهـا مع الـرئيس في منتصف الاسبوع الثالث من مايو عام ١٩٧١ وكنا نخبة من وزرائه ومستشاريه وتبـاحثنا حـول أنجع الـطرق لمعالجـة تجاوزات الحـزب الشيوعي السوداني الذي كان قد سفر في عدائـه للسلطة بل صـار يدعـو سرا وعلانية للاطاحـة بها ، وأشهـد الله ان الرئيس نميـري كانـا اكثرنـا حرصا على ألا نأخذ الناس بالشبهات ، وان نمد من حبل الصبر ، وان نبذل قصارى الجهد لرد الـرفاق الى صـوابهم . واذكر اني قـد اقترحت ان نتقدم بالدعـوة للرفيق بودقـورني رئيس مجلس الرئـاسة بالاتحاد السوفيتي الذي هو بمثابة رئيس الجمهورية ، لزيارة السودان وحضور احتفالات ذكرى ثورة مايو خاصة والرجل كان قد قـرر تلبية دعوة الرئيس السادات لزيـارة مصر في تلك الايـام . وراقت الفكرة للرئيس نميري الذي كان برجنيف قد طلب منه ابـان زيارتـه الاولى لموسكو ألا يتردد في ارسال الرسل لمقابلته في أي وقت يشـاء كما انه ، أي الزعيم السوفيتي ، لن يتردد في ارسـال ممثلين للخرطـوم متى ما استدعى الأمر ذلك وتلبية لاستدعاء الرئيس نميـري لأي من المسئولين الروس . وأشـار علينا الـرئيس أن نعمل كلنـا على اعادة العلاقات مع الاتحاد السـوفيتي للحال الـذي كانت عليـه ابان ايـام

الثورة الاولى وطلب مني ان أعد نفسي فوزا للسفر للقاهرة في تلك الليلة حاملا رسالة منه للرئيس السادات ليقوم نيابة عنه بتقديم الدعوة للزعيم السوفيتي ، واتصل بنفسه هاتفيا بسفيرنا بالقاهرة وطلب منه ان يلتمس تحديد موعد لي مع الرئيس السادات في صبيحة اليوم التالي ، وفور وصولي مطار القاهرة ، وتفضل وحملني بعربته الى المطار وكان يقودها بنفسه . وبالفعل تمت المقابلة مع الرئيس السادات بعد ساعتين من وصولي القاهرة وتحمس الرجل وقال انه سيعمل على حمل الرئيس السوفيتي لتلبية الدعوة وانه سيرافقه بنفسه الى الخرطوم .

ولكن بودقورني رئيس الاتحاد السوفيتي « الصديق » !! لم يتكرم حتى بالرد لا شاكراً ولا معتذرا . . . وتمر الأيام ويطاح بالرجل ويلزم داره لا يخرج منها الا قليلا ليجلس على مقعد متواضع من الخشب بركنٍ منزوٍ من اركان احدى الحدائق العامة بضواحي موسكو يندب حظه العاثر ويجتر ذكريات ايامه السوالف ويرقب السابلة والعشاق الذين يسارعون بالابتعاد منه وكأنما هو بعير أجرب خوفاً من سوء ظن رجال المخابرات الذين يراقبونه من بعيد . . . « والبِتْسوي كريت في القرض تلقاه في جلدها » . . . فقد فعل به برجنيف ما فعل هو من قبل بولي نعمته نيكيتا خروشوف . . . وهكذا الحال من حفر حفرة لأخيه وقع فيها ومن استل سيف البغي قتل به .

الأيام :

العدد : ١٠٢٩٣

التاريخ : ٩ من رجب ١٤٠١ هـ

الموافق ١٣ من مايو ١٩٨١ م

الى الرفاق والحواريين
وجادلهم بالتي هي أحسن
ـ ٣ ـ

والحديث مازال موجهاً لكم أيها الشباب ، وأنتم أقبل للحق وأهدى للسبيل . وهو اليوم عن الماركسية التي تهنا في متاهاتها ردحاً من الزمان طويل ، كما تاه قبلنا الضالون المضلون من بني اسرائيل . والتي كادت ، لولا فضل الله ورحمته ، أن تردينا الى الجحيم ، كشيوخ قريش الذين أخذتهم العزة بالاثم وبقوا على دينهم القديم ، ولم يسلم منهم الا القليل . فقد كنا نحسب أنْ ما من نِد لها أو نظير ، يرشد الناس وينير لهم الطريق الى المجتمع الأفضل البديل ، الذي فيه يغاثون ، يزرعون ويحصدون ويعصرون وينعمون بحصيلة جهدهم لا يغتاله مستغل أو سارق ولا ينهه طامع أو قاطع سبيل .

وآفة الماركسية ، أيها الشباب ، أنها تدَّعي العصمة والشمول . والمقدرة على تفسير الظواهر وتقديم الحلول . . . وقد ظل كارل ماركس وحواريوه من بعده يفخرون ويزعمون أنها تفضُل غيرها من النظريات بأنها لا تكتفي بالاستقراء والتفسير ، وانما ترشد الى سبل التغيير . ومن هنا كان خطرها على الناشئة وعلى القُصَّر سناً وعلماً ،

فانها تلهب الشعور ، وتشبع الغرور ، وتدَّعي سد القصور . ومن هنا أيضا كان انجذاب الطلبة والشباب الـذين لم تكتمل لهم الحصـانة التي يحققهـا الحظ الوافـر من التعليم ، ولا المناعـة التي توفـرهـا تجـارب العمر والحيـاة والسنين . ولا يقف تـدليسهـا على الصغـار وانصاف المتعلمين بل يمتد زيفها الى مجموع طبقات الكادحين . تنمي الأحقاد وتثير الكراهية وتوقظ الفتنة . وتخص العمال بالمـدح والثناء وتتقرب اليهم زلفى . وتصفهم بأنهم قادة الركب وحماة الحق وطليعة المسيرة وصانعوا الحياة . . . ويُصدِّق البعض الزعم الكاذب فيتملكـه الزهـو وتصيبه تخمـة الغرور ، ويمشي في الأرض مـرحـا ويحسب افتراء أنه ورفاقه وحدهم الحداه . . . وشيئـا فشيئا ينعـزل الحداه عن ركب الانتاج وعن مواقع العمل ويصبحون صدى للحزب الذي يطلق الشعارات التي تمجد البروليتاريـا وتعلو بها فـوق سائـر الطبقات كما تتعالى بقرة الهندوس المقدسة على سائر الحيوانات . والتي تجعـل من الحزب عجـلاً ذهبياً كعجـل السامـري جسداً لـه خوار ، يظل الرفاق عاكفين عليه كما كان دأب قوم موسى لا يقبلون فيـه الجدل ولا الحـوار ، لا من هرون ولا من سـواه من الناصحين الخيرين الأبرار .

ويرفض الحواريون حقائق الحياة التي تصفع مسلمات الماركسية التي عفى عليها الزمن ، والتي صاغها كارل ماركس على عجل وفي ظروف تختلف عن الظروف السائدة اليوم والمتغيرة . ويصرون على ادعائهم بأن الماركسية هي وحـدها نـظرية النمـو والتطور والحـركة الدائبة ، رغم ان طبيعـة العمل وعـلاقات الانتـاج وصفات العمـال ونوعية الاستغلال في القرن العشرين تختلف عما كـان عليه الحـال

في القرن الذي مضى . ويحاول الرفاق عبثاً ايجاد التبريـرات لعدم تحقق نبوءات « القورو » أو الكجور والتي كانت بالنسبة له ولحوارييه الذين عاصـروه مسلمات لا تحتـاج الى دليل . ومن تلك النبـوءات الزعم ان ثمة أزمة اقتصادية طاحنة لا محالة واقعة ، تحيق بالمجتمع الـرأسمالي وتقـذف به في سلة التـاريـخ المهملة ، وذلـك بفضـل التناقض بين علاقات الانتاج ووسائله وبسبب تضخم الانتاج وتدني الـطلب . . . وتمضي السنوات وتجـاوز القرن ولا نجـد فيمـا قـال الرجل الا نبوءة كاذبة ، ولا نرى غير أزمات طارئة ، ربما كان نصيب روسيا منها ومن سار على دربها نصيباً وافرا . ومنها أيضا الادعاء بأن الـرِحم الرأسمـالي الصناعي المتقـدم هو وحـده القـادر على ولادة المجتمع الشيوعي . وقد أشار مـاركس لكل من بـريطانيـا والمانيـا كمجتمعين مؤهلين لتلك الـولادة . . . وتجيء الأحـداث لتكـذب النبوءة أيضا فقد خرج المجتمع الشيوعي المـزعوم من صلب أكثـر المجتمعـات الأوروبية تخلفـا ، من روسيا القيصـرية ، ومن الصين التي كانت أكثر البلاد أخذا بـأساليب الـزراعة البـدائية وبـأساليبهـا القديمة . وتنبأ ماركس بالدرك الأسفل وبالهوة السحيقة التي ينحدر اليها العمال كلمـا امتد الـزمن بالمجتمـع الرأسمـالي . . . وتكذب أحوال العمال في امـريكا وانجلتـرا والمانيـا واليابـان النبوءة للمـرة الثالثة .

ولعل مشكلة الرفاق تكمن في أنهم يحاولـون تطبيق مـا جاء بـه المنفستو أو البيان الشيوعي الصادر في عام ١٨٤٨ على حقائق الثلث الاخير من القرن العشـرين . أو كما قـال روجيه قـارودي إن مصيبة القوم تتمثل في أنهم يكررون ويعيدون في آخـر القرن العشـرين ما

قرره ماركس في منتصف القرن التاسع عشر عن تطور الرأسمالية . وان من اخطائهم الفادحة أخذهم بحرفية القوانين التي صاغها المفكر الألماني واستقاها من ملاحظاته لتطور المجتمع الرأسمالي في انجلترا ، والتي كانت أساساً قوانيناً وصفية أكثر منها كاشفة أو مقررة . وان خطأهم الكبير يكمن في أنهم مازالوا يعتبرون هذه القوانين قواعد آمرة يتحتم الاهتداء بها في المسيرة الطويلة الشائكة .

والماركسية التي تدعى الشمول والكمال ، وأهلية الرد والاجابة على كل قضية وسؤال ، ما هي في حقيقتها الا شتات أفكار ، أصولها مدارس عقلانية ثلاث : الفلسفة الالمانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي الانجليزي . ولا يمكن بداهة ، لنظرية لا تمتد جذورها ولا يرجع أصلها الا لمثل تلك المنابع القاصرة المحدودة أن تحكم كل تصرفات البشر ، وان تجد التفسير لكل ظاهرة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية خاصة اذا كانت تلك الينابيع قد غِيضَ ماؤها وأصبح غورا بعد كل تلك السنين التي انقضت منذ عهد هيجل وفويرباخ وسان سيمون وآدم سميث وريكاردو . .

وبالطبع لم يكن كارل ماركس التلميذ الوحيد الذي نهل من معين تلك المدارس ولكنه كان أكثر حواريي مؤسسيها جرأة وادعاء ، وربما ذكاء ، اذ استطاع ان يجعل من ذلك المشاج والشتات هيكلا يبدو في مظهره كمَّاً متكاملا ومتماسكا ، استطاع بالرغم من حقيقة كونه مسخاً شائخاً ان يطيح بعقوب كثير من الناس وان يصرفهم عن سواء السبيل . . . ولعله ارهاصات الدجال الذي يقال انه يخرج آخر الزمان يعبث في الأرض فسادا ويملؤها ظلما وجورا .

والماركسية بالرغم من ادعائها انها تُقوِّم المظاهر الاجتماعية تقويماً جدلياً ، بمعنى أنها تنظر اليها في حركتها وفي تطورها وفي علاقاتها مع الظواهر الأخرى وتسبر غور العوامل والظروف التي تحيط بها ، إلا أنها تُغلِّب العامل الاقتصادي على غيره تأسيساً على أن الاقتصاد هو الذي يحرك التطور ويصنوغ حركة التاريخ . بل تتمادى في غيها الفكري وتزعم أن القاعدة الاقتصادية لأي مجتمع هي التي تحدد قيمه واخلاقياته ومُثُله وتركيباته السياسية .

ولعل هذه الأهمية الكبرى التي تسبغها الماركسية على العوامل الاقتصادية هي التي جعلت فقهاءها يركزون على نظرية فائض القيمة ويصفونها بأنها أعظم بل وأخطر ابداعات العقل البشري في ميادين العلوم الانسانية غير اليقينية . ولكن ان فلت ذلك على البعض وانطلى ، فان هناك الذين يدركون ان كافة نظريات كارل ماركس الاقتصادية ومن ضمنها نظرية فائض القيمة ما هي الا تخريجات واقتباسات من بعض الأفكار والنظريات التي سبقه اليها آخرون على رأسهم الاقتصاديون البريطانيون ، آدم سمث ومالثس وريكاردو ، وغيرهم من الاوروبيين أمثال لاسال وبرودو .

وكما قلت من قبل فان نظرية فائض القيمة ما هي في حقيقتها الا تطبيق ذكي وماكر لنظرية ريكاردو عن الريع العقاري الذي عرَّفه العالم الانجليزي بأنه ذلك الجزء من الدخل الذي لا يقابله عمل . وان كان هذا يختلف عن الريع الصناعي من حيث نشأة كل منهما ونتائجه ، ولكنهما يتماثلان اذ يتحقق كل منهما دون مقابل ويترتبان على ملكية أموال اقتصادية هي الأراضي الزراعية بالنسبة للعقاري والمصانع والآلات بالنسبة للريع الصناعي .

وفي الواقع فان ريكاردو لم يكن هو أول من أشار الى مسألة الريع فقد سبقه اليها آدم سميث ومن بعده مالسس الذي قدم في عام ١٨١٥ بحثا عن طبيعة الريع وتطوره أي قبل سنتين من صدور النسخة الأولى لمؤلف ريكاردو عن مبادىء الاقتصاد السياسي والضرائب الذي ضمَّنه نظريته المتكاملة عن الريع العقاري . وقد اعترف هذا بأن مالسس هو الأب الشرعي لنظرية الريع . ولكن نبي الماركسية لم يكن في أمانة ريكاردو ليعترف بالنقلة وبفضل السابقين من اساتذته . وربما كان الفضل الوحيد لفكر كارل ماركس في هذا المضمار أنه فتح الآفاق للتوسع في نظرية الريع والخروج بها عن نطاق الاقتصاد الزراعي الى ساحات النشاط الاقتصادي الرحبة الاخرى .

ونظرية ماركس حول الأجور والتي ترتبط بنظريته عن فائض القيمة هي بدورها اقتباس وتحوير لنظرية ركاردو عن نفقة انتاج العمل ولفكر آدم سمث الذي حمله كتابه « ثروة الامم » ولنظرية لاسال عن القانون الحديدي للأجور . ويلخص ماركس نظريته عن الأجور بالقول انه في ظل النظام الرأسمالي يكون لقوة العمل ثمنا وقيمة كبقية السلع ، وان الأجر هو ثمن تلك القوة ، ولكن العامل لا يقبض استحقاقه الحقيقي بالكامل ، ومن هنا ينشأ الفائض الذي يغتاله المخدم الرأسمالي .

ولعل الميزة الرئيسية لنظرية ماركس عن الأجور انها تكشف كربيبتها نظرية فائض القيمة عن ضيق أفق الماركسية وتحجرها حيث أنها تنكر تأثير العوامل العديدة التي تؤدي الى تحديد الأجر وتحصرها في عامل واحد لا ثاني له .

وكما كانت نظريات ماركس الاقتصادية اقتباساً وتعديلاً وتبديلاً لنظريات سابقة فكذلك حال نظريته الفلسفية . فالمادية الجدلية لم تخرج عن كونها مزجاً وتحويراً ومقارنة بين أفكار الفيلسوفين الالمانيين فردريك هيجل الذي هلك عام ١٨٢٣ ولدويج فيورباخ الذي قضى في سنة ١٨٧٢ . فقد درس كارل ماركس نظريات الرجلين وأشار الى أوجه خلافه واتفاقه معهما وقارن بين مثالية هيجل ومادية فويرباخ وعاب على الاول مثاليته بالرغم من أنه كان أول من قدم صورة واضحة عن الحركة واشكالها وأصلها الديالكتيكي . وعاب على الثاني عدم ادراكه للطبيعة الجدلية للمادة . وقد انحصر اسهام ماركس في هذا الشأن ، حسب ادعائه هو ، في انتزاع الاطار المثالي لأفكار هيجل والابقاء على نواتها . وكذلك كان اسهام تلميذه ورفيق دربه فردريك انجلز الذي أسند الغموض والمثالية التي تغلف أفكار هيجل الى اعتقاده بأن كافة الظواهر المادية ما هي الا مجرد انعكاس للفكرة وانه لا وجود للمادة خارج العقل . ولم يقتصر ماركس على فكر الفيلسوفين الالمانيين وانما عبَّ بل ونهب من فكر الماديين الفرنسيين والانجليز والهولنديين امثال لاماتريه وديدرو وبيكون وهويز وسبينوزا .

وكما كان هذا حال النظرية الماركسية في بعض ساحات الفلسفة والاقتصاد السياسي فكذلك كان أصل مسلماتها عن تطور المجتمع وعن الاشتراكية فقد تأثر ماركس وانجلز بأفكار الاشتراكيين الطوبويين والاشتراكيين الفرنسيين بالرغم من هجومهما عليهم وعلى مختلف المدارس الاشتراكية التي سبقتهما . كما تأثرا بدراسات العالم الامريكي الاجتماعي لويس مورجان عن المجتمعات القديمة

ويظهر ذلك واضحا في كتاب انجلز عن العائلة والملكية الفردية والدولة .

ولا يبدو افلاس الماركسية في أي من ساحات نشاطها الفكري كما يبدو في تناولها لقضية تطور المجتمع اذ أنها تحصر اداة ذلك التطور في الصراع الطبقي تأسيساً على أن انتاج الثورة المادية هو الذي يحرك عجلة التاريخ ، وان ذلك الصراع سيؤدي في النهاية وحتما الى اقامة دكتاتورية الطبقة العاملة بكل ما تعني من تحقيق لأماني الكادحين ولاحلام المستضعفين .

وبالطبع وكما قلنا من قبل فلا يمكن الاحاطة الفكرية التامة بمحركات تطور المجتمعات البشرية وبالاسباب والقوى التي تؤدي الى الارتقاء بها . وان كل ما يصاغ من نظريات تعجز عن اعطاء التفسير الشافي والكامل والمقنع .

وان تركنا جانباً المسالب الفكرية وغرور الماركسية وادعاءها ، فان وقائع التاريخ القديم والحديث والمعاصر تكذب مسلماتها . وها نحن نلم بطرف مما يدور خلف أسوار الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية . ونعي ماذا تعني تلك الدكتاتورية في التطبيق مما جعل بعضاً من زعماء الاحزاب الشيوعية في أوروبا يتنصلون تباعاً من شعار دكتاتورية البروليتاريا ، فقد أعلن الحزب الشيوعي الفرنسي رفضه لذلك الشعار على أساس أن الشعب الفرنسي لم يعد يستسيغ لفظ الدكتاتورية كما انه يعني تسلط طبقة يقل تعدادها عن ربع سكان فرنسا ومن قبل الحزب الشيوعي الفرنسي كان موقف الحزب الشيوعي الايطالي اكبر الاحزاب الشيوعية عدداً واكثرها نفوذا خارج معسكر الدول الاشتراكية وكذلك كان الأمر بالنسبة للحزب الشيوعي الاسباني . . . والباقية تأتي .

ولم يعد الشعار اليوم الا وسيلة عقيمة لاثارة النعرات الطبقية للعمال وايقاظ حميتهم الجاهلية بهدف كسبهم الى الحظيرة . . . والغريب في الأمر أن أكثر الاحزاب تمسكاً بالشعار هي الأحزاب الشيوعية « التعبانة » في أوروبا كالحزب الشيوعي البريطاني ورصيفه الهولندي وامثالهما في بلاد العالم الثالث التي لا يتجاوز عدد عضويتها بضع مئات من الطلبة والطالبات والتي لازالت الطبقة العاملة فيها طفلاً يحبو أو صبياً يافعاً لم يبلغ الحلم بعد . . . ولعل هذه الأحزاب تنتظر الاشارة الخضراء ، من الكرملين ذي القباب الحمراء ، لاعادة النظر في أمر سيادة البروليتاريا . . . ولا شيء بغريب أو عزيز أو مستحيل على قادة روسيا . فكل أمر ممكن ومباح ، وحتى أساليب المكر والافك والخداع ، إن كان من شأنها تحقيق الطموح والاطماع ، فقد طاب الأمر واستحلى وراق ، لعبدة الطاغوت بموسكو وللرفاق ، الذين يظهرون الوفاق ، ويبطنون النفاق ، والذين يسبحون بحمد ماركس بالعشي والاشراق . . . ولكن لا تعجل عليهم فما ينظر هؤلاء الا صحية واحدة مالها من فواق .

الأيام :
العدد ١٠٣٦٠
التاريخ ٥ من شوال ١٤٠١ هـ
الموافق ٥ من اغسطس ١٩٨١ م

يوم قررنا اشعال النار
في بيت المفتش

ونعود لذكريات السجون والمعتقلات ، ليس ادعاء لبطولات كاذبة ، ولا تذكيراً بتضحيات لم تبذل منها الا قليلا ، اذ لم يكن نصيبنا منها طيلة سنوات عبود الست الا سنتين تنقصان شهورا كثيرة ، وليس استعراضاً لأحداث تاريخ نضال مضى عليه الزمان وعفى ، ولا اثباتاً لحقيقة أن ما سبق عهد مايو لم يكن كله خيراً وعسلاً وسمنا ، كما يريد البعض ان يصور الأمر ويرى . ولا تجريحاً وتذكيراً بالبعض الذي كان لنا بالأمس سجاناً ، فأصبح اليوم للحريات حامياً ، وللديمقراطية داعيا . وانما قصدنا ان نروِّح على القارىء ونخفف عنه العناء ، فقد ظل الناس يقرأون لنا ولغيرنا ما يشبه الغثاء .

ونُقلّب الصفحات ونقف عند الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٥٩ . وكان المكان معتقل ناقيشوط . وكان عددنا يربو عن العشرين معتقلاً شيوعيا ، جعلوا لنا بيتَيْ المفتش ونائبه نزلا . وكانت ناقيشوط فيما مضى مركزاً من مراكز كابويتا . وظل المنزلان خاليين بعد ان أُلغى المركز وصارت كابويتا من اعمال المديرية التي

عـاصمتها جـوبا . وكـان البرد قـارسا ، والـطعام بـائسا ، والعيشـة ضنكا . فقد عُزلنا عزلاً تاماً ولم نكن ندري ما يدور خـارج السلك الشائك الذي أحاط الجيش به نزلنا . وكان مضى علينا ونحن على تلك الحالة التعيسة ما يجاور التسعين يوما . فقد تم اعتقالنا أثر فشل محاولة القيادة الشرقية الانقلابية المشهورة . وكان اعتقالنا بأمر صادر من وزير الداخلية ، وكان المفروض قانوناً ان يتجدد الأمر بـالتحفظ علينا شهريا . ولم يرَ جمعُنـا بُدَّاً من الاضـراب عن الطعـام . وقرر الرفاق اعفائي من تنفيذ القرار اذ كنت حديث عهـد بعملية جـراحية أجريت لي بموسكو استؤصلت بمقتضاها قرحة معوية لعينة ، وكان الاضراب عن الطعام يعني انتقالي السـريع الى حيث السـابقين من الاهل الذين توسدوا الثرى بغبراء احمـد شرفي . . . ولـو هُيأ ، في ذلك الوقت ، لبعض أولئك الرفاق ، الذين بَعُدتْ بيني وبينهم اليوم الشُقَّة ، أن يثقبوا حجب الزمان لأصروا لا محالة على عدم استثنائي من الاضراب ولما توانيتُ وقتها عن تنفيذ القرار الحزبي رغم مخاطره فقد كنت ظلوماً جهولا . . . ظالماً لنفسي ، وجاهلاً بحقيقة « الزقَّة » التي كنت أسير ضمن طليعة موكبها .

وكُلِفتُ وبعض القياديين من الرفـاق بتبليغ الأمـر لضابط السجن المنوط به مراقبتنا داخل حرم المعتقل ، اذ كانت الحراسة الخارجية من شأن قوة من الجيش نصبت خيامها حـول السلك الشائـك وكان يقودها ثله من الضباط ، فقد كان عدد افراد القوة كبيراً نسبيا . وكنا نعجب لذلك اذ لم نر سبباً يُسوِّغ كل ذلـك العدد فقـد كان الهـرب مستحيلاً حيث ان نزلنا كان بأعلى الجبل وتحيط بنا « الهاويـة » من كل جانب ولا منفد الا شارع واحد ضيِّق يمكن قفله لراحة الحكومة والسلام.

وبلَّغنا الأَمر للضابط وأَخبرتُه بأني لن أشترك في الاضراب تنفيذاً لقرار الرفاق ولكن من جانبي سأحرق البيت الـذي نقيم به ، وكـان الأمر ميسورا اذ كان سقفه من القش ، وأضفتُ أني أعلم مغبة الفعل الذي انتويته وأشرت الى مـادة قانـون العقوبـات التي تحتِّم عقوبـة السجن سنين عددا لمن يرتكب جـريمة « الاسـاءة » بالنـار ، وكان التعبير الركيـك من ترجمـة الاخوان الشـوام الذين كلفـوا في بدايـة الحكم الاستعماري بترجمة نصوص ومـواد قانـون الجزاء الجنـائي ولعـل الكلمة الصحيحـة التي تنـاسب المقـام هي « التلف » وليس « الاساءة » .

وسعد ضابط السجن بقرارنا ، وقد بدا أثرُ ذلك عليه واضحا رغم محاولته كتم شعـوره فقد كـان وجهه لا يمـاثل وجـوه لاعبي البوكـر كوصف الانجليز لأولئك الذين يكتمـون الغيظ والسرور معـا . فقد كان ظنُّ الرجل ان سلطات الداخلية بالخرطوم ستـأمر فـور ابلاغهـا الخبر بتصفية المعتقل وتشتيت نزلائه بمختلف سجون البلاد ، ويعود هو الى المدينة حيث النور والهـوى ليحكي للاصـدقاء تجـاربه مـع « الشواطين الحمر » ويؤلف القصص التي تقرِّبه من السلطات فينال المثوبه والرضاء . وكان قد ضاق مثلنا ذرعاً بالبقاء في المنفى الذي لم يكن به غيرنا وغير حراسنا من الجنود ، وغير ملك القرود ، الذي نشهد بحق أنه ملكها ، حيث الهيبة والطلعة البهيـة ، وحيث المزج الفريد بين اللونين الابيض والاسود . . . وكنا مثـل سجاننـا نتساءل عن السبب الـذي جعل السلطات فيمـا مضى تقيم مركـزاً في تلك المنطقة النائية الخالية . ولكن زال العجب ، عندما علمنا السبب ، وهو ان السابقين من المآمير المصريين والاتراك قد اكتشفوا ان ثمـة

شجرة واحدة لا ثانية لها يطلق عليها الاهلون في تلك المنطقة اسم ناقيشوط تحمل ثماراً من شأنها ان تقوي الباه ، بإذن الله ، وتزيد من ثم من فحولة الرجال . وتناقل المآمير اخبارَ الشجرة الملعونة ، وكثُرتْ زياراتهم واحباؤهم لها فازدهرت المنطقة واشتهرت ، ثم تقلصت واندثرت بتقلص نفوذ القوم وذهاب ريحهم .

وجاء الرد سريعا وعبر الأثير من القيادة بجواباً تنفيذاً لأوامر الخرطوم ولكن على غير ما يشتهي ضابط السجن ، فقد كان القرار توزيع أربعة منا هم الجنيد على عمر والتجاني الطيب وجوزيف جرنج واحمد سليمان الى مختلف السجون . . . جوزيف لسجن سواكن . والتجاني لسجن جوبا . والجنيد لسجن يامبيو ، وانا لسجن رومبيك على أن يبقى الباقون بناقيشوط .

وبالفعل تم ترحيلنا في الصباح الباكر ، وقبل ان ينفذ الرفاق الاضراب ، وقبل ان أتمكن من الوفاء بوعدي باشعال النار . . . وقضينا ليلتنا بسجن جوبا . ونقلوني والجنيد تحت حراسة مشددة الى مريدي حيث قضينا ليلة سعيدة بميز الضباط الذين تحايل قائدهم ، وكان صديقا عزيزا كريما ، على تنفيذ الأمر بوضعنا بالحراسة لحين ارسال كل منا الى نزله الجديد .

وفي فجر اليوم التالي تحرك ركبي وحراسي الاشداء حيث القينا عصا التيسار ، بعد ساعات طوال ، بحامية ملوي التي تبعد عن رومبيك بضع أميال . ودخل الضابط المكلف بحراستي الى حيث قائد الحامية وخرج بعد دقائق ومعه القائد وكم كانت دهشتي عظيمة وفرحتي بالغة عندما شاهدت قائد المنطقة فقد كان صديقاً حميماً تربطني به أوثق الصلات . وهممتُ بمعانقته ولكنه ردَّني بصلف

وبـرود ونظر اليَّ من تحت الى أعلى وبـازدراء ، والتفت الى رقيب كان يقف بجانبه وأمره بوضعي بالـزنزانـة قرب « الكـركون » تـوطئة لتسليمي الي سلطات سجن رمبيك بعد اخطارها بتجهيز مكان منفرد لي داخل السجن كأوامر الرئاسة خوفاً من تأثيري على النزلاء .

وبقيت بالحراسة مدة جاوزت الاربع سـاعات وكـان العطش قـد تملكني ولكني رفضتُ باباء وشمم ان التمس الماء من قوم كان ذلك شأن قائدهم . . . وبعدهـا حضر الضـابط القائـد ولما رأني أنفجـر ضـاحكاً وكـدت أن أهجم عليه وافتـك به . ولكنـه هدأ من غضبي وروعي واخبرني أنه ما فعلَ فِعلته تلك معي الا لِثُبت للحرس الذي رافقني انه ينفذ تعليمات الرئاسة . وانه الآن وبعد ان قفـل الحرس راجعاً من حيث أتىٰ بعد ان انتهت مأموريته وتم تجهيز « الكونفوي » التي كانت تصاحبني باحتياجات الرجعة فانه سيقوم بواجب الضيافة التي تليق بصداقتنا وباعزازه لي . وبالفعل فقـد كان الـرجل كـريماً شهماً أَبلجا . وقضيتُ معه ثلاثة ايام كـاملة بمنزلـه داخل المنـطقة العسكرية . وكان يذهب كل صباح الى رمبيك تحت ستار مـلاحقة وملاحظة الترتيبات الأمنية تمهيداً لاقامتي بالسجن اذ كان اعتقاده بل يقينه ان اختيار رمبيك مقرا لحبسي وتكليفـه هو بـالذات لتنفيـذ أمر الحبس أمر مقصود ومدبر . فقد كانت المخابرات العسكرية تشـك في نشاطه وولائه للنظام القائم انذاك وتظن أن له علاقات حميمة مع الشيوعيين فقد لاحظتْ كثرة تردده على مكتبي بالخرطوم عندما كان يعمل ضابطا بحاميتها . . . وواقع الأمر أنه كان قد كلف مكتبي باقامة الدعوى المدنية ضد الادارة المركزية مـطالباً بتعـويض مالي لأسـرة أخيـه الذي كـان قد صعقـه تيار كهـربـائي نتيجـة اهمـال من ادارة الكهرباء .

وانتهت ايـام السعد الثـلاثة ، وأُدخلت السجن وكـان عبـارة عن « جمالون » من الزنك لم يكن بداخله على سعته غير سرير من حديد عليـه « برش وبـطانية » « وزيـر » كبير مثـل تلك التي كـانت تلحق بعربات الدرجة الرابعة بسكك حديد السودان في الاربعينات والتي كنا نجد عناء ايما عناء عندما كنا طلبة يافعين في اقتـطاف الماء من داخلها .

وبالغ مسئول السجن في الاساءة اليَّ ، وحتى ساعة اليـد تحفَّظ عليها . وفقدتُ الاحساس بالزمن وكان يكثر من الاعتذار ويقول إنها أوامر وتعليمات الرئاسة . . . ومرت الايام ولم يكن لديَّ ما أقرأه وما أفعله ، وحتى المصحف الذي طلبتُ الاطلاع عليه ، بعد سنين من فراقه ، رفض الضابط ان يكرمني بنسخة منه اذ كان ظنه أني شيطان رجيم . . . ولكن أنْ كان ذلك حال الضابط معي فقد كان النمل أكثر ظرفاً وتلطفاً اذ كان يسارع ويتكاثـر عند فتـات الرغيف الـذي كنت أتفضل به عليه وكنت أقضي الساعات الطوال أرقب سعيه وتعامله مع بعضه البعض . . . وما أحوجنا اليوم أن نتعلم من النمل حبَ العمل والغيرة عليه .

صحيفة الأيام :
العدد : ١٠٢٨٢
التاريخ : ٢٦ جمادي الثاني ١٤٠١ هـ
الموافق : أول من مايو ١٩٨١

من وحي احتفالات الثورة

أحداث ثلاثة تميزت بها احتفالات مايو هذه السنة ، الاستعراض العسكري ، ومشاركة كل من مصر واثيوبيا لنا أفراحنا بعيدنا الوطني ، وخطاب الرئيس نميري . . . ولم يكن أي من هذه الأحداث الثلاثة ظاهرة جديدة انفردت بها احتفالات الذكرى الثانية عشر للثورة المجيدة فقد درجنا ومنذ السنة الاولى للذكرى على استعراض عضلاتنا العسكرية صبيحة كل خامس وعشرين من مايو وواصلنا السُنة الحميدة بدعوة الاشقاء والاصدقاء لمشاركتنا الفرحة والبهجة ، كما تعودنا الاستماع لخطاب ضاف يلقيه رئيس الدولة يعدد الانجازات ويعرِّي السلبيات ويحدد معالم الطريق للمسار الشعبي والرسمي المرحلي .

ولكن الجديد أن اخراجنا هذه السنة لوقائع الأحداث الثلاثة مجتمعة يثبت أننا نسير في الطريق الوطني الصحيح ، وانا ندرك الظروف المحلية والاقليمية والعالمية التي تحيط بنا ادراكا سياسيا عميقا ، واننا نتجاوب مع تلك الظروف تجاوب المقتدر الذي إستوعب الدرس ووعى التجربة واستلهم العبرة فاكتمل عقله ونضج

فكره واهتدى الى الحلقات الرئيسية في سلسلة مقومات بقائه ووضع يده على احتياجاته الضرورية العاجلة .

فنحن البلد القارة نحتاج لجيش قوي يرد عنا العدوان ويحمي الحدود الطويلة مع دول بعضها طامع لا يرقب في قريبٍ إلا ولا في صديق ذمه ، ولا يرعى حرمة جوار . وبعضها مغلوب على أمره ارتضى طوعاً أو كرهاً أن يكون مطية لمن هو أكثر منه مالاً وعتاداً ، وأن لم يكن أعز منه نفراً وولدا . وبعضها يدرك أو لا يدرك حقيقة الدولة العظمى التي كان الظن انها بين الدول الكبرى ، نعم المولى ونعم النصير ، فاذا هي نار وسعير ، الرمضاء خير منها للمستجير .

وقد كان سرورنا عظيما وفرحتنا بالغة ونحن نشهد العرض العسكري ، فالمشاه تهز الأرض هزا . وقلاع الحديد ، ذات البأس الشديد ، ترجها رجا . والصقور السُمر يعربدون في الاجواء ، ويحرسون سماءنا شهاباً رصدا . وفتيان البحر يتكاثرون عدداً ، ويزدادون تجربة وشوكة ومنعة . . . والحمد لله الذي هدانا الى طريق القوة والعزة ويسر لنا جنداً لو اطلع عليهم الغافل الطامع لولىَّ منهم فراراً ولملىءَ منهم رُعباً .

ومما أثلج الصدور وضاعف من السرور والحبور السرية التي أحاطت بها قيادة الجيش عمليات تطويره وتحديثه وتسليحه كماً ونوعا رغم تنوع السلاح وتعدد مصادره ومراكز تدريب الجند عليه وهو أمر ليس باليسير في مجتمع مفتوح كمجتمعنا ، اسراره ذائعة ، واخباره شائعة ، واحداثه لا تخفى منها خافية . وهو انجاز تستحق عليه القوات المسلحة التهنئة والمثوبة ، وان لم تكن هذه اول تجربة . فقد فاجأت الجميع بصفقة الدبابات والأسلحة من الصين الشعبية

عندما امتنعت روسيا عن الوفاء بالتزاماتها التعاقدية اثر فشل الانقلاب الـذي سانـدته بـل حرضت عليـه في منتصف عام ١٩٧١ . وقيـادة الجيش بنجـاحها في تحقيق التنـاسق والملاءمـة بين مختلف انواع الأسلحة تقدم خدمة كبرى لدول العالم الثالث التي كانت تعيش في ظل الكذبة الروسيـة الكبرى عن عـدم جدوى تنـوع السلاح وتعـدد مصادره مما يجعلها فريسة طيعة لأطماع الروس وللرضوخ لشروطهم المجحفة القاسية .

وربما كانت أقسى ضربة توجهها أي من تلك الدول للدولة الباغية الانصراف عن سوق سلاحها ، اذ تعتمد موسكو اعتمادا كبيـرا على عائدات صادراتها من السُلاح الذي كـانت سوقـه رائجة ، وتجـارته رابحة ، وذلك لتمويل احتياجاتها من القمح ولدفع مقابل مشترياتها من مبتكرات الصناعة الغربية وابداعاتها . وقد سجلت مبيوعاتها من السلاح في عام ١٩٧٧ رقماً قياسياً بلغ خمسة آلاف ومـائتين مليون دولار ولكن ذلك الرقم تناقص وتباقص حتى انخفض الى الثلث في عام ١٩٧٩ . ولعل هذا هو الذي يفسر لنا تنازلها اخيرا عن كثير من الشروط والقيود التي كانت تلحقها بصفقات السلاح وتعاقدهـا على بيع بعض الأسلحة المتطورة التي كانت تحتفظ بهـا لنفسها . ولعله يفسر لنا أيضا الحملة المسعورة التي توجهها أجهزة الدعاية السوفيتية وابـواقهـا لكـل من يفلت من قبضـة الاتحـاد السـوفيتي ومن فكــه المفترس . . . ولكن يظهر أن الرفاق قد فقدوا الدليـل وماء الحيـاء معاً ، فهم يحاولون عبثاً اعادة المياه الى مجاريها مع بعض من تلك الـدول وحملها على اعـادة التعامـل معهم . وربما فـات عليهم ان يدركوا ان كثيرا من الناس قد استوعبوا حكمة المقـولة : « لا تهـزز

اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها » . وانهم قد تيقنوا ان روسيا ، شأنها شأن الغادر اللئيم ، تحترم الاعداء بأكثر من الاصدقاء ، فغدا حالهم معا كحال ابي فراس الحمداني مع غانيته الغادرة :

وفيتُ وفي بعض الوفاء مذلة
لانسانة في الحي شيمتها الغدرُ

وان موسكو لم تعد لكثيرين كما كانت بثينة لجميل ماله عنها من صبر .

ولكن وبالرغم من كل شيء وبالرغم من فرحتنا بقواتنا المسلحة واعتزازنا بها فاننا نتمثل قول الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه : « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف » .

وبقدر احتياجنا لجيش قوي يدرأ عنا الشر ويدفع الردى ، بقدر احتياجنا لأصدقاء أقوياء ، يشاركوننا السراء والضراء ، ويكون لنا ردءاً ونكون لهم عوناً . . . ومن هنا كان سر اهتمامنا باللقاء بين الفرسان الثلاثة ، عزيز مصر وقائد السودان وفتى أثيوبيا . . . وليس من قبيل المصادفة ان يتم اللقاء على أرض السودان الطاهرة الرحبة حيث مجمع النهرين وحيث التقى الماء وامتزج وصار نيلا واحدا . وليس على سبيل الصدفة أيضا ان نكون نحن الداعين لوحدة الصف وللصفاء ، فنحن واسطة العقد بين الأفارقة والعرب والمستعربة ، ونحن التجسيد الحي للساميين والحاميين لحما ودما .

ولا يمكن ان يكون هدف اللقاء خلق محور داخل القارة السمراء كما يزعم البعض الذي استمرأ الكذب والافتراء . وانما على عكس

ذلك تماما ، فقد دوى صوت نميري مجلجلاً ألا محاور ولا عداء بين الاشقاء ، وداعياً لان يكون تجمع السودان واثيوبيا والعزيزة كينيا مدخلا للاستقرار في قرن افريقيا . وتجمعاً يتسع بالترحيب للصومال وجيبوتي ويوغندا وتنزانيا . وقاعدة انطلاق لتعاون أكبر واشمل يضم دول القارة جميعا .

وارتفع صوت السودان عاليا مناشدا الصومال واثيوبيا بأن يجعلا الحوار بديلا للحرب وللجفاء . ومرحباً بكل بادرة تنهي الصراع بين الاعزاء في اديس واسمرا .

والأمل والرجاء ان تتواصل اللقاءات ويتم الصفاء . ويتحقق التكامل بين الدول الثلاث التي ترتبط ومنذ القدم بأوثق الصلات . والتي يشقها النهر الخالد ويبعث في أرضها الحياة والنماء .

وضرورات التكامل ومسوغات الالتقاء بين العواصم الثلاث ، القاهرة والخرطوم واديس أبابا تعلو على كل تباين في وجهات النظر حول بعض قضايا الساحة الدولية وعلى رأسها تقويم دور الاتحاد السوفيتي وسياسته في افريقيا . وكما قلنا من قبل فليس مفروضاً ان يكون ذلك الخلاف سببا للتنافر بين الشعوب الثلاثة . علماً بأن فتية اثيوبيا وعلى رأسهم الرئيس منقستو لم يأتوا ببدعة جديدة في تعاملهم مع الروس فقد سبقهم الرئيس نميري لمثل ذلك التعاون ومن قبله الرئيس عبد الناصر بل ان الرئيس السادات لم يكن هو البادىء بمعاداة الاتحاد السوفيتي فقد ظل يحافظ على شعيرة معاوية الى ان تبين له أنه ما من سبيل للمواصلة .

وكما كان العرض العسكري وزيارة رئيس مصر ونائب الرئيس الاثيوبي معلمين بارزين في احتفالات هذا العام ، كذلك كان

خطاب الرئيس نميري الذي جمع وأوعى، وقل ودل ، والـذي كان بحق خطاب رئيس دولة مقتدر .

ولعل أبرز سيماته الاعتدال . والبعد عن الانفعـال . خاصـة في معالجته لقضايا العالم العربي ، إذ لم تخرجه الكلمات النابيات التي ظلت ترددها بعض الاذاعـات العربيـة الظالمـة عن السودان ورئيس السودان عن الوقار المفترض واللائق به ، كمـا لم تمنعه ضـرورات حسن الاستقبـال وواجبات الضيـافة للرئيس السـادات من ان يقـول كلمة الحق وان يخاطبه بصوت العقل قبل العاطفة . . . » أقول لك يا أخي أنور انك قد استعدت أرضاً مصرية ، الا أنها ايضا عربية ومع ذلك فان ما تبقى من الأرض العربية المحتلة مازال تحت الاحتـلال والقهر ، مازال عرضه للعدوان والبطش بل مازال المزيد من الأرض العربية موضعا للمطامع الاسرائيلية . . . أقـول لك يـا أخي أنور ان مكان مصر في الأمة العربية ومع الامة العربية وللأمة العربية فاذا كان قـد أمكن تجاوز عـداء سنين فكيف لا يمكن ان تتجـاوز خـلافـات شهور ، واذا كان قد أمكن عبور حـواجز الكـراهية فكيف يمكن أن نتجاهل أواصر القربى » .

وقد كانت تلك الكلمات البليغة المؤثرة هي مدخل دعوتـه لقمة عربية تشارك فيها مصـر هدفهـا الوصـول الى صيغة للعمـل العربي الموحد في اطار مقررات قمتي الجزائر والرباط .

ولم تكن الدعوة لعقد مؤتمر القمة العربي دعوة ساذجة يستحيل تحقيقها أمام مظاهر العداء التي تبديها الدول العربية لمصر ، اذ لم تكن تلك المظاهر بخافية على احد . ولعل السـودان بحكم وضعه المتميـز بين العرب ومصـر يعلم أكثر من غيـره خفايـا وخبـابـا تلك

الظروف ويدرك حجم الموانع التي تقف حجرة عثرة دون تحقيق الأمل المنشود .

ولعله ما من سبيل لاعادة التضامن العربي وتحقيق وحدة الارادة والعمل بين الدول العربية الا بطرح القضايا التي تسببت في تسوىء العلاقات بين الدول العربية ووضعها على بساط البحث بين قادة أمة العرب .

وبالطبع فان الأمر ليس باليسير ، ولكن كان لا بد من تحريكه . والا ظل الجمود مسيطراً على الحال ، والعداء يتعاظم ويتفاقم ويتصاعد ، والعدو يعربد في الأرض العربية ويسومها سوء العذاب ويسعد .

ولم يكن كل ذلك خافيا على رئيس السودان وهو يلقي خطابه البليغ :

« انني أعلم ايها الاخوة ما ادعو اليه قد يساء فهمه وقد يساء تأويله . . . وأعلم أن ما دعوت اليه انما يتطلب احتكاما لصوت العقل لا لصوت الانفعال . يحتاج الى الصبر وضبط النفس وقدرة على رؤ ية ظلام المستقبل في اطار ما تعايشه أمتنا العربية في حاضرها » .

ولن يكون بعض الاخوة العرب وحدهم الذين يسيئون فهم الدعوة لوحدة الصف والهدف ، فهناك نفر من مواطنينا السودانيين يسيئون تأويلها ويرفضون أن يعترفوا بمنجزات الثورة وأمجادها . . . وما أصدق قول الشاعر :

قـــد تنكـــر العينُ ضـــوءَ الشـــمس من رمـــد
ويـنـكـــر الـفـمُ طـعـمَ الـمـــاء مـن سـقـم

الأيام :

العدد : **١٠٣٠٩**

التاريخ : **٢٩** من رجب **١٤٠١** هـ

الموافق : **٣** من يونيو **١٩٨١** م

حول اضراب السكة حديد

الآن وبعد ان انتهى الاضراب ، وهدأت النفوس وانقشع السحاب ، وعاد العقل الذي كان قد غاب ، لا بد من وقفة نقفها جميعا « نقصع الجرَّة » ونجري فيها الحساب ، ليس بغرض اللوم وتبادل العتاب ، وليس تحريضا على الردع والقمع ومضاعفة الجزاء والعقاب . فنقابة « السكة حديد » لها في تاريخها من الأفضال ما يشفع لها بل وما تستحق عليه الثواب . وانما تذكرة وموعظة لأولى الالباب ، وحتى لا تتكرر الاخطاء والاسباب التي أيقظت الفتنة وكادت أن تطيح بمكاسب البلاد ، وحتى لا تتلبد الغيوم من جديد ويعم الضباب الذي يحجب الرؤ ية ويؤدي الى الصدام والخراب .

ولا نريد ان نخوض في تفاصيل احداث الاسابيع الثلاثة الماضيات وانما نكتفي بالقول ان الاضراب الذي دعت له النقابة لم يكن في حجم الأذى الذي تقول انه قد اصابها ولا يتكافأ مع الغبن الذي تدعى أنه قد لحقها . ولا نعتقد ان قيادة النقابة كانت من الجهل بالدرجة التي لا تدرك معه ان الاضراب المفتوح ان هو الا

عمل سياسي مفضوح ، ولا من السذاجة بالقدر الذي يجعلها لا تدرك ان مقدار الجرعة ونوعية الدواء يجب ان تتناسب مع طبيعة العلة وأصل الداء ان كان الغرض العلاج وابتغاء الشفاء .

وان كان السبب الحقيقي للنزاع هو فصل بضعة نفر من الاعضاء ، فصلا تعسفياً ، كما هو الزعم ، وبدون وجه حق كما هو الادعاء ، فان وسيلة فرض عودتهم واجبار المخدم على اعادة النظر في أمرهم لا يكون بالتوقف عن العمل والدخول في اضراب متجدد مفتوح ، وانما باتباع الاجراءات القانونية التي سبق ان ارتضاها العمال ومارسوها من قبل وذلك باحالة النزاع للجهات المختصة ومن بعدها الى لجان التحكيم ثم الى المحكمة العليا ذات الولاية القضائية الشاملة ان كان ثمة مخالفة للقانون وتعالٍ عليه وعدم التزام به . .

ولم يكن كل ذلك خافيا ، بالطبع ، على قيادة النقابة . . . ولذلك يبقى السؤال لماذا المغامرة بالمكاسب التي تحققت بعد جهد وعناء ، وعلى مدى سنين طويلة . ولماذا المجابهة مع السلطة والدخول معها في تحد سافر وعلني مكشوف يسد عليها المنافذ ولا يترك لها من مخرج الا الاستسلام والخضوع التام أو الانهيار الذي يعقبه الموت الزؤام ، وهي التي كانت تحرص على ودهم وتستجيب لطلباتهم بأكثر مما كانت تفعل مع الآخرين .

ويجيء الرد واحداً واضحاً لا ثاني له ولا بديل ، أن القوم قد اخطأوا الحساب والتقدير ، وحسبوا ان السلطة القائمة الى زوال وانها تلفظ الأنفاس وفي النزع الأخير .

ولعلهم كانوا قد صدَّقوا الأكاذيب والاوهام بأن احدى عشر نقابة

كبرى تقف معهم صفا واحدا وفي الامام ، وان بقية جموع العاملين ستلحق بالقافلة خفافا وثقالا ، ركوبا وعلى الأقدام .

والعجيب في الأمر ان النقابة واصلت الاضراب حتى من بعد ما تبين لها ان الوعد بالمشاركة والاسهام ، كان مجرد كلام ، واضغاث احلام . وكان يمكنها قبول الوساطة وتدارك الأمر وانقاذ ما يمكن انقاذه ، قبل فوات الآوان .

وقد كان لاصرار النقابة على مواصلة التحدي وتوقيت الاضراب الأثر البالغ في تقرير حجم رد فعل السلطة . . . والحق أنه توقيت يثير الشكوك ويدعو للريبة والشبهة . فقد جاء والدولة في أشد الأوقات حوجة لخدمات السكك الحديدية ، لنقل الجنود والمعدات الحربية ، تحسبا لما يمكن ان يحدث على حدودنا الغربية ، حيث تضاعفت الحشود العسكرية ، وتصاعدت المعركة السياسية مع ليبيا الشقيقة العربية ، وحيث تواترت تهديدات القوى الرجعية ، التي ارتضت ان تكون مطية للمصالح الاجنبية .

وجاء الاضراب وقمة السلطة تبتهج باكتمال الاجراءات التشريعية لأهم انجازاتها السياسية ، والاقاليم تحتفل بأكبر اعيادها القومية . . . ومن هنا كان الظن بأن الأمر مخطط له : مقصود ومحسوب ، ليسلب البهجة ويصرف النظر عن الانجازات التي تفخر بها الدولة .

وجاء الاضراب ليضاعف من عناء المواطنين في جنوب البلاد الذين يعتمدون على النقل النهري والحديدي للحصول على احتياجاتهم الضرورية وعلى رأسها المواد البترولية وبعض المواد الغذائية . وليفسح المجال امام المغرضين والمفترين الذين حاولوا

ايغاظ الفتنة واثارة الشكوك والبلبلة حول موقع المصفاه المقترحة .

ولكن . . . وقديما قيل : « لكل جواد كبوة » فنقابة « السكة حديد » جواد أصيل ، له صهيل ، يُطرب تارة واحيانا يُثير . وهي بين النقابات، كيوم الجمعة بين بقية الايام وكرمضان بين بقية الشهور وكما زحل بين الكواكب والنجوم .

ومن قديم ايضا كانت الحكمة التي جاءت على لسان اسلافنا الأولين : « العترة تصلح المشي » . . . والأمل أن نعي الدرس ، ونستفيد من التجربة التي كلفتنا شططاً ومالاً وجهدا ، والتي ان استوعبناها جيدا لا نخاف بعدها بخساً ولا رهقا .

والدروس كثيرة وعلى رأسها ان نوزن الأمور وزنا دقيقا ، ولا ننظر للظواهر نظرة عاجلة مؤقتة ضيقة وان نلاحقها في تطورها ، وان نحسب نتائجها المحتملة والمتوقعة ، وألا نجعل الحماس يطغى على مشاعرنا ويسلبنا ، من ثم ، القدرة على الحكم الموضوعي الصحيح ، وألا ننساق وراء الدعايات الكاذبة والافتراءات الضارة والاشاعات المغرضة ، علماً بأن الساحة تعج بالموتورين وتموج بالحاقدين الذين تمرسوا في الاثارة والتهييج ، والذين يندسون بين الصفوف ينفثون السموم ويشككون في دوافع الاعمال ويوغظون الفتنة النائمة ويثيرون الأحقاد ، والذين استمرأوا عمليات الهدم والتخريب لكل شامخ وتليد ، حتى ولو كان البناء والتشييد من صنع أيديهم أو بمساهمتهم ، والذين لا نجد لهم شبيهاً ومثيلا الا تلك المرأة الحمقاء التي كانت تجهد نفسها في الغزل والنسيج ثم تنقض غزلها وتحل نسيجها وتعيده خيوطا . والتي حذرنا القرآن الكريم من ان نكون مثلها « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا » .

ويتدبرون أمرهم ويعيدون قراءة كتب انبيائهم ومنهم ستالين الذي طالب الرفاق في رسالته الشهيرة عن التنظيم ان يتعلموا من كبار الرأسماليين المقدرة على التركيز الذي يخلق الصفاء ، وان يتجردوا من العواطف عندما يقبلون على صفقة ما . وان يجروا الموازنة بين الخسائر والارباح المتوقعة قبل الدخول في المعركة .

واخيرا فان كان للاضراب من فائدة وحسنة فهي ان كلا من العمال وأجهزة الدولة قد استوعب الدرس والتجربة . فلن ينقاد العمال بعد هذه المحنة كالسائمة ولن تتهاون الأجهزة وتتصالح مع الفتنة .

وتبقى كلمة وهي لا بد من طي سجل ما فات واستقبال ما هو أت بقلب مفتوح لا غل فيه ولا جنوح . . . والكرة اليوم في ملعب الحكومة وبين أرجلها ولا شك أنها تُقدِّر الظروف وتتعالى فوق الأحداث . . . والالتماس ان تفتح صفحة جديدة . . . فالقوانين الخطيرة الاخيرة كفيلة بالردع مستقبلا لكل تجاوز واشتطاط .

والحق يقتضينا ان نقول ان العدالة تتطلب المساواة في الحقوق بين المواطنين . فلا يستساغ ولا يجوز ان نفرق بينهم ، نعفو عن البعض ونحاسب الآخرين . . . ومن قبل وعلى مدى سنين كان بعض العمال والموظفين يضربون ويتوقفون عن العمل ثم يعودون دون ان يصيبهم أذى أو يزج بهم في السجون . . . ولعل قادة نقابة

« السكة حديد » الذين يعـانون اليـوم من مغبة اضـرابهم الأخير قـد استفادوا من الدرس . . . وكفى الله المؤمنين القتـال . . . والله لا يضيع أجر المحسنين .

الأيام :
العدد : **١٠٣٢٧**
التاريخ : **٢٢** من شعبان **١٤٠١** هـ
الموافق : **٢٤** من يونيو **١٩٨١** م

ودرس من قامبيا

الآن وبعـد ان « طارت السَكـرة » وجاءت الفكـرة وانجلى الليل الطويل عن قامبيا ، واندحرت الفتنة وغرقت المعـارضة في محنتهـا واحتوتها الظلمة ، وصحت الحكومة من غفوتها ومن النعـاس الذي حسبته أمنه ، تعـالوا نتـدارس أحداث البلد الافـريقي الشقيق علها تكون لنا درسا ولاخواننا الذين أسفونا عبرة ، فتجربـة قامبيـا ليست ملكا لها وحدها وانما هي ملك مشاع لنا جميعا فالظروف الـداخلية متشابهة والمخاطر الخارجية تكاد تكون متطابقة .

واول ما يلاحظ ان الصـراع بين السلطة ومعارضيهـا في كثير من البلاد وخاصة الافريقية لم يعد صراعا محلياً وانما صـارت له أبعـاد اقليمية بل وعالمية . ولم تعد الانقلابات والثورات والهبات الشعبية احداثا داخلية تتفرج عليها الدول البعيدة والمجاورة ، تتنكر للمهزوم وتلصق به السؤات وتُنحى عليه باللائمة ، وتصفق للمنتصر وتتعجل كسب وده وتتسابق للاعتراف به وتمد له يد الصداقة والرعاية .

والاسبـاب التي أدت الى هـذا التحـول في اهتمـام الـدول بمـا

يحدث خارج حدودها كثيرة متعددة ، على رأسها توازن القوى بين الدولتين العظميين وسعى كل منها لبسط نفوذها على مزيد من اراضي الغير ، وخاصة الاتحاد السوفيتي الذي يريد ان يلحق بالقافلة ، ويعوض ما فاته من اسلاب تتناسب مع منعته العسكرية التي تضاعفت ، ومع وزنه الدولي الذي ازداد ، ومع الانتصارات التي حققها دون مشقة في انجولا وكمبوديا وفي جنوب شبه الجزيرة العربية وفي قرن افريقيا وفي أرض خراسان دون ان ينال عقوبة أو جزاء ، وبعد ان كسب ثله من الاصدقاء المغامرين والاقوياء ، في كوبا وفيتنام وليبيا وانجولا ونيكاراجوا .

ولقد كان لهؤلاء الاصدقاء الجدد منهم والقدامى ، أثرهم الفعال في تحريض قادة الكرملين على المغامرة ، وفي حثهم على الخروج من حالة الانطواء وعدم المبادرة الى الهجوم والمباغتة . . . وكان ان تتابعت الانتصارات وطاب الأمر للرفاق ، وظنوا ان الساحة هاملة ، وان الاسلاب سائبة ، وانهم سينالون ما يشتهون دون مخاطرة أو مصادمة . وقد ساعدهم على ذلك الظن الخاطىء ، الحالة التي كان عليها الرأي العام الامريكي في أعقاب حرب فيتنام ، ونتيجة لفضيحة ووترجيت ، وضعف البيت الأبيض الذي كشفت عنه أحداث ايران .

ولكن الرأي العام الامريكي الان وبعد غزو افغانستان وما لحقه من أذى في ايران ليس حاله كما كان اثر هزيمة فيتنام . فامريكا اليوم ليست هي امريكا الامس . والبيت الأبيض قد خلا من كارتر وشيعته ، وحل به ريجان الذي أيقظ المارد من غفلته ، واطلق للبنتاغون العنان ، وضاعف ميزانية الدفاع لهذا العام حتى بلغت

رقماً يربو عن المائة وخمس وعشرين ألف مليون دولار ، والذي صار يهدي السلاح باليمين واليسار ، ولا يبخل على أصدقائه بأسلحة الحرب وآلات الدمار ، والذي أصدر قبل يومين قرارا بالمضي قدما في صنع قنبلة النيترون غير آبه لمعارضة صديق أو عدو .

وخير للاتحاد السوفيتي ان يرعوي وألا ينصاع لرأي المغامرين من حلفائه وعملائه . والا يتمادى في الأخذ برأي « البصيرة أم حمد » ، والا كانت النتيجة حربا ذرية لا تبقى ولا تذر .

ولعله أفضل له ان يتعايش مع غيره من الدول سلمياً وان يواصل سياسة الوفاق الدولي التي كان ينتهجها قبل أفغانستان . فهو ومهما بالغ من قوته ليس نداً لامريكا وحلفائها ، ولن يكون مصيره غير مصير هتلر وامثاله الذين لم يحسنوا الحساب فكان قَبضُ الريح وخَمَّ التراب .

وخير لليسار في بلاد العالم الثالث وبكل مدارسه أن يتريث وأن يُحكِّم العقل قبل ان يخطو خطوات غير محسوبة يكون فيها هلاكه وضياع مكاسبه التي حققها بعناء وعلى مدى سنين طوال . . . ولتكن أحداث قامبيا درساً تتعلم منه الشعوب والاجيال . . . فالأمر ليس بالبساطة التي تبدو في مجرد الاستيلاء على السلطة بليل أو بالاغتيال ، ثم الاستنجاد بالاتحاد السوفيتي واصدقائه في المنطقة علَّهم يتداركوا الموقف بعد أن تلوح ارهاصات الفشل وبعد ان تدور الدائرة وتتبدد الاحلام . . . ولن يسعف الاتحاد السوفيتي احداً الا اذا اقتضت مصلحته الذاتية ذلك . . . ولعله لن يفعل بعد اليوم وبعد ان كشر المارد الامريكي عن أنيابه وقرر ان يقرن القول بالعمل والتهديد بالتنفيذ .

وتجيء أحـداث قامبيـا لتؤكد من جـديد ، بـل ولتـزيـد ، على تجـربتي اندونسيـا والسـودان في صيفي ١٩٦٥ و ١٩٧١ حيث ظن الرفاق خـطأً أن مقاليـد الأمور ستؤول اليهم بمجـرد الاستيلاء على الحكم إنْ إقتـداراً أو غدراً . . . وكـان قد غـاب عنهم ان المشكلة الكبرى ليست في نجاح التدبير وفي توجيه الضربة الاولى وانما في كيفية احكام القبضـة ، والحفاظ على السلطة ، ان صـح التخطيط ونجحت الخطة .

وربما اضافت محنة قامبيا تجربة جديدة ستبادر كثير من حكومات العالم الثالث للاستفادة منها وهي أهمية وجدوى الدخـول في عهود ومواثيق تؤمِّن ظهرها وتُضفي الشرعيـة لتدخـل الدول الصـديقة في حـالة الاستغـاثة بهـا لرد العـدوان عنها ولصـد محاولات الاطـاحـة بحكمها . . . ولن تعوز تلك الحكومات المسـوغات التي تبـرر بها مواثيق الدفاع المشترك والمعاهدات ، فقد جعل البعض من أراضيه سـاحات لتـدريب المعارضين على حمـل السلاح ، وفتـح خزائنـه لمدهم بالعتاد والمال ، وسخر جنده لتدريب المرتزقة من الرجال .

ولعل تجربة الشقيقة المريرة تضـع حداً لـلاتجاهـات والنزعـات الانتحارية التي صارت سمة مـلازمة لكثيـر من الحركـات اليساريـة المعارضة التي تسيء تقدير الظروف . والتي تبالغ في وقتها الذاتية وتحسب افتئاتاً انها مؤهلة وقادرة على تـوجيه دفـة الأمور فيتملكهـا الغرور ، وتُقبل على ارتكاب الحماقات التي ترديهـا وتؤدي بها في النهاية الى التهلكة ، وتشيعها الى القبور .

وليس أدل على مثل تلك النزعات من حماقة المعارضين في قامبيا فهـذه لم تكن اول مغامـرة لهم فقد كـانت الثـامنـة في ظـرف سنـة

واحدة ، وقد سبق لحكومتها ان استنجدت بالسنغال ، التي تداركت الأمر وقضت على الفتنة في مهدها وفي الحال . وها هي المعارضة تكـرر المأسـاة أما إشبـاعاً لمـاسوشيـة كامنـة أو اعتمادا على وعـود كـاذبة . . . والنتيجـة خمسمـائـة من المـوتى ومئـات من الجـرحى والآلاف من الثكلى واليتامى هم ضحية الطيش والنزق وسوء تقديـر المواقف والثقة بمن لا كلمة له ولا عهد . وهي نسبة عـالية في بلد يقل تعداده الكلي عن نصف مليون نسمة .

ولعل المعارضة القامبية ارادت بفعلتها ونزعتها الانتحارية أن تثبت مقولة العرب « رب نفس عشقت مصرعها » . . . ولعل اصدقاءها قد ارادوا ان يعيدوا للأذهـان تجربـة منافقي يثـرب مع اخـوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب فقد وعدوهم بأن يخرجوا معهم ان اخـرجوا من المدينة وينصروهم ان قوتلوا . . . وقد كذبهم القـرآن الكريم اذ قال : (لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون » .

وبالطبع فان المعارضة القامبية ليست هي وحـدها المسئـولة عن الكارثة الاخيرة فهناك طرف آخر وهو الحكومة التي ساعدت بغفلتها وتعايشها مع مظاهر الفساد على تأزم الأمر وعلى سـوء الحال والتي طار رئيسها الى وستمنستر ، لحضور زفاف أمير ويلز على الآنسة ديانا سبنســر ، ولم يستـطع أن يعــود الى بـلاده الا على أسنــة رمـاح السنغاليين . . . وقد ظلت المعـارضة تقـاوم وبشراسـة مدة تقـارب العشرة ايام ولولا ان كانت لها قاعـدة متينة بين صفـوف الشعب لما استطاعت ان تعيش طيلة تلك المدة ولما استنجدت الحكومة بقوات أجنبية .

ولعل مأساة افريقيا تكمن في وجود بعض الرؤساء الذين يغلبون جانب المنفعة على جانب المسئولية ولا تهمهم الا ذواتهم الفانية والـذين قال عنهم الرئيس نميري في حديثه الاخير لمجلة المصور . . .

« ان من الحكام الافارقة من يعتبرون ان ما يُعطي من اعانة لدولهم هو ملكية خاصة لهم ، كأنها اسلاب تدخل ارصدتهم ، فاذا كانت المعونة طائرات فهي ملكهم ، فكل رئيس افريقي من هؤلاء الـذين أعنيهم يؤمن تماما انه سيقيم لفترة زمنية ثم يترك الحكم راغما ، ولهذا يهمه ان يجمع لنفسه أكبر ثروة في أقصر وقت ، ولا تهمه التنمية . . . ولا تهمه الولايات المتحدة . يهمه من يدفع له فورا . . . ألا تذكرون ما فعلته ليبيا في نيروبي » .

ولا حول ولا قوة الا بالله .

الأيام :
العدد : **١٠٣٦٦**
التاريخ : **٢٢** من شوال **١٤٠١** هـ
الموافق : **١٢** من اغسطس **١٩٨١** م

من وحي مؤتمر العاملين بالخارج
خواطر عن الهجرة والاغتراب

سعدتْ الخرطوم بالقدوم الميمون لنفر كريم من الأحباب ، الذين تعددت بهم الاسباب ، فآثروا الاغتراب . وقد استقبلتهم المدينة والصحاب ، بالبشر واليمن والترحاب .

والاغتراب أو هجرة الأوطان ، الى حين ، ليست ظاهرة خاصة بالانسان . اذ تشاركه فيها كثرة من الطيور وعديد من الحيوان . ولكن هؤلاء أكثر منا ولاءً ومحبة للديار اذ سرعان ما يعودون بعد رحلاتهم الموسمية الى مواطنهم الأصلية . كما انهم أكثر منا انضباطاً وانتظاماً فرحلاتهم جماعية لا يتخلف منهم أحد ، ولا يشذ منهم فرد ، الا اذا اصابه المرض ، أو أقعده الكبر وطول العهد .

وهي أيضا ليست ظاهرة جديدة . فقد مارس الانسان الانتقال والتجوال والترحال من قديم الزمان ، بل ومنذ بدء الخليقة ، ومنذ أن ضرب آدم وحواء في الأرض ابتغاء فضل الله ، بعد ان هبطوا من الجنة التي كانت لهم داراً ومُقاماً ، لتكون الغبراء لهم ولمن خَلَفَهم مُستقراً ومتاعا .

فمنذ قرون طويلة ، كانت هناك هجرات بشرية كثيرة ، فرضتها تقلبات الطبيعة ، كالطوفان والقحط والجدب ، والصقيع والجليد وضرورات البقاء . وكانت في الماضي السحيق هجرات جماعية ثم صارت وقفا على أمم بعينها وقبائل وأسر ثم افرادا .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن طائفة منها . فهناك هجرة نوح الذي صنع الفلك لتجري به وبمن معه ، باسم الله ، في موج كالجبال لتستوي على الجودي وليهبط منها بسلام بعد ان بلعت الأرضُ ماءها ، وأَقلعتِ السماء ، وغيض الماء . وهناك قوم موسى الذين لم يصبروا على طعام واحد فهبطوا مصرا التي تُنبت أرضها بقلاً وقثاءً وفوماً وعدساً وبصلا ، والتي هجروها ليتيهوا في الصحراء سنين عددا . . . ومن قبل كانت قصة يوسف وابيه يعقوب واخوته الذين جاءوا من البدو ودخلوا مصر آمنين بمشيئة الله . . . ثم كان إذن الله لخاتم انبيائه بالهجرة العظمى ، والتي سبقتها هجرة أصحابه الى أرض السودان التي كانوا يطلقون عليها ، وقتها ، اسم الحبشة بعد أن لاقوا من مشركي قريش أذىً ومشقةً وعنتا . . . « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة » .

ونشهد اليوم تدفق اليهود وهجرتهم المتواصلة لأرض الميعاد ، التي كانت مهبطاً للوحي ومهداً للأنبياء . والتي أُسرى بالرسول الكريم الى مسجدها الأقصى ، ثم صعد الى السماء ، وعرج الى سدرة المنتهى ، حيث جنة المأوى . . . ومن قديم وفي صدر الاسلام كانت هجرة اليهود من يثرب الى أول الحشر ، بعد ان شاقوا الله ورسوله فأُخرجوا من ديارهم قسرا . . . واليهود ، « كالحلب » ، والفجر ، يعشقون الترحال والعبور والسفر . . . ومن هنا كانت

تسميتهم بالعبرانيين حيث هيامهم على وجه الأرض وعبورهم المتصل للفيافي والغفر، والوديان والنهر .

ونشهد اليوم ايضاً هجرة المستضعفين من فيتنام وكمبوديا وجنوب شرق آسيا . وهجرة الأفارقة واللاجئين إلى أرضنا المضيافة الطاهرة الساذجة، وهجرة اللاتينيين والخلاسيين من كوبا وغيرها الى فلوريدا حتى ضاقت بهم أرض أمريكا بما رحبت، واخلاق اهلها بما وسعت، وتضجَّر ساستها ومنهم حكيمهم ادلاي ستيفنسون الذي خرج عن وقاره ليقول كلمته التي اشتهرت : « إن البعض يصل الى شواطئنا تحمله الأمواجُ وكأنه زبد بشرى » .

ولكن ليست كل الهجرات مما يضيق بها الناس ذرعا . فمنها المفيد بل الضروري الذي يعين على تنفيذ مشاريع الانماء، وعلى تحقيق عمليات البناء . ومن امثلتها هجرة العمال الاتراك واليوغسلاف الى المانيا، التي خرجت من الحرب منهوكة القوى . فكان هؤلاء لها بلسماً شافيا، مما أكسبهم لفظ العمال الضيوف الاعزاء . وهي صفة اطلقها عليهم الالمان اعترافا بفضلهم وتقديرا لاياديهم البيضاء . ومن امثلتها ايضا هجرة بعض ابنائنا الى دول الخليج والسعودية وليبيا، التي كانت تشكو جميعها من قلة الأيدي العاملة، والتي حباها الله بالخير العميم الذي تبطنه ارضها، وبالثروات الذاخرة التي يدثرها بحرها .

وبالطبع فليس كل من بارح ارضنا وأغترب يفيد الغير ويثرى الحياة . فمنهم قلة خرجت من البلاد، تحدوها الآمال العراض، فوجدوا الغربة جحيماً لا يطاق . ولكن صعبت عليهم الرجعة، فآثروا البقاء على العودة . وخافوا الشماتة، ومقارنتهم بالنعامة،

التي ذهبت تطلب قرنين فجاءت بلا أُذنين ، فآثروا نار الاغتراب على رمضاء البلاد . . . ولعل العِلة التي هاجروا السودان خوفاً منهـا أقل خطراً وأخف وطأة من العلاج الذي قُـدِّم لهم خارجـه . . . وقديمـا قيل : وأخف من بعض الدواء الداءُ .

والأمـل ان تبذل سفـاراتنا وبعض الاخـوة المغتربين الجهـد كله لاقنـاع الآخرين الـذين لم يصيبوا نجـاحـا ان يعـودوا . . . والعـود أحمـدُ . . . . ولعلنا في المؤتمـر التداولي القـادم نفسـح المجـال لمناقشات أعمق حـول أسباب ظـاهرة الاغتـراب ، وضرورة وضـع بعض القيود على هجرة غير المؤهلين للأعمـال اليدويـة أو المهنية بالخارج ، والذين ربما كانوا عالة على البـلاد المضيفة وعبئـاً ثقيلاً على سمعة السودان وكرامته . . . ولكن يجب عدم التوسع في تلك القيود اذ لا بأس من تشجيع العمل بالخارج خاصة لاولئك الذين تنوء بهم دواوين الحكـومـة والمؤسسـات . . . وربمـا فـاقت محـاسن الاغتراب غير المرئية ؛ في هذه المرحلة من تطور البلاد ، تلك التي حددها الشاعر في قوله :

سـافـر ففـي الأسـفـار خـمس فـوائـد

تفرج هم واكتساب معيشة وعلم واداب وصحبة ماجد

ولعله من الخطأ ان نقيس الفوائد المالية التي يجنيها السودان من اغتراب ابنائه على مجرد مقدار اسهامهم في اثراء الجانب الايجابي لميـزان المدفـوعات ، ولـو ان هذا أمـر ضـروري حيث احتيـاجنـا للعملات الحرة التي تعيننا على مواصلة مشاريع التنمية وعلى الوفاء بالتزاماتنا التي تفرضها خدمة الديون والقروض التي تحصلنا عليهـا

دائرة الشئون الاقتصادية والاجتماعية بالاتحاد الاشتراكي للمؤتمر التداولي ، أن تحويلات المغتربين في زيادة مستمرة اذ ارتفعت من حوالي المليون جنيها وربع في عام ١٩٧٣ الى ثمانية واربعين مليون جنيها في عام ١٩٨٠ ، وان مرد تلك الزيادة الملحوظة الى الحوافز التي تقدمها الدولة وتغيير سعر صرف الجنيه السوداني . . . ولكن وبالطبع فان الارقام التي قدمتها الدائرة المذكورة لا تمثل القدر الحقيقي للعملة الصعبة التي دخلت البلاد على أيدي الاخوة الذين يعملون بالخارج . وستظل تلك الارقام الرسمية اقل كثيرا من طموح الدولة ومن توقعاتنا مهما كان مقدار التغيير الذي يطرأ على سعر الكمبيو أو الصرف طالما كان هناك سوق أسود للعملة ، فسعر الدولار في تلك السوق اليوم مائة وثمانية قرشا بينما يتدانى سعر البنك الى ثمانين ، وسيجد البعض منفعة دنيوية مباشرة وعائداً أسرع في التعامل مع السوق السوداء ، ولذلك سينصرفون عن التعامل مع البنوك وحتى عن الاسهام في مشاريع التنمية والخدمات والتأمين . . . ومن هنا كانت ضرورة الاهتمام بمحاربة تلك السوق محاربة حازمة وجادة . ولعل في هذا الضمان الحقيقي لجدوى وفعالية القرارات الجيدة التي أقرها المؤتمر التداولي الأول للسودانيين العاملين بالخارج وعلى رأسها المساواة بين الجميع في تحمل الاعباء الضريبية والغاء القرار باستقطاع عشرين بالمائة من الدخل الذي كان يقع عبء تنفيذه ، في الواقع ، على كاهل الاخوة

المعارين وحدهم ، وهم قلة ، حيث سهولة وامكانية معرفة دخولهم الحقيقية من الجهات الحكومية والمؤسسات الرسمية المتعاقدة معهم بالخارج ، أما أغلبية المغتربين الذين يعملون في مؤسسات خاصة فيصعب معرفة دخولهم الحقيقية اذ ربما لجأ البعض ، ونقول البعض ونحرص على الاستثناء ، الى تقديم شهادات من مخدميهم لا تثبت حقيقة كسبهم مما يضعف حصيلة الدولة والعائد المستحق للخزانة العامة .

لقد وفق القائمون بأمر المؤتمر في الدعوة والاعداد له . وقد نجح المؤتمر في ازالة الغشاوة عن أعين البعض الذين أثرت عليهم الدعايات المغرضة عن الحال التي عليها البلاد . وقد كانت مداولاته جادة ، وقراراته مثمرة . وتبقى ضرورة مراقبة تنفيذها ، وملاحقة المشاكل التي تطرأ ، ومداومة الاتصال بتجمعات العاملين .

ولكن ومهما كان من أمر هجرة بعض المواطنين الى الخارج ، فان المشكلة الكبرى والتي تستحق اهتماما أكبر هي مشكلة الهجرة الى داخل البلاد التي استفحل أمرها والتي ستطيح بكثير من مكتسبات البلاد وبانجازات الثورة ، ان لم نتدارك أمرها ونضع حداً لسيل الوافدين الذين يتكاثرون كبغاث الطير . . . والى حديث آخر نعالج فيه المشكلة ان اذن الله وشاء .

الأيام :
العدد : **١٠٣٧٣**
التاريخ : **٢٩** من شوال **١٤٠١** هـ
الموافق : **١٩** من ابريل **١٩٨١**

كي لا ننتحر كأمة

لعلنا لا نتعدى الحق ولا نتجاوز الحقيقة ان قلنا انه ما من عبء شديد الوطأة يثقل كاهلنا كأمة ، وما من مشكلة تهدد أمننا القومى واستقرارنا السياسي وكياننا الاجتماعي ، مثل مشكلة الوافدين الذين يقتحمون علينا الدار من كل الابواب ، لا يصدهم صاد ، ولا يردهم راد ، ولا يحول دون هجرتهم حائل . فهم يتدفقون على بلادنا كالماء المنهمر ، وكسيل العَرِم . ويهيمون على وجوههم في الاحياء والقرى والحضر ، كالجراد المنتشر . يتكاثرون كالعنّاب ويتسَكعون في الأسواق والطرقات ، شيباً وشباب وكواعب أتراب ، يعيثون في أرضنا الفساد وينهبون خيرات البلاد . ونحن جميعا حكومة وشعباً ، مؤسسات دولة وتنظيمات ثورة نقف مذهولين حيارى ، لا نستبين الطريق كالسكارى وما نحن بسكارى امام هجره انتخلف ، وغزوته الضارية التي تقضي على مكتسبات الشعب ، وتجهض انجازات الثورة ، وتدوس بأقدامها على تراث الأمة .

ولا نبتغي من هذا القول إيغاظ الفتنة وإثارة العداء ضد جيراننا

الذين تسيبوا في هذا الطوقان البشري عن غفلة أو عنوة . ولكننا لا نريد ان ننتحر بصمتنا كأمة ، ولا نريد ان نُقدِّم أنفسنا في صحائف من ذهب ، أكلة شهية للتخلف العقلي والحضاري ، ولا لقمة سائغة للمنتفعين منه والمتربصين بنا .

ونحن لسنا كمهندس الكلام شاعر العرب نزار الذي وقف قلمه حائرا مام خيارين لم يجد لهما ثالثا ، إما ان يهادن السوس ويعقد معه معاهدة أمن مشترك ، واما ان يضرم النار في الغابة . . . فما بنا من حاجة للمساومة على حقوقنا والمهادنة ، ولا رغبة لنا في اشعال النار والمجابهة . . . كل ما نريد ان يعود الوافدون الذين دخلوا البلاد خلسة وبغير وجه حق الى قواعدهم التي قدموا منها . وان يقبل اللاجئون الذين اضطرتهم الظروف مبارحة بلادهم الى الالتزام بقوانيننا وبقواعد العرف الدولي التي تحكم سلوك اللاجئين وتصرفاتهم في البلاد المضيفة .

وليست هذه محاولة لتبسيط الأمر واخراجه من اطره المعقدة . اذ لا نجهل الاسباب الكثيرة والعوامل المتعددة التي تدعو البعض من جيراننا الى الملاذ بنا وللمهاجرة . فالظروف السياسية السائدة في بعض البلاد المجاورة تحتم تجاوز الحدود السائبة ،فراراً من الجحيم وضناً بالروح الغالية . . . فافريقيا كغيرها لا تسلم من وجود الحاكم الباغي الطاغية ، الذي لا يتحمل نقدا ولو كان بانيا ، ولا يتعايس مع المعارضة ولو كانت غير جارحة ، فما زال هناك امثال سير فوريز بيرنهام رئيس وزراء دولة الكاريبي غويانا الذي لا يرى بديلا لتصفية خصومه والذي قال قولته الفاجرة « على المعارضين

لحكمي ان يكتبوا منذ الان وصاياهم ، حيث لا مقام لهم معي في هذه الدنيا الفانية » .

ثم هناك القحط والجدب اللذان أصابا دول الساحل في السنين الاخيرة المتواليةِ ، وضنك المعيشة وصعوبة الحياة وعدم التوازن في النمو الاقتصادي والحضاري بين الدول الافريقية المتجاورة ، مما جعل المتقدمة منها نسبيا والقادرة ، محطاً للعيون الغائرة ، وملاذا للبطون الخاوية ، مثل بلادنا الطاهرة ذات الحدود الطويلة الواسعة ، التي يصعب معها التحوط والمراقبة ، والتي حباها الله بأرض طيبة ، خيرها عميم ، وشعبها مضياف كريم .

وليت أمرنا مع الهجرة الوافدة قد اقتصر على مجرد نزوح أفراد وجماعات جائعة ، اذ هناك هجرة مفتعلة ، يستغلها طامعون مردة ، يهمهم تصفية حسابات معنا سابقة . فالسودان بلد يتميز بوضع جغرافي استراتيجي فريد فهو يكاد يحتل وسط القارة التي ترنو لها أبصار دول طامعة ، وهو مهد حضارة قديمة اختلط فيها العرب بالزنج عرقا وثقافة ودما . وهو مفتاح التغلغل في أفريقيا حيث حدوده المشتركة مع دول ثمانية ، وقد فلت فضلاً من الله ونعمة ، من قبضة السوفيت القاتلة ، والذين يسعون جاهدين لدخول أرضه مرة ثانية ، من أبوابه الخلفية بعد أن خرجوا صاغرين من ابوابه الامامية نتيجة جشعهم وسوء تقدير مساحة خطواتهم ومبالغتهم في مدى قوة اعوانهم وعملائهم .

ولم يفقد الروس الأمل في استرجاع قواعدهم ونفوذهم في السودان ، فهم يقفون وراء كل المشاكل التي تثار على حدودنا وتهدد ، من ثم ، أمننا القومي ، ولن يهدأ لهم بال ، الا من بعد ان

يـدقـوا أعنـاق الـرجـال ، الـذين اذاقـوهم المـر في مصـر والسـودان والصومال ، وإلا من بعد ان يردوا لنـا الصاع صـاعين وينتقمـوا من هزيمتهم التي تسببوا فيها بغدرهم ومكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال .

وحماقات الروس كثيرة تدفعهم الى التخبط والمغامـرة ، خاصـة اذا كـانت الارباح المتـوقعة مجـزية ، واستعـادة النفوذ المسلوب في السودان يمثل صفقة رابحة ، فهو كما قلنا مفتاح افريقيا ، ويمكن ان يكون نقطة ارتكاز وانطلاق لدعاياتهم الماكرة في القارة التي يـرتبط بشرقها وغربها وشمالها وجنوبها بطرق برية متعددة . والتي لا زالت ارضها بكراً صالحة لانتشار معتقداتهم الفكرية البائرة وحيث ضعف التيـارات المناوئـة . ثم هناك حـدود السودان الـطويلة على البحـر الاحمر والتي يطل منها حقول الزيت في شبه الجزيرة الطاهرة .

ولعل مجموع تلك العوامل والاسباب تكشف لنا السر في اهتمام الـروس بالسـودان وعدائهم المعلن والمستـور لنظام الحكم القـائم فيه ، ولعلها تقدم لنا ايضا تفسيرا معقولا لتحول ودهم من الصومال الى اثيـوبيـا بـالـرغم من ان الاولى لم تبخـل عليهم بـالتسيـلات العسكرية ، بل منحتهم قاعدة حربية بحرية في مينائها واعلنت قبولها للاشتراكية العلمية كنظرية رسمية للتنظيم الحاكم والماركسية اللينية هاديا ومرشدا . . . ولكن اثيوبيا تتميز وتتفوق على الصومال اذ ان لها حدودا مشتركة مع السودان ولهذا كانت كفة اثيوبيا بالنسبة للسوفيت هي الراجحة .

ان الخطر الذي يحدق بالسودان ويهدد أمنه القومي يتطلب الحزم والحسم في معالجة الهجرة السائبة اذ ربما اندس من بين الوافـدين

مخربون يأتمرون بأوامر المتربصين . . . وقد تلاحظ بالفعل تواجد نفر من امثال اولئك الذين قدموا البلاد قبيل محاولة الغزو الفاشلة في منتصف عام ١٩٧٦ وسكنوا الاحياء وفتحوا الحوانيت وتستروا بمزاولة الاعمال التجارية والحرفية .

ولا يقتصر خطر الوافدين على ساحة الأمن وحدها كما قلنا آنفا ، فهناك المشاكل الاقتصادية التي يضاعفون من غلوائها اذ يتافشوننا في ارزاقنا ، ويقتسمون معنا خيرات البلاد والواردات ، التي ندفع ثمنا لها أصعب العملات . ويزحمون علينا الاسواق والطرقات والمركبات ، ويشاركوننا في الانتفاع بمرافق الخدمات التي تدانت ولم تعد تلبي الحاجات والضرورات .

وليت الأمر يقتصر على الأثر السلبي في ساحتي الأمن القومي والاقتصاد ، فهناك السلوك المشين والقيم الخاسرة الوافدة التي تتنافى مع تقاليدنا الموروثة وسلوكنا وقيمنا واخلاقياتنا ، وهناك الجريمة بكل مستوياتها من جنح ومخالفات . . . البغاء يمارس سراً وعلناً ، والنهب والسلب وقطع الطرق نهارا وليلا ، ولا مغيث ولا مجيب .

اننا مطالبون جميعا ان نضع حداً للعبث بمقدرات البلاد وأن نقف سدا منيعا يحمي ما تبقى لنا من موروثات . . . ولتكن نقطة البداية خلق جهاز من أعلى المستويات يشرف على صد الهجمة الضارية ويعيد النظر في أمر الوافدين . وهي مهمة لا تستطيع وزارة الشئون الداخلية بما تيسر لها من امكانات محدودة أن تقوم بها وحدها خاصة بعد تطبيق نظام الحكم الاقليمي وبعد أن اختلط أمر الوافدين من خارج البلاد بالنازحين من داخلها للعاصمة .

ولعله من الافضل أن تسند رئاسة الجهاز المقترح للنـائب الاول للسيـد الرئيس على أن يضم في عضـويته السـادة رؤسـاء الـدوائـر بالاتحاد الاشتراكي ورئيس جهاز أمن الدولة وحكام الاقاليم ووزيري رئـاسة الـوزراء والشئون الـداخلية ومحـافظ الخرطـوم ورئيس هيئة الاركان ومفتش عام الشـرطة على أن تقـوم وزارة الشئون الـداخلية بمتابعة الاجراءات التحضيرية والتنفذية مثل الاستعانة بـالخبراء في تجهيز السجلات وحصر اسماء الوافدين . . . وبـالطبـع فلن تقتصر مهمة الجهاز على ايجاد الحلول السـريعة لوقف سيل المهاجـرين والى اتخاذ الاجراءات القانونية ضد المتسللين ، وانما يتعدى الأمر الى ضرورة معالجة ظاهـرة الهجرة من الاقـاليم الى العاصمـة والى المـدن التي لم تعد تحتمـل المزيـد ، ولن يكون ذلـك عن طـريق القانون فـالدستـور يكفل لكـافة المـواطنين حريـة التنقل بين ربـوع البلاد ، وربما كان الحل في تدعيم مرافق الخدمات في الاقاليم وفي قيام مشاريع تدر عائدا سريعا يغري الناس على البقـاء في مواطنهم الاصلية .

ونرجو ألا نكون كمؤذني مالطا وألا يكون الاخرون كأصنام مكة لا تسمع ولا ترى ولا تشم ولا تختشى .

الايام :

العدد : ١٠٣٧٨

التاريخ : ٢٦ من اغسطس ١٩٨١

خواطر صفائية

نحن والجامعة العربية

كثيراً ما تساءلتُ عنِ جدوى الكتابة في الوطن العربي . . . وكثيراً ما قلَّبتُ الأمر ورددتُ القول : وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر . . . وكثيراً ما تساءلت مع نزار لماذا نكتب ؟ ولمن نكتب ؟ وكيف نكتب ؟ . . . وكثيرا ما تبينتُ الحكمة في زعمه بأن الكاتب في العالم العربي لا يكتب وأنما يمشي على لوح من الزجاج مكسور وانه امام خيارين . . . اما ان يأكل الزجاج المكسور واما ان يمشي عليه . واما ان ينتحر بكلامه واما ان ينتحر بصمته . . . ولا أمل في أي معاهدة فك ارتباط بين لحم الكاتب وبين أسنان اسماك القرش السابحة في بحر السياسة العربية .

وقد آثرت الكلمة على الصمت ، حتى ولو كانت في نظر البعض مجرد ثرثرة ومضيعة للوقت . وسأواصل المشي بالقلم على الزجاج المكسور الى أن يتهيأ لنا اللوح المسطور أو الرق المنشور ، والى أن يدرك الناس صدق مقولة الشاعر صلاح عبد الصبور ، ان الكلمة كالحجر لا تفنى ولا تموت ، وان هالوا عليها التراب ودفنوها في

الثرى واودعوها القبور ، وانهـا أقدر من الجبـال السود على مغـالبة الزمن ، وأصلب من الصخر الجلمود عند منازلة الإحن .

وحديث اليوم عن علاقتنا بالجامعـة العربيـة التي نرجـو أن يجد أمينها العام الاستاذ الشاذلي القليبي متسعـاً من الوقت لقـراءته فهـو رجـل مشغول البـال ، لا يقر لـه قرار ، دائم السفـر والانتقـال بين عـواصم الجمـال التي ليست الخـرطـوم احـداهـا بـأي حـال من الاحوال . اذ لم تتشرف مدينتنا المعمورة ، بزيارته الميمونة الا في يناير المنصرم حيث شاركنا بهجة أعياد الاستقلال . ولم يعاود الكرة بالرغم من أنها العاصمة التي انبعثت منها الدعوة لضم الشمل ورأب الصدع وجمع الكلمة ، وبالرغم من أنها مقر الرئيس الذي كان أكثر الرؤساء العرب والأفارقة نشاطا وحركـة ، طيلة الشهور التي أعقبت زيارة أمين الجامعة الوحيدة واليتيمة .

وليس هذا من باب اللوم والعتاب ، ولا النقد والحساب ، فنحن شعب يكظم الغيظ ويتجرعـه . ونحن أكرم النـاس عشرة وأكثـرهم حلماً وسخاء ولكننا لا نقبل الظلم ولا نتعايش مع الرياء .

وظـلم ذوي القـربى أشـد مضـاضـة
على المـرء مـن وقـع الحسـام المهنـد

وقصتنا مع الجامعة العربية تبدأ في التاسع عشر من يناير ١٩٥٦ عندما وافق مجلسها بالاجماع على قبول عضـوية السودان . وكان وزير خارجيتنا طيب الذكر ساكن الجنان ، رائد الفكر وساحر الكلمة والبيان ، الفتى الذي قـل ان يجود بمثله الـزمان الصـادق الصدوق المبـارك بن زروق ، قد أعلن في البـرلمـان في الجلسـة التي تلت مباشرة اعلان الاستقلال رغبة البلاد في الانضمـام لموكب الاشقـاء

العرب . وكان السودان بذلك ثاني دولة بعد ليبيا تنضم الى الدول العربية الست المؤسسة للجامعة العربية وهي مصر والعراق ولبنان وسوريا والاردن والسعودية . ومنذ انضمام السودان الى الحظيرة وعلى اختلاف حكوماته المتعاقبة الكثيرة التي تداولت حكمه لم يضن بمال ولم يبخل بجهد بل كان في كل العهود في طليعة الدول العربية تلبية للنداء ، بذلا وعطاء . وضع كل امكاناته ومقدراته مالا ورجالا وغذاء تحت امرة الشقيقة مصر عندما تعرضت للهجمة الاستعمارية الثلاثية الضارية ، وكذلك فعل في حرب الايام الستة عندما ابتليت مصر وسوريا وتعرضتا للغارة الاسرائيلية الظالمة . وكانت الخرطوم الداعية لمؤتمر القمة العربي الذي انعقد بها اثر الهزيمة والنكسة ، الذي جمع الكلمة ، وردَّ الروح ، وبدد الظلمة . والذي كان نقطة انطلاق للبعث الجديد . الذي جبر الجناح المهيض . ورد الاعتبار الذي تمثل في انتصار رمضان المجيد .

وفي ايلول الأسود وابان محنة الفلسطينيين وما أصابهم على يدي الحسين ، غامر رئيس السودان بحياته مرتين . فقد كان هو الذي وقع عليه اختيار الزعيم الراحل عبد الناصر من بين سبعة رؤساء عرب وثامن هو رئيس وزراء تونس التي ينتمي اليها الاستاذ القليبي ، ليرأس الوفد الذي كلف بالسفر الى عمان للتباحث مع الملك حسين لوقف الاعتداء على الفدائيين . وبالفعل سافر نميري الى عاصمة الاردن في ظروف بالغة الخطورة والشدة ليعود للقاهرة ثم يسافر ثانية خلال ساعات ، لينقذ حياة ياسر عرفات .

وكان عبد الناصر رجلاً يعرف أقدار الرجال ويرد الجميل ، فقد أصر ان يخاطب رئيس السودان وحده دون سائر الزعماء الأمة العربية

عن طريق مؤتمر صحفي يبين لها ابعاد الأزمة التي تحيط بها والدرك الذي تردت فيه بفعل بعض ابنائها الذين يسارع اليوم بعض قادة الجامعة العربية الى زيارتهم والتمسح بأعتابهم . . . ولا نقول ذلك تجنياً ولا افتراءً ولا منّاً ولا أذىً كما يفعل غيرنا بطراً واختيالا . ولكن ساءنا مالا حظناه من اهمال أمين عام الجامعة العربية لأمر الدعوة التي انبعثت من الخرطوم أمسية بداية احتفالاته بعيد ثورته لعقد مؤتمر يناقش الحالة التي أضحت عليها أمة العرب وليتدارك الداء قبل استفحاله واستحالة علاجه .

والسودان بتلك الدعوة لم يكن لينطق عن غرض ولا هوى فقد كان رائده مصلحة العرب جميعا . ولم يكن دافعه لها اعتبارات عاطفية أو تكتيكية ولا حتى استراتيجية ذاتية ، وانما كان مدخله لمعالجة الأزمة قناعته بأن اللجوء الى الاجراءات الادارية من عزل وفصل ومقاطعة لحسم الخلافات السياسية والايدلوجية لا يسيء الى سمعة الدول العربية فحسب وانما يقلل من وزنها ويضعف من حجمها الدولي ويعوق نموها وتطورها . . . ومن هنا كانت دعوته للرؤساء العرب للجلوس مع الرئيس السادات ولاعادة النظر في أمر مقاطعتهم لمصر . . . ومن هنا كانت ايضا جرأة رئيسه الذي لم تمنعه متطلبات كرم الضيافة وضرورات حسن الاستقبال من ان يخاطب رئيس مصر بكلمة الحق وبصوت العقل :

« اقول لك يا أخي انور انك قد استعدت ارضا مصرية الا انها أرضاً عربية ومع ذلك فان ما تبقى من الأرض العربية المحتلة مازال تحت الاحتلال والقهر ، ومازال عرضه للعدوان والبطش بل مازال المزيد من الأرض العربية موضعا للمطامع الاسرائيلية . . . أقول لك

يا أخي انور ان مكان مصر في الأمة العربية ومع الامة العربية وللأمة العربية . فاذا كان قد امكن تجاوز عداء سنين فكيف لا يمكن ان تتجاوز خلافات شهور ، واذا كان قد أمكن عبور حواجز الكراهية فكيف يمكن ان تتجاهل أواصر القربى » .

وقد ساءنا أيضا اهمال الجامعة العربية لدور السودان في مؤتمر منظمة الدول الافريقية الذي انعقد في نيروبي في يونيو الماضي وهي التي تعلم جيدا ثقل وزن السودان في افريقيا وجهد رئيسه ومثابرته لاحلال السلام في ربوعها ومحاولاته الجادة لا يجاد حل للقضية الارترية ومساعيه الحميدة المتواصلة لتحقيق الصلح بين اثيوبيا والصومال التي هي عضو بالجامعة العربية ، وسعيه الحثيث لانقاذ سمعة العرب في افريقيا بعدما أصابها ما اصابها في تشاد . . . كل ذلك لم يحرك ساكنا لأمين الجامعة العربية الذي كان يفضِّل الانتقال بين لندن وباريس ومقابلة السيدة تاتشر على زيارة الخرطوم التي كانت ولا تزال بحق واسطة العقد وجسر المحبة بين العرب والافارقة . . . ولعل حزّنا الشديد وصيفنا القائظ هو الذي صرف السيد الامين العام عن زيارة بلادنا ولذلك اكتفى بارسال مستشاره السياسي السيد منصف الماي الذي شرف الخرطوم في الثاني عشر من يوليو الفائت والذي بارحها بعد سويعات من مقابلته لوزير خارجيتنا .

والغريب في الأمر أنه لا الأمين العام ولا معاونيه الحاليين قد حاولوا استغلال مؤهلات السودان ووضعه المتميز في افريقيا والتنسيق مع نشاطه الواعي والمدرك لخبايا السياسة الافريقية ومغاليقها بالرغم من أن موضوع التعاون العربي الافريقي يكاد

يجلس ومتمهلاً على رأس أجندة كافة اجتماعات مجلس الجامعة . ولم يشأ الأمين العام الاستفادة من الكوادر السودانية المقتـدرة ذات العلم والدراية الكافية بالقارة علما بأن نفراً منهم كان قـد تجول في ربوعها ممثلا للجامعة في عهدها القديم وان أول من اسهم في ارساء أساس القسم الافريقي برئاسة الجامعة العربية وشارك في وضع لبنته الأولى كان شابا سودانيا هو الاستاذ على ابوسن الذي انقطعت صلته بها الآن ، والذي ألف كتيبا ممتازا عن اصـالة العـلاقات الافـريقية العربية .

وثمـة أمر آخـر من جانب أمـانة الجـامعة العـربية يثيـر الدهشـة والعجب وهو موقفها من نشاط السـودان في اجتماع لجنـة الحكماء الذي انعقد اخيرا بنيروبي والـذي كان ينـاقش قضية تتصـل اتصالا مبـاشرا بعـرب المغرب الافـريقي وهي قضية اطـرافها المبـاشـرون المملكة المغربيـة وجماعـة البوليسـاريو وغيـر المباشـرين موريتـانيا والجزائر وجلهم اعضاء بالجامعة العربية . ولا يستطيع مكابر ان ينكر دور السـودان في ذلك الاجتمـاع فقد كـان رئيس السـودان بمثـابـة الدينمو المحرك له بل وفارس حلبته وكانت الاقتراحات التي تقدم بها محل اعجاب واحترام اللجنة التي عرفت باسم لجنة الحكماء . ولم نسمع وللآن كلمة اشادة واحدة بل ولا تعليقا من الجامعة العربية .

وهناك ايضا الصمت المطبق من جانب الجامعة عن الرسالة التي أودعها لها السودان والخاصة بتأزم المـوقف بينه وبين اشقـائنا قـادة النضال الفلسطيني . . . وبالطبع لم نكن لنطمع في انحياز الجامعة لنا ولكننا كنا نتوقع ان تثير محتويات الرسالة في اجتماعاتها بغـرض تصفية النزاع ومحاولة اصلاح ذات البين بالعدل والقسط .

وليس اخيرا موقف الجامعة من الأزمة القائمة بيننا وبين العزيزة ليبيا والتي بلغت حدتها درجة تنبىء بخطر عظيم . . . وكان حرياً بالجامعة العربية ان تتدارك الأمر بمحاولة ايجاد صيغة تصفي النزاع وتضع الأمور في نصابها . . . ونقول ذلك بالرغم من معرفتنا ان تجربتها في مجال تصفية أسباب النزاع بين الدول العربية ان حسبت بالعدد تساوي صفرا .

ومرة اخرى نكرر اننا لا نقصد من هذا الحديث تجريح أحد أو التنفيث عن حقد دفين وانما هي صرخة ألم . . . فنحن كما قال الشاعر عن نفسه :

ولا احمل الحقد القديم عليهمو
فليس زعيم القوم من يحمل الحقدا

الأيام :
العدد : ١٠٣٩١
التاريخ : ١٠ ذو القعدة ١٤٠١ هـ
الموافق ٩ سبتمبر ١٩٨١ م

النفوس المجدبة

أن ينقد الناس تصرفات السلطة بصدقٍ أمر مطلوب . وأن يبذلوا لها النصح أمر مرغوب . وأن يقوِّموا اعوجاجها أمر مشروع . بل من حقهم أن يضيقوا بها ذرعاً ، وألا يطيعوا لها أمراً ، ان تجاوزت حدود الله . فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وان يسمعوها كلمة الحق ان تجاوزت الصواب ، فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر . ولكن أن يظهر لها البعض الوفاق ويبطن النفاق ، وان يُبدي الود ويخفي الحقد ، وان يحتمي بالنقد ويترصدها بكل مرصد ، فهو أمر آخر .

والمدينة تزخر بهذا البعض ، الذي أصابه المرض ، وأعماه الغرض ، فأصبح لا يرى في كل جهد نافع وفِعل الا عبثاً ضائعا وهزل ، وفي كل سانحة حزم عزم الا اهداراً للحقوق وتسلطاً وظلم .

ولعله ما من حدث أظهر غربة فكر هذا النفر الذي اتخذ من مجالس الانس والسمر منتدى للجدل البائر والقول المنكر مثل

اجراءات تفريغ العاصمة من المتبطلين والمتسللين والمتربصين ، وتطهيرها من أوكار الجريمة ، وبؤر الرجس ، وتزكيتها من رائحة الرذيلة وآثار الدنس . فبقدر ما سعدت أغلبية المواطنين بتلك الاجراءات التي لم ستتهدف غير الطفيليات المحسوبة على دنيا البشر ، التي ارهقت حياتنا وزادتها عسرا على عسر ، والتي لم نكن نسمع منها الا لغوا ونكرا ، ولا نسمع عنها الا فاحشة وشرا . . . وبقدر ما التقت كلمة بسطاء الناس على جدوى تلك الاجراءات ونفعها ، بقدر ما اعتبرها بعضهم جهداً ضائعاً وعبثا ، وجعلوا منها مواضيع للتندر والتهكم على السلطة التي يأكلون على مائدتها نهاراً وينهشون عظامها في مجالسهم ليلا . . . فشخصيتهم شخصيات احداها تأنس للحكام ضحى ، والأخرى تمقتهم مساء ، واحكامهم تحددها المنفعة ان اعطوا منها رضوا ، وزيَّنوا كل قبيح حسنا ، وان لم يعطوا انقلبوا ساخطين كالمنافقين الذين كانوا يلمزون الرسول الكريم في الصدقات . . . ومصلحة الشعب لا تعنيهم في كثير ولا قليل . وهي ضائعة بين ايديهم السفلى لا يأبهون بها ولا يقيمون لها وزنا . وهم لا تعوزهم الحجة القاصرة ولا المنطق الاعرج . فلكل مقام مقال ولكل حدث حديث ولكل واقعة تفسير أو تبرير . فاللسان « الفلقة » رهن الاشارة والكلمة المنمقة طوع الارادة . وقد كانوا يقولون قبل بداية الاجراءات الاخيرة ، ما لهذه الحكومة غافلة غائبة ، لا نكاد نحس لها وجودا في العاصمة ، حيث الاسواق « هايصة » ومرافق الخدمات قاصرة ، وحركتها فاترة ، وحبل الأمن فيها منقطع ، وما من عين لها ترى ولا أذن تسمع ، الجريمة فيها منتشرة ، والسلع منعدمة ، والمتبطلون والمتسللون يعيشون فيها فساداً ويعربدون في احيائها كالحمر المستنفرة . . . ولكن وما أن كثرت

الضارة وللنكد ، حتى ارتفعت نفس الاصوات العاجزة لا لتثنى على الجهد ، ولا لتطلب مزيدا من الحسم والحزم ، ولا لتحشد الناس وتثير الهمم ، وانما ارتفعت غاضبة ناقمة على الحكومة التي أهدرت الحقوق وتجاوزت الدستور الذي كفل للمواطنين الحق في التنقل والعبور ، ومشفقةً على قيم البلد ، المتمثلة في الكرم والحفاوة بالضيوف الذين هم المتسللون ، وحانية على المجرمين والمتبطلين والوافدين الذين أصبحوا بين غمضة عين وانتباهتها مواطنين صالحين . . . ومنذ قديم قيل اللي اختشوا ماتوا . . . وهؤلاء الناقمون ليسوا بالطبع منهم ، فهم لا يختشون ولذلك فهم احياء يرزقون ، يعرفون ظاهراً من القول وينكرون باطنه ويتجاهلون طيبه . يجادلون في كل أمر بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، يدفعهم الهوى ويستهويهم الرأي المثير . فلا هم قرأوا الدستور المفتري عليه ولا هم اطلعوا عليه وان فعلوا فما ادركوا معناه ولا استوعبوه . فليس ثمة نص فيه يسمح بأن يكون البلد نهباً لكل من هب ودب . وليس ثمة نص فيه يبيح عبور الاراضي والحدود ، بدون ضوابط وبلا قيود . أما المواطنون فحقهم في التنقل مكفول ، وكل الذي حدث أن السلطة تريد أن تتحقق من هوية السابلة التي كانت تزحم الأسواق وتثير الرعب في ربوع البلاد لتكون على بينة من الأمر ولتتخذ الاجراءات المناسبة التي يقررها القانون الذي يحدد سبل التعامل مع المتسللين الوافدين ، ويرسم الطريق لمعاقبة المتبطلين المفسدين ولو كانوا من أهل البلد والمواطنين .

أما التباكي على القيم التي مظهرها الكرم الذي جبلنا عليه والذي عرفنا به ، فهو أمر مردود . فنحن لسنا أمة من الهبل تسكت على تجاوزات الغير ونسمح للآخرين ان ينتهكوا حرمات البلد ويفعلوا بنا ما يشاؤ ون ليقال عنا أننا كرماء لضيوفنا .

لقد عانينا كثيرا من مقبة الشعارات ، التي ظللنا نرددها كالببغاوات . . . وان كان لشعار « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا » الذي اطلقناه عشية الاستقلال ما يبرره في ذلك الوقت فليس له من سبيل اليوم . وهو شعار رددته الابواق الرسمية لحكومة ذلك العهد لتبرر به المكافآت المجزية والمعاشات الطائلة التي دفعتها لرجال الادارة الاستعمارية من البريطانيين لتشتري به صمتهم وعدم مقاومتهم لاجراءات الجلاء وارساء قواعد الاستقلال .

وبالطبع فلن ينكر علينا غيرنا وحتى جيراننا حقنا في تفريغ العاصمة وسواها من مدن البلاد من الوافدين والمتسللين .

ولعل البعض منا الذي عمل في بعض الأقطار الافريقية أو تسنت له زيارتها قد لاحظ غلظة المعاملة للأجانب ، والشدة التي تأخذ بها تلك الدول الوافدين الذين يخالفون نصوص القوانين . ولقد بلغ الأمر عند البعض ان يكتبوا على جدران منازلهم وسياراتهم بالخط العريض « انها بلادنا فان عجبتك فاهلاً وسهلا وإلا فبارحها غير مأسوف على فراقك » ومنهم من يتجاوز ويكتب « إنها بلادُنا لا خيار لك إلا إثنين إما أن تحبها وإما أن تغادرها فوراً مذموماً مدحوراً » .

ونحن لم نفعل ذلك ولن نفعله . كل ما نريد ان نطهِّر بلادنا من الجريمة الوافدة ، ومن شرور ولئام الذين لا يرعون حرمة البلاد التي تأويهم وتحسن اليهم من امثال تلك العصابات التي كشفت عنها

اللثام صحيفة الايام . والتي كانت تثير الرعب في الاسواق وترتكب كل انواع الحماقات والجرائم والجنح والمخالفات ، تفرض الاتاوات وتبتز الأموال من التجار تحت تهديد السلاح الابيض والناري ومحذرة لهم من اللجوء الى السلطات ومن ابلاغ الشرطة .

اننا مطالبون جميعا بأن نشد من عضد المسئولين الذين يشرفون وينفذون حملة القضاء على الجريمة والتبطل والتسكع ، والتي بدأنا نجني ثمارها متمثلة في توفر بعض السلع واعتدال اسعارها وفي انحسار موجة الجريمة التي تدانت الى ربع ما كانت عليه قبل بداية الاجراءات الاخيرة . ونحن مطالبون ايضا باليقظة والحذر فالجريمة لها أساليبها المتغيرة فهي تتكيف مع الأحوال والظروف . وعلينا ان نلاحقها في شتى صورها وفي كافة المجالات البديلة التي تختارها . وعلينا ان نلاحق المتسللين الذين يندسّون في الاحياء والذين لازالت اعداد كبيرة منهم تختفي مترقبة الفرص لتظهر مرة اخرى ولتعبث من جديد . والتي ستبذل الجهد الجهيد للحصول على ما يثبت لها حق المواطنة . . . وربما اقتضى الأمر من جانب السلطات ان تعيد النظر في أمر بطاقات الشخصية التي يكفي للحصول عليها مجرد ابراز شهادات الجنسية . حيث ان بعضا من هذه الشهادات قد تمت حيازتها بطرق ملتوية ولا نقول عن طريق افساد الذمم ، وشراء النفوس الضعيفة التي تحنث باليمين والقسم ، والتي تشهد زورا على صدق الوقائع وعلى توافر الشروط المطلوبة كمؤهل لحيازة الشهادة التي تثبت الانتماء لأرض الوطن .

الأيام : العدد : ١٤٠١

التاريخ : ٢٤ ذو القعدة ١٤٠١ هـ

الموافق : ٢٣ من سبتمبر ١٩٨١ م

رسالة الى الرئيس رونالد ريجان

ما تعودنا التطاول على مقام الرؤساء ، ومخاطبتهم عن طريق الصحف أو عبر الأثير والفضاء . فنحن أمة قد غلب عليها الحياء . وتملكها التواضع فآثرت الهدوء على الضوضاء . تأبى الزحام وتستأنِي ولا تَسقِي حتى يُصدِرَ الرعاء . . . وإنْ كان ليس ثمة ما يحول بيننا وبين مخاطبة المقام الرفيع ، دون وسيط أو شفيع ، كتابة أو قولا ، فالناس عندنا سواسية لا تمايز بينهم الا بالتقوى . ونحن أتباع محمد الذي خطب في الناس جميعا « أيها الناس من كنتُ جلدتُ له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه . ولا يخشى الشحناء من قِبلي فإنها ليست من شأني ، ألا إن احبكم اليّ من أخذ مني حقا ان كان له أو حللني فلقيت ربي وانا طيب النفس » . . . ونحن أصحاب ابي بكر الصديق ، الذي نطق لسانه بالقول البليغ ، « اطيعوني ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » . . . ونحن إخوة عمر الفاروق الذي وقف خطيبا وقال قوله المأثور « أيها الناس من رأي منكم فيَّ اعوجاجاً فليقوِّمه » فقال بعض الناس « والله لو رأينا فيك

اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا » فقال : « الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوِّم عمر بسيفه » .

ولا يمنع طول العهد بيننا وبين الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلنا ، ولا بُعدَ الشُقَةِ بين حالنا وما كانت عليه الخلافة الراشدة من أن نسترشد بهديهم الكريم ، وان نتبع نهجهم القويم ، فلنا فيهم أسوة حسنة وقدوة صالحة .

ولعلني لست أول من وجه خطاباً مفتوحاً وبلغة العرب الى رئيس امريكي . فقد سبقني الى ذلك صديق عزيز هو الاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي ، الذي خط رسالته الشهيرة « من والد الى الرئيس هاري ترومان » . وكان ذلك قبل ثلاثة عقود كاملة من الزمان . وكنا ، وقتها ، نحن وعبد الرحمن ومن سار على دربنا من الرفاق والشبان ، لا نرى الا وجهاً قبيحاً واحداً هو وجه العم سام ، الذي كان رمزا وتشخيصا للأمريكان . وكان قد خفي علينا أن هناك وجهاً آخرا أكثر قُبحاً لبس قناع انسان ، وان كان في حقيقته وجه شيطان ، ولكنه أكثر ذكاء اذ التزم الهدوء واستغل غباء دالس وغفلة ترومان ، وظل يشير بخبث ومن بعيد الى أفعال الامريكان في كوريا وكمبوديا ولاوس وفيتنام ، وتأييدهم لليهود في أرض كنعان . ويبدي الود الكاذب ويظهر العطف المفتعل على الشعوب التي دنس ارضها الاستعمار واذلها القهر والطغيان .

وتتعاقب السنون بطاء وتمر الايام ، لينكشف الماردو ويبدو عارياً وحافياً وغِولاً في بولندا وافغانستان ، ومن قبلهما في برلين وهنغاريا وبراغ والصومال والسودان .

ولكن الاخطاء المتتالية للحكومات الامريكية المتعاقبة ، ومنها ادارتكم أنتم أيها الرئيس الهمام ، والتي لم تتم من عمرها المديد العام ، ومنذ عهد الرئيس وودرو ولسن الذي ظن الناس ، خطأً ، أنه كان داعية للسلام ، والذي احتضن وعد بلفور كما تحتضن الأم الحانية طفلها قبل الفطام . . . تلك الاخطاء المتتالية المتعاقبة لم تترك المجال فسيحاً لجرائم الروس الشنيعة ان تحدث الصدمة اللائقة بها عند اولئك الذين كانوا امثالنا يحسنون الظن بخلفاء ستالين وايفان ، بل اتاحت الفرصة للسوفيت ان يتخذوا منها عازلاً يحجب البصر ، ويصرف النظر ، عن أفعالهم ورداءً يستر عورة الشيطان . وجرأت اعوانهم ليقولوا لنا مالكم ولبولندا وافغانستان ، فها هم الامريكان يؤيدون بالقول المنكر والفعل الآثم جرائم الصهاينة في فلسطين والعراق ولبنان ، ويقفون الى جانب الدولة الباغية في جنوب افريقيا في غارتها الظالمة على انجولا ، ويبررون العدوان . وقد بلغ التطاول بعملائهم ان يشبهوننا بذلك الشقي الذي ينعق بما لا يسمع الادعاء ، والذي يصب جام غضبه على لص اعتدى على أرض بعيدة مملوكة للغير ويترك اللص يصول في أرضه هو ويجول ويفعل فيها ما يشاء .

ويهتز البعض ويقف مبهوراً حائراً امام المنطق الأعرج وسحر البيان ، وتعوزه الحجة امام منكر القول الذي يزينه الشيطان . اذ ليس وجود اللص في الدار يجعلنا نسكت عن فعلته في ارض الغير والجار . . . ويسدر العملاء والاعوان في غيهم ويواصلون الهذيان . . . ولا غرو فهم أهل لجاجة وطول لسان . ويقولون ها هي امريكا تدلل بيجين اللعين كما كانت تدلل من قبلُ سيموزا وشاه

ايران ، وتعترف بحقه المزعـوم في الأرض التي تقع فيمـا وراء نهر الاردن والتي اغتصبها ظلما ، ونالها بالبغي والعدوان ، وان الرئيس ريجان قد تمادى في تعاطفه مع ربيب ابليس ، بالاعتراف له بشرعية اقامة المستوطنات في الأرض التي استحـوذ عليها بـالحرب والغش والتـدليس . وانكم أيهـا الـرئيس ، قـد نقضتم العهـد و[illegible]لتم من التزام بالتمسك بقرارات هيئة الامم التي تقضي بضرورة الانسحاب من الضفة الغربية . وانكم قد تغافلتم عن أهم بنود اتفـاقية منتجـع داؤ ود حول تطبيق الحكم الـذاتي للفلسطينيين . وانكم بمـواقفكم السلبية ، من الانتهاكات الاسرائيلية ، قد جرأتم بيجين على مواصلة اعتداءاته على جنـوب لبنان ، وعلى غـاراته الـظالمة على الاحيـاء الآمنة ببيروت ، وعلى غارته الغادرة على المفاعل الذرية بالعراق . بل يذهب البعض للقـول انكم كنتم على علم بتدبيـر الهجوم على تلك المفـاعل وانكم بـارسـالكم لمنـدوبكم حبيب ، والـذي كـان كالمكوك يزرع الأرض ذهاباً واياباً بين دمشق وبيروت وتل أبيب ، قد اسهمتم في الاعداد للضربة الغادرة وذلك بتحويل اتجاه الأنظار الى وادي البقاع حيث نصب السوريون صواريخ سام .

ويأخذ عليكم آخرون صمتكم ، ايها الرئيس ، ورفضكم التعليق على مشـروع السعوديـة لتحقيق السلام العـادل في المنطقـة والذي يحمل في طياته اعترافاً ضمنياً بحق اسـرائيل في البقـاء والوجـود . ويشيـرون كذلـك الى الصعوبـات التي تجـابـه عقـد صفقـة شـراء السعودية لـطائرات الانـذار والتحذيـر . . . ونعجب جميعا لمـوقف أغلبية اعضاء الكنغرس من المملكة السعودية . وهي التي لم تبخل عليكم بخير ولا مال . وهي التي طوقت اعناقكم بـافضالهـا عليكم

وبجمائلها كما لم يفعل غيرها . فقد ضاعفت انتاجها من النفط لتسد حاجتكم الماسة منه ولتزيد ، حتى اتخمتم وتوفر لكم منه فائض يدرأ عنكم الشرور ويعينكم على تقلبات الايام والدهور . وهي التي تصر ان يكون دفع ثمن النفط بالدولار دون غيره من العملات مما ساعد على توازنه واقالة عثرته . وهي التي تصارع أغلبية الدول الاعضاء في منظمة الاوبك وتقف سداً منيعاً أمام تصاعد سعر بيع البترول . وهي التي ترفض مجرد تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفيتي والدول التي تدور في فلكه . . . انها تفعل كل ذلك ليكون جزاؤ ها جزاء سنمار . فلا زال طلبها لشراء طائرات الأواكس يتعثر لا لسبب معقول غير ان اللوبي الاسرائيلي يرفض الصفقة اذ يرى فيها خطرا محتملا على اسرائيل التي تملك وحدها دون سواها في الشرق الاوسط القنبلة الذرية ، والتي تباشر كل صباح جديد عدوانا جديدا . . . وتبلغ الوقاحة والرذالة والصفاقة ببعض اقطاب اللوبي من الصهاينة واقلامهم المأجورة ان يسوقوا سبباً واهياً يبررون به معارضتهم للصفقة المنشودة ، وهو ان أمين عام مجلس التعاون لدول الخليج الذي تشترك فيه السعودية قد نطق كفراً تستحق عليه المملكة العقاب والجزاء ، اذ وصف الامين العام حادث اسقاط الطائرتين الليبيتين في مضيق سدرا بأنه عمل من اعمال القرصنة .

وبالحق فانكم ، ايها الرئيس ، بمواقفكم هذه انما تسحبون البساط من تحت اقدام اصدقائكم في المنطقة العربية التي تعرفون أكثر من غيركم خطورتها وأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية لكم ولحلفائكم جميعا .

ونفكر في الأمر ونتدبره جليا ، ونرجع البصر كرتين ، ونعيد النظر

مثنى وثلاث ورباع ولا نجد مسوغا لمواقفكم هذه من اسرائيل ومن بقية الدول العربية . . . فاسرائيل قد شبت عن الطوق ولم يعد هناك ما يخيفها فميزان القوى مازال لمصلحتها ثم انكم قد تعهدتم ومن قبلكم اسلافكم بضمان حياتها وبقائها . . . وبالطبع فان في منعتها الذاتية والتزامكم نحوها ما يحول ، دون محاول القضاء عليها . . . اللهم الا اذا جاءها أمر الله الذي لاراد له ولا عاصم منه .

ويحاول البعض ايجاد التفسير لمواقفكم الخاطئة من أصدقائكم العرب . فلا يجدون غير اطمئنانكم لموقف بعض حكامهم الذين تعتقدون ان ارتباطهم بكم ارتباط مصيري لا يستطيعون منه فكاكا ، ولا يقدرون عليه تبديلا ولا تحويلا . والله الاسلام دين المنطقة لن يسمح بمهادنة الشيوعية ولا التعايش معها دعك عن صداقتها .

وربما كنتم محقين ، أيها الرئيس ، في الاطمئنان لحال بعض الحكومات العربية ولموقف الدين الاسلامي من الشيوعية . . . ولكن الأمر ليس بالبساطة التي تبدو منطقاً ومظهرا ، اذ ان هناك حدودا لمقدرة الساسة العرب وقادتهم على الارتباط بكم ، كما ان هناك سياجا يحول دون ارتمائهم الكامل في احضانكم .

ولكي لا يكون الحديث جزافاً ، نسوق طرفاً من تجربة عبد الناصر . فقد كان الرجل في بداية ايامه ، وحتى نهاية عمره ، وفي قرارة نفسه ، عدواً شرساً للشيوعية . ولعله كان أول حاكم عربي ينفذ حكم الاعدام في شخصين هما الخميس والبقري كان الظن انهما قادا اضراباً عمالياً تنفيذاً لمخطط شيوعي ، ولكن كراهيته وبغضه للشيوعية لم يحولا دون ارتباطه بموسكو الذي كان يقول عنها

انها شر لا بد منه ، حيث انكم انتم أيها الامريكان لم تتركوا له خيارا أو بديلا .

وهناك تجربة البعث في سوريا الذي لم تمنعه عقائده ان يوقع اتفاقية عدم اعتداء مع روسيا .

ثم تجربة القذافي في ليبيا والذي كان يجاهر بعدائه للدولة السوفيتية واصبح اليوم أكثر الزعماء العرب ارتباطا بها .

ثم ان هناك الشعوب العربية التي لا بد وان تحاسب حكامها ان ساروا على دربكم الى مالا نهاية . وهي حقيقة يدركها الساسة العرب ولذلك لن يستطيعوا مجاراتكم وانتم تدللون اسرائيل وتغضون الطرف عن جرائمها وتجاوزاتها .

أما عن موقف الاسلام من الشيوعية فهو قطعاً لا يهادنها ولا يستسيغ التعايش مع الالحاد والكفر . وقد حكى لنا القرآن الكريم قصة المسلمين وموقفهم في صدر الاسلام من الحرب بين الفرس والروم حيث غضبوا لهزيمة الكتابيين وفرحوا بعدها بنصر الله لهم . ولكن ذلك لم يمنع دولة الاسلام من محاربة المشركين والكتابيين على السواء ، عندما تطاولا على دين الله .

واخيراً اسمحوا لنا ، أيها الرئيس ، بأن نختم رسالتنا هذه بوصفين جاءا على لسان ابي علي الغالي في كتابه الاغاني ، الأول عن أحق الناس بالمقت ، والثاني عن أحزم الناس ، فقد قال « ان أحق الناس بالمقت الفقير المختال والضعيف الصوال واللعين القوال » وهي أوصاف لا تنطبق على انسان كما تنطبق على بيجين اللعين . وعن الرجل الثاني قال :

« ان أحزم الناس من أخذ رقاب الأمور بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه » .

والأمل ان تتدارك الأمر وتسير على نهج الحزم والعزم ، أيها الرئيس .

الأيام :
العدد : ١٠٤٠٧
التاريخ : غرة ذي الحجة ١٤٠١ هـ
الموافق : ٣٠ من سبتمبر ١٩٨١

لك الله يا مصر

وكـان اليوم الثـلاثـاء ، السـابق مبـاشـرة لـوقفـة عيـد الفـداء ، والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يمنـون أنفسهم بايـام مقبلة كلها خير وبركة وهناء . . . وجموع الحجيـج تغادر ام القـرى ملبية مهللة مكبـرة ، بعد ان طـوَّفوا بـالبيت العتيق الذي جعله الله مَثـابةً للناس وأمنا ، ومتوجهين خفافـا وثقالا الى حيث الحـج عرفـه . . . وإلى مدينة النصـر ، ضاحيـة قاهـرة المعز ، خـرج الناسُ زرافـاتٍ ووحدانا ، وحُشروا ضحى ، فقد كان يوم زينتهم وفرحتهم الكبرى .

وخرج هو في بزته العسكرية متقلداً سيف النصر ومرتـدياً وشـاح العدل والقضاء ، وحاملاً بيمناه عصى المارشـالية التي لا تضـاهيها عصى ، ولا تبـزها الا تلك التي كـان يتوكـأ عليهـا مـوسى ، والتي فضحت السحر ولقفت ما صنع الافكُ من حبالٍ وعصىٍ خُيِّلَ إليـه انها تسعى .

وتلتـه حـرمُـه الفضلى ، سيـدةُ مصـر الاولى ، في أجمـل حلةٍ واحسن بهاء .

ومن بعدها بناتُه اللاتي خرجن في زينتهن وكدن أن يطرن فرحا . وكان كل شيء يشير الى ان اليوم سيكون يوم بهجة وسعدٍ وهناء . وما درى القومُ أن الفرحة لن تتم ، وستنقلب دمعاً ساخناً ولوعة وأسى . وما درى الرجل أن يقوم عرسه سينتكسُ ويكون له مأتما . وما درتِ الفضلى أن نصيبها من السعادة قد إنتهى ، وانها ستعودُ الى بيتها أرملة ثكلى .

وما درت بناته أنهن سيعُدْن من دونه باكياتٍ نائحاتٍ يتامى ، فقد إنفض سامِرُ الدنيا ، وغاب موكب يُسرها ، وقضى فارس الحلبة وصاحب اللواء .

وسبحان الذي يعلم السر وما خفي . والذي خلق الانسان ضعيفاً لا يملك من أمره شيئا . ولا يعرف بأي أرض يموت ، ولا ما تكسب نفسه غدا .

واختلف الناس حوله كما لم يختلفوا على احد سواه . فمنهم الشامت الذي فرح لموته فرقص سادراً طَرِبا ، ومنهم الحاقد الذي أطلق الرصاص في الهواء ، نشوان جزلا . . . ومنهم الذي هزته الفاجعة فذرف الدمع ساخِنا ، وعمَّه الأسى ، وأدمت المأساة قلبه فنزف دما .

وتناسى الشامتون والحاقدون قول الله تعالى « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد افائن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » .

ورحم الله الامام الشافعي الذي أنشد واستشهد :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت
فتلك سبيل لستُ فيها بأوحد

وأثاب الله إبن حيان الاندلسي فهو القائل :

لا الدهر يبقى ، ولا الدنيا ، ولا الفلك
الا على ، ولا النيِّران : الشمس والقمر

وما يضير فتى النيل الأسمر ، ابن مصر والسودان ، لغوُ الشامتين ولا هذيانُ الحاقدين فقد انتقل الى رحاب الله . . . ولعل في قول أمير الشعراء خير العزاء لروحه الطاهرة التي نحسب أن مقامها بين الصديقين والشهداء :

لا تُبالي بحاسد وعدو
آية المجد ان تُعادَى وتُحسد

ونفهم أن يضيق البعضُ ذرعاً بالرجل وهو حي ، وان يكيلوا له السباب وان يصبوا عليه اللعنات وان ينعتوه بما تخيروا من النعات وان يصفوه بما شاءوا من الصفات وهو على قيد الحياة ، وان يأخذوا عليه تعايشه مع الحملة على عبد الناصر وما ترك وخلَّف من سد عال وانجازات ، وان يعيبوا عليه زيارته للقدس وتلاطفه مع بيجين وتوقيعه على اتفاقية منتجع داؤ ود وغيرها من المعاهدات ، وان ينكروا عليه صداقته لامريكا التي كان يعتز بها ويؤكدها في كل المناسبات ، وان يشجبوا اعتقاله لمعارضيه وانتهاكه للحريات .

ولكن لا نفهم هذا الغُل في كراهيته والاشتطاط ، خاصة بعد ان لحق بالرفيق الاعلى وصار في عداد الاموات . . . والرسول الكريم هادينا الى سواء الصراط ، يعلمنا ان نذكر لموتانا الحسنات وان

نلتمس لهم المغفرة والرحمة وان نعفوا عما سلف من هنات وزلات .

ونفهم ان يفرح السوفيت بموت السادات حيث كال لهم اللكمات ، ولاحقهم بالضربات المتتاليات ، وكان كلما التأم لهم جرح منه قديم ، نكأه والحقه بموجع جديد اليم . . . فقد نوَّع السلاح والتمسه من مصادر مختلفة متعددة بعد ان كان استيراده على ما يقارب العشرين عاما وقفا على روسيا وحدها ، ومهد بذلك الطريق امام دول نامية اخرى لتسلك مسلكه وتحذو حذوه فأصاب بذلك من السوفيت مقتلا . وقد كان تصدير السلاح تجارة لهم رائجة رابحة ، تدر عليهم العملات الصعبة النادرة التي يحتاجون اليها لشراء القمح بعد ان تدانت غلة أرضهم التي تحتل سدس اليابسة ، ولاستيراد السلع التي عجزت مصانعهم عن انتاجها رغم مضي أكثر من ستين سنة على قيام المجتمع الذي مافتئوا يزعمون انه يفجر عبقرية الانسان وطاقاته الكامنة . وأردف قرار فك احتكار استيراد السلاح بآخر أشد خطورة واكثر جرحا وايلاما . فقد أخذ السوفيت على حين غرة وأصدر أوامره بطرد جميع خبرائهم العسكريين الذين بلغ عددهم سبعة عشر الفا ، وأتبعه بثالث اكثر حسما . وهو الغاء المعاهدة المصرية السوفيتية ، وكان هذا أيضا قراراً موجعاً مبرحا .

وخيب آمال الروس في انعقاد مؤتمر جنيف لمعالجة مشكلة الشرق الاوسط ، وعمل على عرقلته كيلا يكون لهم فيه موقع . وقد كان هؤلاء يمنون النفس بالجلوس على مقعد رئاسته مشاركة لامريكا وعلى قدم المساواة . وأتبع الاساءة البالغة بالجرح الغائر عندما ولَّى وجهه شَطر واشنطن مؤكداً أنها دون غيرها المؤهلة مع دول المنطقة

للمساهمة في حل القضايا ، وايجاد حل سلمي للنزاع مع الصهاينة ، بوصفهم ربائبها الذين تربوا على حجرها ورضعوا من ثديها . وبوصف الولايات المتحدة شريك كامل وبأكبر نصيب ولانها تملك اكثر أوراق اللعبة السياسية عددا .

ثم كانت قراراته الأخيرة ، التي أصدرها قبل وفاته بأيام قليلة ، والتي طرد بمقتضاها السفير السوفيتي ، ونفراً من حاشيته وافراد القبيلة . واغلاقه لمكتب مصر العسكري بموسكو وانهاء خدمات كافة الخبراء المدنيين من الروس الذين كانوا كارثة وعبئاً ثقيلا . . . وكانت تلك القرارات قاصمة الظهر ونهاية المطاف في مسار العلاقات السوفيتية المصرية التي كان الظن انها ستخلد أو تدوم وقتاً طويلا .

ولعلنا لا نتغول على الحق ولا نصفع الحقيقة ان قلنا ان العالم لم يشهد منذ وفاة تشرشل رجل دولة الحق الهزائم بالروس وسقاهم علقماً ، وحنظلاً ، وماء حميماً قطَّع امعاءهم كالسادات . اذ لم يكتفِ بتقليم اظافرهم ، وتقليص ظلهم ، وتبديد احلامهم في مصر ، بل ظل يلاحقهم بقلمه الحاد ويراعه المقتدر ، لا يكِلُ ولا يملُ ولا يُهادن ولا يحيد ، ويسلقهم بلسان كمقمع الحديد . يكشف حالهم ، ويعرى خباياهم ، ويظهر افلاسهم ويبين ضعف ادراكهم وقصر نظرهم ، وسوء تقديرهم لعواقب الأمور ، بل ويتهكم عليهم ويندد بمصادر معلوماتهم التي قال انهم يستقونها من سوق الخضار او يستلهمونها من بائعي البطاطا وألقرنبيط .

ولعله مما ضاعف من محنة سادة الكرملين وشقائهم بعهد السادات ونهجه ، أنهم صرفوا المال الذي كانوا يضنون به على

شعـوبهم المبتلية بحكمهم ولم يحصـدوا مقـابـلاً لـه في مصـر إلا الشوك . ولم يقبضوا الا الـريح . ولم يجنـوا منها شيئـا غير إدمـان خبرائهم شرب عصير قصب السكر كما كان يقول عبد الناصر .

واذا كـان هذا شـأن الروس وحـالهم مع الـرجل ، وكـانت هذه أسباب شماتتهم وفرحتهم بموته ، فما بال إخواننا العرب يقولون في الـرجل مـالم يقله الاوائل ، والـذي يستحي الحطيئـة وابن الرومي وجرير والفرزدق وبقية جوقة الردح العربي من الهجائيين والفاحشين القدامى والمحدثين أن يأتوا بمثله أو يقولوا شبيها له بعد مماته . . . ومـالهم يتقبلون التهـاني ويتبـادلـون البـرقيـات والـرسـائـل فـرحين باغتياله . . . ومتى كان اغتيالُ فردٍ مهما كبُر مقـامه الـدنيوي وسمى منصبه ، دليلاً قاطعاً على سوء فعله وبرهاناً ساطعاً على كراهية أمته له . . . ومن قبل أُستشهد عمر وعثمان وعلي وهم أصحاب الرسول الكريم ، وخلصاؤه ، وخلفاؤه . . . ومن قبل اغتيل ابراهام لنكلن أحد أبرز رؤساء امريكا والذي حارب تجارة الـرق كما لم يحـاربها احد غيره ، وكذلك كان مصير جون كندي الذي بكاه قومه كمـا لم يبكوا احدا مثله .

والعجيب في الأمر ان الاخوة الـذين فرحـوا لاغتيالـه كانـوا أكثر الناس انتفاعا ببعض قراراته وافعاله ، فقد كان ايذانه بحرب اسرائيل وقراره بالعبور الذي اتخذه قبل ثمانية اعوام بالتمام والكمال من يوم استشهاده ، الذي زغردوا له ، نقطة تحول رئيسية في تاريخ المنطقة العـربية وفي تضخم حجم أمـة العرب السيـاسي وفي اتجـاه أنـظار الـدول صغيرهـا وكبيرهـا نحوهـا ملتمسين رضائهـا وودها وسـائلين عطائها واحسانها ، وفي ازدياد وزنها الـدولي في مؤسسات العـالم

المالية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وفي انتفاخ الجيوب وفي تكديس الودائع والاموال ، من دينار وريال وبترودولار وفي تضخم ارقام ميزانيات الحكومات العربية بما لم يسبق له مثيل في أية حقبة من حقبات التاريخ وبنسبة لم تعهدها أي من دول العالم الأخرى .

والى حرب اكتوبر وانتصار الرجل يرجع الفضل غير المباشر في هذه النهضة العمرانية والصحوة التنموية التي نشهدها في كثير من البلاد العربية . فقد صاحب تلك الحرب ارتفاع مذهلٌ في أسعار النفط ومشتقاته مما حقق للدول المنتجة له ارباحا تخطت ارقامها مئات الألوف من ملايين الدولارات .

لقد عُرف العرب من قديم بعدم القصد والاعتدال في خصومتهم . ولكنهم كانوا يَعرفون حرمة الموت ، ويقفون عنده ، ويجعلون منه حاجزاً يصدهم عن مواصلة الخصومة والعداء . ومن يُضطر منهم الى غير ذلك فانه يتناول خصمه الذي مات برفق وتورية وحياء . . . ولكن خلف من بعدهم خَلْفٌ فرَّطوا في التراث.وأوشكوا ان يكيلوا التراب على هامات القيم المتوارثة وعلى كل ما ترك الجدود والاباء .

وليت الاخوة العرب والابناء ، يوقفون الحملة على الرجل ، فكفاه ما لقي وهو حي من أذى ، وكفاه ما احتمل . فهو الآن عاجز عن الرد كما كان يفعل . ورحم الله المتنبي اذ يقول :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه
غذاء تضوي به الأجسام

وليتهم يوقفون الحملة على خليفته المرتقب الذي ناصبوه العداء ولما يتبوأ رفيع المنصب . وليتهم يبقون على شعرة معاوية ان كان قد بقي منهـا شيء . وليتهم يستمعون لـلامـام علي وهـو يـوصي ابنـه الحسن :

« . . . وان أردت قطيعة أخيك فاستبقِ له من نفسك بقيةً ترجـع اليها ان بدا له ذلك يوما ما . . . ولا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان » .

وكرَّم الله وجه علِّي ، ورضي عن أبنائه أسباط الرسول الكريم . ورحم الله السـادات فقد كـان فقده فقـد أمة . . . ولـك الله أيتهـا العزيزة مصر .

الأيام :
العدد : ١٠٤١٧
التاريخ : ١٦ ذو الحجة ١٤٠١
الموافق : ١٤ من اكتوبر ١٩٨١

ذكرى وعد بلفور

في مثل هذا اليوم الرابع من نوفمبر ومنذ اربعة وستين عاما كان اعلان وعد بلفور الذي رخص بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

ولا نجتر ذكرى ذلك اليوم المشئوم لنتحسر ونندب حظنا كالنائحات والثكالى ، اللائي فقدن عزيزا مات وقضى . ولا لنتباكى كما يفعل اليهود في اورشليم القدس وعند حائط المبكى . ولا لنلطم الخدود ونشق الجيوب كدأب الاشياع في النجف الاشرف يوم ذكرى كربلاء . وانما لنتدبر الأمر ونتناجى ، ولنتلمس المخرج ونضع حدا للمأساة . . . عسى أن تنفعنا الذكرى .

والرجل ، هذا اللعين ، الذي جاء على لسانه الوعد اللئيم ، كان وزيرا لخارجية بريطانيا العظمى وكان اسمه بالكامل اللورد ارثر جيمس بلفور . وكانت حكومته قد اتخذت قرارا في اليوم الرابع من نوفمبر ١٩١٧ يسمح لليهود باقامة وطن قومي لهم في فلسطين والتزمت ببذل قصارى الجهد لتحقيق الأمر . وقد سجل اللورد ذلك

القرار في خطاب وقعه بوصفه وزيرا للخارجية وبعث به الى كبير سحرة اليهود آنذاك ، رجل المال والأعمال ، اللورد روتشيلد .

ولم يفت على الحكومة البريطانية ان تُضمِّن القرار تحفظاً يعترف بالحقوق المدنية والدينية للقوميات الأخرى غير اليهودية . وقد هدف الانجليز من وراء ذلك التحفظ الى تهدئة تلك القوميات حيث ان جيوشهم بقيادة اللورد اللنبي كانت قد بدأت معركتها العسكرية لطرد الاتراك من القدس .

وسرعان ما تلقف ودرو ولسن رئيس الولايات المتحدة القرار واحتضنه ، وكذلك فعلت كل من الحكومتين الفرنسية والايطالية . وتم توثيقه نهائيا في مؤتمر الصلح الذي انعقد بباريس في عام ١٩١٩ . وكُلفت بريطانيا رسمياً من جانب المؤتمر بتنفيذ القرار بعد ان أسندت اليها الوصاية والانتداب على فلسطين .

وقد ذكرت غولدا مايير رئيسة وزراء اسرائيل السابقة واحدى أبرز مؤسسي دولة الصهاينة في مؤلفها « حياتي » : ان الانجليز كانوا يهدفون من وراء وعد بلفور لكسب تأييد اليهود لجانب الحلفاء في الحرب العالمية الاولى وكذلك تقديرا لأفضال العالم اليهودي دكتور حايم وايزمان الذي أسهم بقدر وافر في المجهود الحربي البريطاني والذي يعتبر وبحق من أبناء اسرائيل غير الشرعيين الكُثر . وقد ظل هذا لسنين طويلة يتزعم المجلس الصهيوني العالمي ويترأس منظمة الوكالة اليهودية التي كانت تشرف على عمليات الهجرة لأرض الميعاد . وكان أول رئيس لاسرائيل وظل كذلك الى حين وفاته في عام ١٩٥٢ .

وقد أضاف نكولاس بيثل اسباباً اخرى غير التي أوردتها

قولدا مايير وذلك في كتابه « المثلث الفلسطيني » والذي سرد فيه وبتوسع أحداث الصراع بين البريطانيين واليهود والعرب في الفترة بين عامي **١٩٣٥ ـ ١٩٤٨** فقد أشار الى ان فلسطين كانت تمثل بالنسبة لبريطانيا حاجزا جغرافياً واستراتيجياً يعزل الوجود الفرنسي في سوريا عن قناة السويس التي كانت تخضع لسيطرة بريطانيا التي خرجت من الحرب العالمية الاولى منتصرة بل وفي أوج عظمتها . وقد كان ظنها أن العرب لن يخلقوا لها مشكلة ولن يقووا على رفض قرار اتخذته حكومة صاحب الجلالة البريطانية حيث انهم شعب متخلف مطيع لا يجيد شيئا على حد قول ونستون شرشل غير أكل « رفث الجمال » . وقد ظل الحال يسير في العشرينات كما تشتهي بريطانيا وكما قدَّرت . وكان تعداد اليهود في فلسطين غداة الحرب العالمية الاولى يقل كثيرا عن المائة الف ولكن بعد ان تقلد هتلر زمام الأمور في المانيا وبدأت الحركة المناهضة للسامية تنتشر في أوروبا وتطغى ، بدأت الهجرة اليهودية والزحف الصهيوني على فلسطين . . . وعندها صحي العرب من سباتهم العميق فكانت أحداث ثورتهم الدامية التي تزعمها مفتي فلسطين أمين الحسيني .

ولم تفلح اجراءات القمع الاستعمارية في اخماد ثورة العرب . وقد أدرك بعض اساطين السياسة البريطانية وخاصة في وزارتي الخارجية والمستعمرات خطورة تلك الثورة وتهديدها لأمن الامبراطورية . ومن هنا كان قرار الحكومة البريطانية بوقف هجرة اليهود ، وقرار تقسيم فلسطين بين الاسرائيليين المقيمين بالفعل وبين العرب . . . ولعل الذي يثبت مدى قوة الثورة العربية أن الرجل الذي وقف وراء هذا القرار بوقف الهجرة كان من نسل يهودي ، وهو

مالكوم مكدونالد وزير المستعمرات آنذاك .

وقد تزايدت مخاوف بريطانيا من عدم الاستقرار الذي كان يسود فلسطين عند بداية الحرب العالمية الثانية فقد صعب عليها ان تلائم بين مصالح العرب واليهود الذين تضاعفت اعدادهم والذين ابتدعوا أساليب مختلفة للوصول لفلسطين . واخيرا اضطرت بريطانيا للتصدي للبواخر التي تحمل الهجرة غير المشروعة ومنعها من المرسى في مرافىء فلسطين وارغامها على العودة الى أوروبا التي كان النازيون والفاشيون يفرضون سيطرتهم على اجزاء واسعة منها . . . وهكذا وجد الارهابيون من اليهود المقيمين بفلسطين وعلى رأسهم بيجن الذي كان يتزعم منظمة ارجون الارهابية ، وجدوا الفرصة لتبرير عمليات الاغتيال والنسف ضد العرب والبريطانيين على السواء .

واستمر الحال وعدم الاستقرار الى نهاية الحرب العالمية الثانية وكان على رأس وزارة الخارجية البريطانية الوزير العمالي مستر بيغن الذي عرف بعدائه للصهاينة والذي كان يكرر القول بأنه لا مسوغ لقيام دولة اسرائيلية في فلسطين بعد انتصار الحلفاء وما تبع ذلك من استقرار اليهود في مواطنهم الاصلية بأوروبا حيث زالت مظاهر الاضطهاد والكراهية للسامية . وقد اضطرت بريطانيا في النهاية ونتيجة لعجزها عن التوفيق بين العرب وبين اليهود أن تتنصل عن وعودها للاثنين فآثرت ، من ثم ، التنازل عن الانتداب على فلسطين والانسحاب ، تاركة الأمر للصراع أن يتفاقم ، وللنزاع المسلح بين الطائفتين أن يتصاعد .

هذا ما كان من أمر بريطانيا العظمى التي تسببت في تعقيد

المشكلة بالتزامها بداية باقامة وطن لليهود في فلسطين قبل ان يتسنى لهـا احتلال ارضهـا ، وبانسحـابها في النهـاية وقبـل ان تضع حـدا للاقتتال التي تتحمل وزره بأكثر من غيرهـا من الدول التي شـاركتها الجلوس على مـائدة الصلح ببـاريس في نهـايـة الحـرب العـالميـة الأولى .

وتأتي بعدهـا الولايـات المتحدة والتي تعـاظم دورها في تعقيـد المسألة بعد جلاء الانجليز وخاصة بعد اعلان قيام الدولة البـاغية . فبجانب ترحيب الرئيس ولسن بوعد بلفور كانت هناك مواقف الرئيس روزفلت التي تميزت بالتناقض فبينما كان يبدي التعاطف مع العرب ويعـد بفتح ابـواب أمريكـا لليهود للتخفيف من حـدة هجرتهم الى فلسطين كان يميز بين اليهود ، يقبل الاثرياء ويصد الفقراء الذين لم يجدوا مناصا من التوجـه الى أرض كنعان والتـوافد عليهـا كالجـراد المنتشر بعد ان اعدوا العدة لدخول امريكا التي حرموا منها وبعد ان قطعوا صلاتهم بموطن المنشأ والأصل . . . وخلف هـاري ترومـان روزفلت في حيازة البيت الابيض وكان هذا أكثر الساسة الامـريكان حماسا وتعاطفا مع الصهاينة . وكان يعتز ويفخر بأنه ابو اسرائيـل اذ كان أول رئيس دولة يعتـرف بقيامهـا وكان ذلـك من بعد ظهـر اليوم الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ . . . وجاء من بعده ايزنهاور ثم كندي ثم جونسون ثم نيكسون ثم فورد ثم كارتر واخيرا ريجان وقد ظلوا جميعا يقفون اثار بعضهم البعض ، بل ويتبارون في اسبـاغ الحمايـة على اسرائيل وفي اظهار المزيد من التعاطف معها جرياً وراء كسب تأييد « اللوبي » اليهـودي الذي لـه وزنه الثقيـل داخل أروقـة الكونغـرس بمجلسيه والذي يكاد ان يفرض سيـطرة كاملة على أجهـزة الاعلام

بوسائلها المكتوبة والمسموعة والمرئية . وقد بلغ الأمر بالرئيس الأسبق نيكسون ان زود اسرائيل اثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ بأسلحة اقتطعها من الاحتياطي العسكري الحيوي للولايات المتحدة وقد ظل ذلك سرا يتكتمه البنتاغون الى ان فضحه اخيرا الصحفي الامريكي الكبير جاك اندرسون في حديثه الى الصحيفة السعودية « المجلة » .

ولا تتحمل دول الغرب وحدها وزر قيام دولة بني صهيون اذ يشاركها الاثم الاتحاد السوفيتي الذي صوت الى جانب قرار التقسيم الذي أصدرته الامم المتحدة في التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧ وبادر الى الاعتراف بالدولة المصطنعة ظناً منه انها ستكون نقطة ارتكاز له في المنطقة التي لم يكن له فيها صديق آنذاك ، وواحة يتسلل منها الفكر الماركسي الى صحراء العرب .

ولما تبين له خطأ تقديره عمل جاهداً على تصعيد النزاع العربي الاسرائيلي فبينما يمد بعض الدول العربية بالسلاح يمد اسرائيل بالرجال حتى أصبح اكبر مورد لكليهما في المنطقة . . . ومن الطبيعي ان يفعل الاتحاد السوفيتي ذلك برغم ادعاء الطُهر والنقاء الثوري ، فحالة عدم الاستقراء في هذه المنطقة البالغة الأهمية للغرب تشكل احتياطياً ايجابياً بل وركناً هاماً في سياسته الخارجية .

وليت أمر مسئولية مأساة فلسطين قد اقتصر على بريطانيا وامريكا وروسيا اذ تتحمل الدول العربية وبدرجات متفاوتة جانباً كبيرا منها بل ويتعدى الأمر الى الشعب الفلسطيني نفسه فقط فرط كثيرون منهم في أرضهم ببيعها لليهود وقد أشارت الى ذلك قولدا مايير في كتابها عن سيرة حياتها ، اذ ذكرت انه منذ مطلع هذا القرن بدأ اليهود في تدعيم ما سموه بصندوق النقد القومي اليهودي ، وكان الهدف من

انشاء ذلك الصندوق جمع المال والصدقات ما قل منها وما كثر بغية شراء أراضي العرب واستصلاحها والانتفاع بها لمصلحة الشعب اليهودي كافة .

ولا تقف اخطاء السلف من اعراب فلسطين على تفريطهم في حقوق ملكية الأرض وحيازتها بل اضاعوا فرصة طيبة سنحت لهم في عام ١٩٣٧ فقد كونت حكومة الانتداب البريطانية لجنة ملكية سميت باسم رئيسها « بيل » « بيل كومشن » جابت اطراف فلسطين وتلمست اراء مواطنيها وتوصلت الى مشروع مقتضاه تقسيم فلسطين الى دولتين تحتل اليهودية منها أرضاً لا تتجاوز مساحتها الالفي ميل مربع على ان تتمتع الدولة العربية بما تبقى من أرض شاسعة وعلى ان يتفضل العرب بالسماح لليهود بممارسة شعائرهم الدينية في بيت المقدس وعلى ان يكون ثمة ممر يتيح لهم الوصول الى شاطىء البحر . وقد وافق اليهود وعلى رأسهم بن غوريون على قرار لجنة بيل وقد جاء ذكر ذلك في كتاب سيرة حياته حيث أشار الى انه حمد الله فيما بعد على رعونة العرب الذين رفضوا العرض باباء وشمم . . . وكانت النتيجة ان انعكست الآية . فأصبح اليهود هم الذين يرفضون قيام دولة عربية في جزء يسير يقل كثيراً جداً عن ذلك الذي ارادته لهم اللجنة الملكية بينما يلهث العرب اليوم لتحقيقها . . . وقديما قيل الصيف ضيعت اللبن . . . وسبحان مغير الاحوال من حال الى حال .

وقد أشادت قولدا مايير بدورها بحماقة العرب وقصر نظرهم اذ لو كانوا قد قبلوا التقسيم في عام ١٩٣٧ لكان لهم شأن آخر . وتعزى الشمطاء قصر النظر هذا الى فلسفة العرب التي لخصتها في قولها

« انهم لا يخططون سياستهم على أساس ما هـو نافـع لهم بل على أساس ما هو ضار لليهود » .

وسيظل العرب يلتزمون بتلك الفلسفة الى ان يثوبوا الى رشدهم ويـدركوا ان الحكمـة تقتضي التـزام النهـج السيـاسي الـذي يحقق المكـاسب التي لا يمكن نيلها بغيـره ، والى ان يستوعبـوا الـدرس ويدركوا ان الاغتيال والارهاب والاستجابة للتحدي برد الفعل الفردي أسلحة عاجزة لا تجدي .

الأيام :
العدد : ١٠٤٣٥
التاريخ : ٨ من محرم ١٤٠٢ هـ
الموافق : ٥ نوفمبر ١٩٨١ م

عن اكتوبر الأخضر

ما من حدث تاريخي عظيم لقى اهمالاً من المؤرخين وإعراضاً من أقلام المثقفين كثورة شعبنا في اكتوبر التي أهلت علينا ذكراها السابعة عشر ومضت في صمت مطبق دفين .

ولا نقصد بذلك الاهمال وذاك الاعراض التقاضي عن سرد الوقائع التي زحمت حياتنا في الفترة من الاربعاء الحادي والعشرين من اكتوبر **١٩٦٤** الى الجمعة الثلاثين منه ، فقد أوفى البعض تلك الأحداث حقها بل وعليها زاد ، افتراءً وافتئاتاً على الحق وادعاءً لأمجاد ألصقوها زوراً بالنفس والذات . . . ومن قديم كان القول إن للنصر اباء كثرا وامهات ، وفي المقابل وعلى النقيض فان الهزيمة دائما يتيمة تفقد الأب والأم والقريب والقريبات . . . وانما الذي نعنيه هو غياب تقويم تلك الأحداث وتحليل نتائجها ومقارنتها بما يشابهها ويضاهيها من هبات شعبية وثورات .

والغريب في الأمر انه رغماً عن الدور البارز الذي لعبه المثقفون بكافة مدارسهم المذهبية والفكرية والحزبية في تحريك الشارع

ومساهمتهم في صياغة احداث الثورة الا انهم كانوا أشحة في تناولها بالنقد الموضوعي والتحليل الرصين . . . وحتى الأدب الـذي كتب عنها غلبت عليه شِقوة السياسيين ، واحاطته اهواء المغرضين . مما أضعف من وزن الثورة الحقيقي لدى الكثيـرين . وأدى ، من ثم ، الى خلق البلبلة وتهوين شأنها مقارنة مع بقية الاحداث التي تشكل أمجاد شعبنا على مر السنين .

ولعل أكثر من كتب عن اكتوبر هم الشيوعيون ، ولكن ما يعيب ما يكتبون انهم يسندون المجد كله لأنفسهم كدأبهم في حيـازة حقهم وحقوق الآخرين . ولا نقول ذلك تجنياً ولافراراً وتنصـلاً من اخطاء جسـام نتحمل معهم وزر مـا ترتب عليهـا من ظلم وافتئات وهنـات وزلات . ونسوق الدليل على ما نقول ونحيل القراء الى كتاب ثورة شعب الذي أسند كل أمجاد شعبنا في مقاومة حكم الفريق عبـود ، الى ابـداعات إمـامهم ومبادرات الحـزب الذي هـو بمثـابـة الصنم المعبود . وجعلوا كل انتصارات شعبنا وقفـاً عليهم دون غيرهم من الاحزاب والطوائف والافراد والجنود .

ولا يمنعنـا انسلاخنـا من زمرتهم ان نغمـطهم اشياءهم ، وننكـر دورهم طيلة السنوات الست العجاف . فقد كانوا في طليعة القـوى التي قاومت القهر وقهرته ، وكانوا أول من دق جـرس الخطر ايـذاناً ببداية المعركة ، وأول من طرح شعار الاضراب السياسي وعمل على تنفيذه وتحقيقه .

وليس صحيحاً الزعم بأنهم كانوا قد قرروا الانسلاخ من الجبهـة المعادية لنظام الحكم آنذاك والتعاون مع حكام نوفمبر بالاشتراك في الانتخـابـات التي دعي لهـا هؤلاء تـوطئـة لانعقـاد مجلسهـم

المركزي . . . ولعله مما ساعد على تدعيم ذلك الزعم غياب الشيوعيين عن المساهمة بالحديث في ندوة الجنوب التي فجرت الثورة في أمسية الحادي والعشرين من اكتوبر والتي كانوا قد دعوا لحضورها بالجامعة .

وفي الواقع فان الحزب الشيوعي السوداني كان ضحية لقصر نظر قمة قيادته وضيق أفقها السياسي والتي عرفت بغلوها واشتطاطها في الالتزام النظري بكل ما كتب ماركس ومن بعده تلميذه الامين فلاديمير ايلتش لينين ، فقد جابه الحزب الشيوعي البولشفي موقفا ظن أمين عام الحزب الشيوعي السوداني انه يماثل موقفهم وذلك عندما قرر نظام نوفمبر قيام هيئة تشريعية سماها بالمجلس المركزي . وكان لينين قد شن هجوماً عنيفاً على رفاقه الذين رفضوا الاشتراك في مجلس تشريعي مشابه عرضه القيصر على الشعب الروسي في عام ١٩٠٧ والذي كان يسمى بالدوما . . . وقد كان من رأي سكرتير الحزب الشيوعي السوداني الاشتراك في انتخابات المجلس المركزي لاستغلال المعركة الانتخابية ومن بعدها منابر المجلس في الدعاية ضد النظام القائم والعمل على تقويضه من الداخل . . . وكانت هذه تماما حجج لينين التي صفع بها معارضي اتجاهه السياسي . وقد انقادت قيادة الحزب الشيوعي السوداني وراء ما ارتاه سكرتير الحزب وفات عليها ان تدرك أن التماثل معدوم بين الحالة التي كانت عليها كل من روسيا عام ١٩٠٧ والسودان في النصف الاول من الستينات فبينما كانت الحركة الثورية في الاولى تعاني مغبات الضربة القاصمة التي المت بها في أعقاب فشل ثورة ١٩٠٥ ، والنظام القيصري بدأ يسترد عافيته بعد هزيمته على أيدي

اليـابانيين في تلك السنـة ، كان نـظام الحكم في السودان يتهـاوى ويكاد يلفظ أنفاسه . ولم يكن الشعب السوداني بحاجة للمـزيد من الدعاية والاثارة عن طريق منابر الحملات الانتخابية لتعريفه بسوءات حكم كبار الضباط .

وقـد استغلت قيـادة تنـظيم الاخـوان المسلمين وبعض قيــادات الاحـزاب التقليـديـة اشتـراك الشيـوعيين في انتخـابــات المجلس المركزي وغيابهم عن ساحة الجامعة يوم استشهاد القرشي ومن بعده عبد الحفيظ ايما استغلال ، واستثمروا الحدثين ايما استثمار . وكان الشيوعيون ينكرون على الاخوان دورهم المقدر في إلهاب المشاعر وفي فضـح نظام الحكم في النـدوات التي اكثروا منهـا في الشهور الاخيرة من حياة النظام وعلى رأسها ندوة الجامعة التي كانت ايذاناً بمـوته ، ويعيبـون عليهم اهتمامهم بـالدرس والتحصيـل والتـزامهم فصول الدراسة ابان ايام الشدة حرصا على نيل الدكتوراه وغيرها من الشهـادات العليا بينمـا كانـوا يسـاقـون هم افـرادا وجمـاعـات الى السجون .

والاحزاب التقليدية من جانبهـا ظلت بعد نجـاح الثورة تقلل من دور الشيوعيين والاخوان على السواء وتُهوِّن من شـأنهما وان كـانت تدعى استغلالها لنشاطهما ومقدراتهما لاذكاء نار الثورة .

والقوى الثلاثـة الاحزاب التقليـدية والاخـوان والشيوعيـون ظلوا بدورهم يقللون من أمر مسـاهمة طـلائع القـوات المسلحة في تلك الثورة .

وهكـذا ضاعت الحقيقـة أو كـادت بين هـذه المـزاعم ، وظلت مهيضة الجناح تنشد من يجبر كسرها ويداوي لها الجراح .

والحق ان ثـورة اكتوبـر كانت ثـورة شعبية اشتـرك فيهـا الشـارع وطـلائع الجيش ولا يمكن لمنصف ان ينكـر دور تلك الطلائـع في انجاحها . . . فحركة الشعب وحدها لم تكن لتستطيع ان تقهر حكم عبود وتطيح به بدليل ان الهيئة الشعبية قـد بدأت في مسـاء الحادي والعشرين من اكتوبر واستمرت حتى يوم الاثنين السادس والعشرين منه ولـم تكن هناك ارهاصات لنجاحها اذ كان عبود وصحبه من اعضاء المجلس الاعلى يتشبثون بالحكم ويصـرون على مقاومـة الاضراب السياسي وقد كادوا ان يفلحوا اذ لـم يكن بـامكان حـركة الاضـراب السياسي ان تستمر الى ما لا نهايـة . ولكن قاصمـة الظهـر بالنسبـة للنظام كانت من بعد ظهر ذلك اليوم الأغر ، عندما حاصـر الضباط الأحرار القصر ، واملوا على عبود شروطهم بحل مؤسسات الحكم الـرئـاسيـة والتنفيـذيـة والتشـريعيــة والمتمثلة في المجلس الاعلى ومجلس الوزراء والمجلس المركزي .

تلك كانت الحقيقة الاولى عن الثورة . والحقيقة الثانية ان نظام الفريق عبود الذي تسلم مقاليد الأمور في الســابع عشـر من نوفمبـر ١٩٥٨ لم يكن ثورة ولا انقلابا عسكريا وانما كان مجرد عملية تسليم وتسلم من رئيس الوزراء والذي كان أيضا وزيراً للدفاع الى مرؤسه قائد الجيش . ولم يكن نظام حكم نوفمبر في حقيقته حكماً للقوات المسلحة بالرغم من بعض المظاهر المضللة ، مثل تكوين المجلس الأعلى وتعيين حكام عسكريين على الاقاليم ، اذ ان القوة المفكرة التي كانت تسيِّر الحكم وتقف وراء عبود وصحبه من كبار الضباط ، كانت حفنة من السياسيين والطائفيين وكبار البيروقـراطيين من رجال الخدمة المـدنية الـذين تربـوا في حجر الادارة البـريطانيـة ورضعوا

ثديها ، ولم يكن لغالبية ضباط الجيش وجنوده رأي في تسيير دفة الحكم . يضاف الى ذلك أن كبار الضباط الذين كانوا يتربعون على دست الحكم كانوا أقرب ، من حيث تربيتهم وامزجتهم وتكوينهم النفسي ، الى السياسيين التقليديين القدامى .

والحقيقة الثالثة ان ثورة اكتوبر لم تكن ثورة ضد الجيش كما يحاول البعض ان يصورها وكما يبدو من بعض الشعارات التي كانت تطالب الجيش بالرجوع الى ثكناته ، وانما كانت تعبيرا عن سخط الشعب عن كل ما حدث في الفترة التي أعقبت الاستقلال بدليل اشتراك الضباط والجنود في انجاح الثورة الذي تمثل في محاصرة القصر ، وبدليل الشعارات التي ترددت في الشارع السياسي « لا أحزاب بعد اليوم ولا زعامة للقدامى » . وبدليل مباركة الشعب وتأييده في الأيام الاولى لحكومة اكتوبر التي لم يكن للأحزاب التقليدية نصيب وافر فيها .

ورابعة الحقائق ان حكومة اكتوبر جاءت وليدة ميثاق ارتضته الاحزاب التقليدية والاخوان المسلمون والشيوعيون بلافتاتهم المختلفة من جبهة هيئات الى اتحاد المزارعين الى اتحاد النقابات . ولم يكن ذلك الميثاق يمثل طموح الشعب وسعيه لاقامة حكم ديمقراطي صحيح فقد كان عبارة عن صياغة لأهداف عامة قصد بها تحقيق المصالحة بين القوى السياسية التي كان يموج بها الشارع . . . فشعارات استقلال القضاء والحياد الايجابي واطلاق الحريات كانت شعارات عامة ، ومظلة تستظل بها المصالحة الوطنية اذ كان لكل من القوى التي اشتركت في الحكومة تفسيرها الخفي الخاص بها ، والكل يبدي الود ويبطن الكيد ، بدليل ما حدث في

أول اجتماع لمجلس الوزراء وكان ذلك في مساء الجمعة الثلاثين من اكتوبر عندما حدث الصدام بين بعض الوزراء حول توزيع الحقائب الوزراية وبدليل التخطيط من جانب الاحزاب التقليدية للاطاحة بها حيث انه قد ساءهم فوز الشيوعيين بنصيب الاسد في عدد الوزارات رغم قلتهم العددية وخفة وزنهم السياسي ، ولذلك فلم يتوانوا في الاطاحة بها عندما تسنى لهم ذلك في الثامن عشر من فبراير **١٩٦٥** أي بعد اقل من أربعة أشهر على تأليفها وهي التي كانت تمثل قمة المصالحة الوطنية .

ولعل قصر عمر تلك الوزارة والنفوذ البيِّن للشيوعيين فيها هما اللذان دعيا بعض المؤرخين الماركسيين لتشبيهها بالحكومة الشعبية التي شكلت في باريس في الثامن عشر من مارس **١٨٧١** في أعقاب وزارة أدولف تيير تتويجاً لنضال مواطني المدينة وثورتهم والتي أطلق عليها اسم « كوميون باريس » . وقد استمرت الكوميون تحكم العاصمة الفرنسية مدة ثلاثة وسبعين يوما الى ان استعانت الطبقات الارستقراطية الفرنسية الحاكمة بالعسكرية البروسية . . . وقد هوَّل الماركسيون ولا زالوا من شأن تلك الحكومة الشعبية فقد وصف كارل ماركس الضجة التي أحدثتها في فرنسا وأوربا بدوي الرعد . وقال عنها لينين إنها ثورة فريدة حركت الدعوة الاشتراكية في كل مكان وكانت بوصفها صيغة من صيغ دكتاتورية البروليتاريا ارهاصاً للثورة الروسية التي فجرها البلاشفة بعد ذلك بما يقارب نصف القرن .

ولكن فات على هؤلاء المؤرخين ان ثورة الكوميون كانت ثورة دامية على عكس ثورة السودان في اكتوبر . فقد راح ضحية للأولى خمسة وثلاثين ألف قتيل في المذابح التي دارت في شوارع باريس

بينما لم تتعد حصيلة الموتى والجرحى في السودان اصابع اليدين . كما أن الكوميون كانت ثورة شعبية عفوية بقيادة العمال ومن هنا كان وصفها بأنها ثورة البروليتاريا . ولكن ثورة السودان لم تكن كذلك اذ كانت هناك جبهة متحدة تعمل باصرار وتخطيط لمقاومة حكم الفريق عبود والاطاحة به . وكانت المقاومة قد طرحت شعار الاضراب السياسي قبل مدة من نجاحه وتحقيقه . وكان يقودها المثقفون بمدارسهم السياسية المختلفة وليس العمال وحدهم كما كان الحال في باريس .

ثم ان ثورة باريس كانت في أساسها ثورة ضد ضنك المعيشة ومن أجل الخبز . ولكن ثورة السودان ، وهذا هو ما يميزها ويعليي من قدرها ، قد أثبتت اصالة الشارع السوداني الذي برهن للعالم انه ليس من أجل الخبز وحده يثور الانسان ، فقد كانت الظروف المعيشية حسنة طيبة والحياة رغدة ودليل ذلك رجحان الجوانب الايجابية في كل من ميزان المدفوعات والميزان التجاري آنذاك . . . ولكن الشعب خاض المعركة من أجل استرداد حرياته التي اغتالها النظام القائم وقتئذ ، وضد الفساد الذي تداولت المدينة أخبار وقائعه وهمست به وتحدثت عنه .

•

بقيت كلمةُ صدقٍ وشهادةُ حق نقولها عن عبود ورفاقه ، ونحن نتكلم عن الفساد ، انهم كانوا براء مِمَّا ألصق بهم من تهم تتعلق بذممهم المالية . وقد كنت في موقع يتيح لي التثبت من كل ما أثير حولهم من شبهات فقد كنت رئيسا للجنة الوزارية التي كلفتها حكومة اكتوبر الاولى بتطهير مرافق الدولة ولاجراء التحقيق فيما نسب لاعضاء المجلس العسكري من فساد . وكنت كذلك وزيرا للعدل

في حكومة مايو ، وكنا بتكليف من الرئيس نميري قد أصدرنا قانونا لملاحقة جرائم الكسب والثراء الحرام وأكسبنا القانون حجية الأثر الرجعي لتناول المخالفات التي سبقت اصداره . . . ولكننا لم نجد ما يمس اولئك الرجال ولا ما يشين . . . ولعلنا نكون بذلك قد برأنا الذمة وانصفنا رفاق اللواء احمد عبد الوهاب الذي عرف بعفة اللسان ، ونزاهة اليد ، واستقامة القصد ، ولا نسوقه الا مثالا وعنوانا لصحبه .

الأيام :
العدد : ١٠٤٤٢
التاريخ : ١٥ محرم ١٤٠٢ هـ
الموافق ١١ نوفمبر ١٩٨١ م

والبحر طوع رغائب الملاح . . .

واستوى على مقعده واعتدل في جلسته . وأصخت اليه الآذان واشرأبت اليه الاعناق . وقال كبيرهم الذي علمهم السحر ألم نقل لكم إن مايو بلاء ، وانَ غرثها هباء ، وإن حرثها غثاء ، وان داءها عضال ماله من شفاء ، ومالهم منه من براء . وان وعودها برغد العيش والهناء قبض الريح والهواء . . . ثم صمت واجتر قول العرب قطعت « جهيزة قول كل خطيب » فقد شهد شاهد من اهلها بل وكبيرها . . . ثم استرسل وأردف وهل قال الشريف اكثر مما قال الرئيس ؟!

وطرب المتبطلون بالوراثة والمرتزقون بالعمالة الذين يحلمون بالحكم والخلافة . وفرح الشامتون الحاقدون وسرهم منكر القول وزخرف الكلام . وحسبوا انهم باتوا قريبا من السلطة التي من ورائها يركضون ومن أجلها يلهثون . . . ثم انصرفوا تداعبهم الاحلام ، وتسيطر عليهم الأوهام ، ويمنون النفس بالاسلاب والانفال والاغنام .

ونتركهم حيث هم صم بكم عمي ، وكما كانوا دائماً في ضلالتهم يعمهون وبجهالتهم ينعمون . . . ونقول الحق . . . انه على كثرة ما

قال الرئيس وناشد وتكلم ، مجابهة وعبر الاثير وباليراع والقلم ، . وعلى كثرة ما حذر وتوعد وانذر . وكشف ما خفي وعرّى ما ستر . وعلى ما أسرف من نقد وأبدى من ضجر . وعلى كثرة ما ألمح وأفصح ، بالدارج من الكلام وبالساحر من البيان . . . لم نسمع ما هو أمر وأفدح ، ولا ما هو أخطر وافزع ، مما قال في أمسية الاثنين التاسع من نوفمبر . فقد جاء حديثه كالشهاب المنقض . له بريق ودوي كالرعد . يشق السماء ويزلزل الأرض .

ووقفنا عنده طويلا وسألنا النفس ماذا أصاب البلد ؟ وماذا دهى الضرع والزرع والولد ؟ . . . وكدنا أن نيأس وأَن نلقي بالقلم . فقد ظللنا نشير الى مواطن الضعف ومواضع الألم ، وما من سميع ولا مجيب . . . وكانت صيحتنا كصيحة الراعي في الوادي الغفر ، أو كهاجس الدرويش يطلقها وما لها من أثر .

كأنها حكمة المجنون يرسلها
بغير وعي فلا تصغى لها اذن

ولكن الأمر جد خطير ، لا يعالجه اليأس ، ولا تكرار ما قلناه بالأمس ، ولا مجرد محاسبة النفس . فالبلد في محنة ، تلهث فقراً ، وتتلوى ألماً ، وتشكو حرمانا . والثورة تمر بأخطر تجربة فاما ان تكون أو لا تكون ولا مجال لأنصاف الحلول . . . ولن تنتصر وتعبر الأزمة إلا إذا أدركت أنها بالفعل ثورة ، ما جاءت الا لتجتث السلبيات من الأصول ، والا لتقتلع الباطل من الجذور . وإلا إذا أدركت أن سِر الداء ، ومرد المشاكل وأصل البلاء ، يكمن في أنها تعثرت في مشيتها لبعض الوقت ، ولم تمضِ في الطريق كثورة وانما قبلت التعايش العفوي مع العوامل التي تنخر العظم وتوهنه . وانه ما

من مخـرج إلا الالتزام الصـادق الامين ببـرنـامـج التقشف والحـزم الاقتصـادي الذي طـرحه الـرائـد الـذي لا يكـذب أهله ، وتنفيـذه بحذافيره دون تراجع وتهاون وتنازل .

ولكن سيظل ذلك البرنامـج حبراً على ورق مـا لـم نُحسن اختيار المسئولين الذين يشرفون على تنفيذه ، ومراجعة مسيرته ، وملاحقة نقائصه . ولن يجدي الترقيع ولا مجرد استبدال بعض الوجـوه . . . وكفى مايو مـا لاقت على أيدي بعض المحسـوبين عليها الـذين لا يرقون في الأصل لمداس حذائها .

ولقد استبشر الناس وتفاءلوا خيراً بارجاء النظر في أمر التكليفات لمواقع المسئولية الرفيعة . إذ لعلها أول مرة لا يتـزامن فيها تـوقيت الاعفاء بالتعيين ، الأمر الذي يـوحي بالحـرص الشديـد على إنتقاء الصالحين بعد تمحيص المرشحين . . . ولكن وبقدر ما أن التفاؤ ل مطلوب إلا أن الاسراف فيه أمر غير مرغـوب ، فكما ان السمـاء لا تمطر ذهباً ولا فضة فان الارض لا تُنبت رجالاً كُمَّلا .

وبالطبع فان إصلاح الحال ، وانتشال البلاد من حـافة الهـاوية ، ليس وقفاً على قلة من المواطنين الـذين يقع عليهم الاختيـار لقيادة قافلة العمل التنفيذي ، وان كانت نـوعية الاختيـار تؤثر كثيـراً سلباً وايجاباً ، فذاك واجب بل وفرض عين يثقل كـاهلنا جميعـاً . فنحن مطالبون بأن نأخذ بقدر ما نُقدِّم . فالحياة عطاء وأخذ ، وفِعـلُ وردٌ فِعل . ولا مكان لطفيلي أو متقاعس أو متبـطل . . . وليس من حق أحد ان يتبرم أو يثور الا في حالة واحدة ، وذلك عندما يهلل ويصفق طرباً عند اعفاء البعض الذين ربما كانوا أوفرَ منه عـطاء واندى يـداً واكثر بذلا .

بيد أن الأمر ليس بالبساطة التي تبدو من المطالبة بالتدقيق والتأني في اختيار الكادر ، ولا في الالتزام بالمؤهلات والمواصفات الصحيحة والمعايير الصادقة للمئول القادر . اذ يحتاج الأمر لمراجعة شاملة لكل مواقع المسئولية السياسية والتنفيذية في الاتحاد الاشتراكي ، وفي مجلس الوزراء ، وفي قيادات العمل الوطني وفي المؤسسات والمرافق العامة ، ويتطلب دراسة متأنية للظروف التي تجعل غِلة ما يفوق الثلاثمائة ألف فدان من أرض الجزيرة الفيحاء لا تتجاوز الاثنين وعشرين الف طن من القمح ، وهي الأَرض التي لا نجد وصفاً يليق بها وينطبق عليها الا قول ابن الرومي :

نيِّرة النوَّار زهراء الزهر
تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الانثى تصدت للذكر

وما ذَكَرُ أرضِ الجَزيرة وعريسُها الا فأس قوية تحملها يد رجل يحيل المْحلَ الى خيرٍ وفيرٍ يعم البوادي والحَضر .

لقد اكثرنا من نقد تنظيمات الاتحاد الاشتراكي وعلى رأسها المكتب السياسي ، حتى بتنا نخشى أن نُتهم بالغُلو والغرض . وقلنا إنها لا تعدو أن تكون صدىٍ ، وصدىً هامساً ، للسلطة التنفذية ولقمة المسئولية . . . وليعذرنا الاخوة ان سألناهم أين كان المكتب السياسي طيلة الشهور والسنوات التي نشأ فيها سؤ الحال وترعرع ؟ . . . وما هي التدابير التي اتخذوها تحوطاً لتدارك الأمر عندما بأت ارهاصات الأزمة وأشْرَاطُها ؟ . . . وليعذرنا الفتية قادة الشباب ، والاخوة قادة التنظيمات الجماهيرية والفئوية والمهنية إن تساءلنا أين كانوا ، وماذا فعلوا ، بل وماذا يريدون أن يفعلوا وقد

مرت عشرة أيام طوال على خطاب الرئيس الخطير ؟ . . . نخشى ان يكون رد الفعل كذلك الذي قابلوا به خطاب المجابهة الشهير. . . ، تصفيق وتصدية ووعود حملتها الرياح عبر الاثير .

إن الشعب يرنو ببصره الى قادة يتجاوبون ويتفاعلون معه ، يعيشون مشاكله بعقولهم ، ويتلمسون احواله ويتحققون من احتياجاته بأنفسهم دون وكيل أو وسيط . . . قادة لا يجعلون اصابعهم في آذانهم ، ويستغشون ثيابهم ، ويصروا ويستكبروا استكبارا . . . قادة لهم القدرة على ايقاظ الشعب من سباته ، وعلى تحريك عضلاته ، وحشد طاقاته . . . قادة يستلهمون العبر من تاريخ الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس ، ومن تاريخ الأمم ، الحديثة والمعاصرة ، التي صعدت الدرج وارتقت الى حيث القمم . . . قادة يبحثون وينقبون ويتساءلون لماذا وكيف تخطت الصين واليابان ، وكوريا وتايوان ، العقبات وبلغت هذا الشأن الرفيع بين الأمم ؟

وبجانب حسن إختيار الكادر المسئول ، وتنشيط العمل القيادي ، هناك ضرورة ترشيد سياستنا الاقتصادية ، والخروج بها من النمط والحلول التقليدية ، التي تتشبث بالسياسات قصيرة المدى والمسكنات ، والتي لا تجد مخرجاً ولا فِكاكاً الا في مضاعفة الضرائب غير المباشرة والضغط على الاستيراد . وعلينا أن نعيد النظر في أمر تصدير المواد الخام وحاصلاتنا الزراعية . وأن نعمل على تصنيعها حيث أن شروط التبادل تسير لمصلحة الدول المتقدمة التي يستحوذ سوقُها على خيراتنا بأبخس الاثمان وتعيد بعضها لنا مصنعة وبأغلى الاسعار .

واخيراً ، فان المدِينة تهمس بأن هناك تغييرات جذرية ستحدث في مواقع السلطة السياسية والتنفيذية . وهي تتكلم عن وزارات قد تزول وعن أخرى تتنوع مهامها وتتبدل اختصاصاتها . . . ومهما كان من أمر هذه الشائعات ، فان الشفاء لا يكون في مجرد تغيير الهياكل والتنظيمات ، بقدر ما يعتمد على الاختيار السليم للرجال الذين يشرفون عليها ، خاصة في أوقات الشدة ، وفي مثل الظروف الراهنة ، وحيث بداية تطبيق تجربة الحكم الاقليمي الذي وإن كان يتطلب بالضرورة تقليص سلطات الحكومة المركزية إلا أنه يقتضى أيضاً توافر مواصفاتٍ خاصة ومؤهلاتٍ معينة في الوزراء المركزيين ، ليس اقلها سعة الافق الذي لا يتعايش مع البروقراطية والديوانية والتسيب ، وليس اقلها أن يكون عنواناً مشرفاً لشعب السودان .

وفي النهاية ، لا بد من القول بأننا لا ننفرد وحدنا بمثل المشاكل والصعاب التي تحيط بنا ، وانها لم تبلِغ بعد المدى الذي يصعب تخطيه وعلاجه حيث لازالت زبداً يمكن ازاحته :

لا يصـــدِّع الـــزبــدُ الجفــاء سفينــةً
والـبـحــر طــوع رغــائــب الـمــلاح

فلنترقب عودة الملاح ولنلتمس له السداد والصواب والتوفيق .

الأيام :
العدد : ١٠٤٤٧
التاريخ : ٢٢ من محرم ١٤٠٢ هـ
الموافق : ١٨ من نوفمبر ١٩٨١ م

طرائف من جراب اكتوبر

قصة رؤيا

احتفل اخواننا الارثوذكس من الاقباط والاحباش ، قبل أيام ، وبالتحديد في السادس عشر من هذا الشهر ، بعيد الشهيد العظيم ماري جرجس ، الذي له أحباب كُثر حتى بين بعض المسلمين من السودانيين والمصريين ، ولعلي كنت احدهم . . . واليكم القصة :

كنا رفقة سجن جمعت بيننا غرف « المعاملة الخاصة » بكوبر العتيد ، ع . احمد الدوباسي ، وعبد الجليل ش . سوداني من نسل شامي ، وج . بطرس سوداني من اصل قبطي . وكنت الوحيد بينهم الذي قضى بحبسه جزاء وفاقا على جريمة لها صلة بالنشاط السياسي اذ كنت قد تجاوزت حدود اللياقة والأدب في مخاطبة محكمة جنائية شكلت بام درمان في منتصف عام ١٩٦٤ لمحاكمة ثله من الرفاق كلفت بالدفاع عنهم . وقد اتهمت رئيس المحكمة بعدم النزاهة والتحيز وممالاة حكومة ذلك العهد ، وتماديت ، كدأب الشيوعيين ، في استغلال منابر المحاكمات للاساءة للنظام القائم حينذاك وللتعريض بالامريكان الذين زعمت انهم يقفون وراءه سنداً ودعامة وعضدا .

ومرت الأيام بطيئة ثقيلة حتى كان الاربعاء الحادي والعشرين من اكتوبر ١٩٦٤ وكنا جلوساً في ساحة قسم « المعاملة الخاصة » نحتسي الشاي ونرشفه كعادتنا صباح كل يوم قبل ان يتوجه صحابي لمزاولة اعمالهم التي حددتها لهم ادارة السجن لمساعدة موظفيها المنوط بهم الاشراف على سير العمل في مرافق السجن المختلفة . وكنت قد أعفيت من العمل ، ليس رفقاً بي ولا تمييزاً لي عن بقية النزلاء ، وانما خوفاً من العدوى السياسية . فقد كنت في نظر السلطات كأجرب الإبل تقتضي الحكمةُ عزله عن بقية البعير .

وقص علينا صاحبنا القبطي رؤ يا حلم بها في الليلة السابقة . فقد رآني أتوسط جمعاً صاخباً في ساحة السجن ، والرصاص يدوي ويلعلع ويتساقط حولنا كالمطر المنهمر ، وفجأة يظهر الشهيد العظيم ماري جرجس وينتشلني من بين ذلك الجمع ويردفني من ورائه على ظهر فرسه ويخرجني من السجن الى بهو واسع به سرر مصفوفه وزرابي مبثوثه ويجلسني على احداها وينصرف بعد ان يوصيني خيرا بصحبة السجن .

وقال الرجل وكان كثير التعبد والتهجد ان رؤ يا الشهيد العظيم لا بد وان تصدق . وانه على يقين ان خيراً كثيراً سيصيبني عند خروجي من السجن ولعله كرسي الوزارة يترقب فارسه الذي هو أنا وانه بدوره يتوقع لنفسه خيراً يصيبه ورفاقه على يدي . . . وضحكنا وقلنا له مثل ما قالت حاشية ملك مصر « أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين » وأضفت مازحاً « لعلك اطلعت على قصة يوسف بن يعقوب مع قريبيك القبطيين الذي قال احدهما إني اراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا . ورجوت أن يناله ما

أصـاب الفتى الأول وان يعصمه من مصيـر الفتى الثـاني » . ولكن الرجل لم يأبه لكلامي وظل يواصل الحديث عن ماري العظيم وعن كراماته وكيف أنه قضى على التنين بسيفه وكيف أنه أنقذ طائفـة من مسيحي فلسطين والشام من الفئة الرومـانية البـاغية . . . وضِقنـا به وبكـلامه ذرعـاً فقـد كنـا قـد سمعنـا ، أيـام طيشنـا ونـزقنـا ، تلك « الاسطوانة » تتردد كثيراً من أفواه بائعـات الهوى الـلائي كن يفدن على البلاد من بعض الجارات الشقيقات واللائي كن يحرصن على تزيين غرف البغي بصورة الشهيد وهو يمتطي فرسه ورافعاً سيفه توطئة لـدق عنق التنين . وقصدتُ أن أُسكت صـاحبنـا القبـطي فقلت لـه مستفزاً إن ماري جرجس ُاسطورة خرافية واستدللت برأي الفـاتيكان التي كانت قد أصدرت قائمة طويلة باسماء شهداء المسيحية الأوائل وأوليائها ولم تـورد اسم ماري جـرجس من بينهم ، بل وذهبتْ الى القـول بأنـه لم يثبت لديهـا أن ثمة شخصيـة بـذلـك الاسم وبتلك المواصفات قد عاشت في دنيا الواقع . . .

وغضب الرجل غضبة مضرية وقال انه لا يهمه ما يقول الكاثوليك فهو ارثوذكسي وله تجاربه الذاتية مع كرامات الشهيد العظيم ، وانه بعينه نبي الله الخضر الذي يعترف بوجوده المسلمون . وان ما يهمه ان لا أفسد رؤ ياه الصادقة بترديد اكـاذيب وترهـات مجلس كرادلـة الفـاتيكان اذ يخشى عليَّ من مغبـة غضب الشهيـد ومن ثم تفـويت المنفعة التي يرجـوها والخيـر العميم الذي يتـوقعه على يـديَّ . . . وهدأتُ من روعه وقلت لـه ان المسلمين يُوقِّـرون أولياء الله ومنهم المسيحيين الذين ظلوا مخلصين على العهد قبل نزول الوحي على نبي الاسلام برسالة السماء ، وربما كان كذلك حال القـوم من أهل

الفترة الذين خلطوا عملا صالحا بآخر سيئا ، وتذكرت قول الجوهرة أو العزية التي كنا قد حفظناها في المدرسة الثانوية وأنشدته :

وأَثبتنْ للأولياء الكرامة
ومن نفاها فانبذنْ كلامَه

ولم تهدأ ثورته الا من بعد أن أخذ عليَّ العهد بأن أوفى نذراً بتقديم عجل له خوار قرباناً لاحدى كنائس الشهيد العظيم ماري جرجس إن صدقت الرؤ يا وتحقق الحلم الذي لم يكن شك قط في تحقيقه وثبوته .

وانصرف الصحاب كل لشأنه الذي ارادته له ادارة السجن وبقيت مثل السيف وحدي كما كان حال استاذنا احمد محمد صالح طيب الله ثراه ، أو كأجرب البعير ان شئت ، حتى حانت العاشرة صباحا حيث جاءني رسول مأمور السجن يخطرني بالتوجه الى مكتبه لمقابلة زائر كريم . .. وكان أحد الاصدقاء من المحامين . وبعد تبادل التحية التي نكثر منها في السودان حتى في التلفون والتي ينفر منها الانجليز ويسمونها المقدمات والأوليات غير الضرورية « أنْنسسري برلمنزز » سألته عن الحال خارج الأسوار ، وعن النشاط السياسي . وكان الاستاذ من دعامات احد الاحزاب السياسية الكبرى ، وليتني لم أسأله فقد كان متشائماً ايما تشاؤ م وكاد أن يخسف بهمتي الأرض وقال إن الشعب مستكين نائم ، وان المعارضة غائبة هائمة ، وان « العسكر » متمكنون من السلطة يفعلون ما يشاؤ ون ، وانني داخل الحيطان الطوال أسعدُ منهم حالاً وأَنعمُ بالاً . وقص عليَّ قصة ذلك الزعيم العمالي الذي كانت الادارة البريطانية قد قضت بحسبه بكوبر لنشاطه السياسي والنقابي والذي كان يحسب أن الأرض ستميد تحت

الاقدام نتيجة لاعتقاله ، وان نهاية الاستعمار قد دنت وان ساعة الخلاص قد قربت . وكان يتوق بل ويتلهف لرؤ ية المدينة وليسعد بمشاهدة التظاهرات التي ظن انها تجوب الشوارع وتقلق المضاجع تهتف بحياته وتزلزل الأرض تحت اقدام المستعمرين احتجاجا على اعتقاله واستنكارا للزج به وسط عتاة المجرمين . . . وحانت له الفرصة عندما أحس بالألم أو البلي يصيب أسنانه وطلب مقابلة الطبيب المداويا ، وتم له ما اراد واستدرج الحارس وتحايل عليه ، والتمس من السائق وتوسل اليه ، ان يتخذ طريقاً وسطاً يمر بالسوق .

وكان أن أصابته خيبة الأمل ورجع الى السجن غضبان أسفا . وقال لصاحبي سجنه إن البلد نائمة لا تستحق التضحية ، والشعب مستكين تائه يواصل نشاطه المعيشي اليومي وكأن شيئا ذا جلل لم يحدث ، فقد رأى الناس يتزاحمون على شراء « البطيخ » ليأكلوه هنيئاً مرئياً وربما كان مثلجاً ليطفئوا به سعير الصيف . وأقسم أن يلزم الهدوء والسكينة وأن ينصرف الى تربية أولاده الصغار ، ويزيد الاهتمام بالحاجة أم العيال ، بعد إتمام مدة العقوبة ، وان يطلِّق النشاط السياسي والنقابي طلاقاً بائناً لا رجعة فيه .

وحاولتُ عبثا أن أرفع من معنويات صديقي المحامي وقلت له ما يدريك ما يحدث الليلة !؟ . . . فان شعبنا شعب « فنان » ، مزاجه قلق حاد ، لا يقبل التعايش طويلا مع الظلم والاستبداد ، ولا يصبر كثيرا على سلب الحريات والفساد . . . ولم أكن أدري بالطبع أن ثمة ندوة قد دعي لها بعض الاساتذة والطلاب من « قبيلة » جامعة الخرطوم ، في أمسية ذلك اليوم . وان احداثها ستكون بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير .

وانصرف زميلي المحامي ورجعت الى محبسي أعيش في الظلام الذي تركني فيه كما عاش ابو العلا رهين المحبسين .

وأصبح الصبح وكان بالنسبة لنا نحن النـزلاء كغيره من بقيـة أيام الله . وذهب الصحاب كعادتهم لمباشرة اعمالهم في أقسام السجن المختلفة . . . وما هي الا ساعة أو بعض ساعة حتى عم خبر أحداث الجامعة في الليلة البارحة ارجاء السجن . . . وكان الحراس يتبارون في نقل أخبار تصاعد الأزمة بين الطلاب واجهزة السلطة ، وتفاءلتُ خيرا .

واجتمع عقدنا وكان اكثرنا حيوية وسعادة صاحبنا القبطي رغم أنه اكبرنا سنـا اذ كان قـد أوغل في الخمسين من عمـره . وكان يكـرر القول ان تلك الاحداث إن هي إلا ارهاصات صدق رؤ ياه وتحقيق تفسيره لها ونبوءته .

وخرجت من السجن في يوم الاثنين السادس والعشرين من اكتوبر أي بعد خمسة ايام من احداث ندوة الجامعة وكانت طلائع القـوات المسلحة قد فرضت ارادتها وتم تحقيق ما طلبته من حـل للمجلس العسكري الأعلى والمجلس المركزي ومجلس الوزراء وتم تشكيـل حكومة اكتوبر الاولى في صباح الجمعة الثلاثين من اكتوبـر وعينت وزيرا للزراعة والغابات واستثمار الأراضي .

وتـوجهت في صبيحـة اليـوم التـالي الى حيث مكتبي الجـديـد واستقبلت الأخ الكريم الصديق القـديم وديع حبشي ، وكـان وكيلا للوزارة آنذاك وبادرته بأن قصصت عليه قصة الرؤ يا وكنت أعلم مدى تدينه فقد كان زملاء دراسته يلقبونه بالقديس أو القسيس ولعله أدرك سـوء حالتي المـالية فقـد كنت خارجـاً لتوي من السجن وقـال إنـه

سيشتري العجل ذي الخوار من حر ماله وسيقدمه قرباناً لكنيسة ماري جرجس بالخرطوم بحري على ان اقوم بسداد قيمته بعد أن أقبض راتبي الجديد .

وتمر الأيام ونسيت ان أدفع الدين المستحق عليّ أو لعلني تناسيت . . . ويجيء اليوم الثامن عشر من فبراير وكان قد مضى على تأليف الوزارة اقل من أربعة أشهر ويدخل عليَّ وديع ليقول لي ان هناك همساً بأن السر الخليفة رئيس الوزراء قد قدم استقالته للدكتور التجاني الماحي الذي كان يرأس مجلس السيادة في ذلك الشهر حيث كانت رئاسة المجلس دورية يتناوبها اعضاؤه الخمسة . وكذبت أمر الاستقالة وصرفتها على أنها مجرد إشاعة وقلت للأخ وديع انها رغبتك ، فلعلك قد ضقت بي ذرعاً وبالفوضى التي أثرتها في وزارتك بعد أن فتحتُ أبوابها على مصراعيها للمزارعين ولذوي الحاجات من المواطنين .

وأجريتُ بعض الاتصالات وتيقنتُ من جدية الهمس وحقيقية الاستقالة . وجاءني السيد / الوكيل ليبلغني الخبر رسمياً اذ كان الوكلاء قد كلفوا بتصريف شئون وزاراتهم لحين الفراغ من تشكيل الوزارة الجديدة البديلة وقلت لوديع مازحاً لعلها لعنة الشهيد العظيم قد أصابت من وزارة اكتوبر مقتلا إذ لم أوفِ بالنذر حيث لم أدفع قيمة العجل ذي الخوار وحيث يصر الشهيد ان يكون الوفاء بالنذر شخصياً تماما كفرض العين . هذا رغم اني كنت قد نفذت الشق الثاني من توجيهاته بالأخذ بأيدي رفقاء السجن فقد استصدرت امراً بالافراج عنهم فورا وقد تم بالفعل اطلاق سراحهم .

بقيت قصة صديقنا المحامي الذي ظل يحكي في مجالسه واقعة

مقابلته لي بالسجن ويزعم بأن الشيوعيين كانوا قد خططوا لأحداث ليلة الحادي والعشرين من اكتوبر ويدلل على ذلك بقولي العفوي وتساؤلي عما يمكن أن يحدث في أمسية يوم لقائنا وبغياب القادة الشيوعيين عن الاشتراك في الندوة وكانوا قد دعوا للمساهمة فيها وهم الذين لم يكونوا ليفوِّتوا فرصة استغلال منابر الاثارة والدعاية العلنية .

وفي الواقع فان الشيوعيين ظلوا يستفيدون كثيرا من مثل هذه المزاعم التي تضاعف من حجمهم وتزيد من وزنهم السياسي . والتي تسند لهم شرف نضال ، ونتائج افعال ، وثمرات زرع ، لم يسهموا في غرسه أو حرثه . . . وبالمقابل وبقدر مبالغة البعض لمقدرات الشيوعيين بقدر مبالغة هؤلاء لطاقات وذكاء أجهزة تجسس ومخابرات الدول الرأسمالية الكبرى وعلى رأسها وكالة المخابرات الامريكية التي كثيراً ما اكتفتْ بالصمت ورفض الرد ، على بعض المزاعم التي تسند اليها انجازات لم تكن لتحلم بتحقيقها .

الأيام :

العدد : **١٠٤٥٣**

التاريخ : **٢٩ من محرم ١٤٠٢ هـ**

الموافق : **٢٥ من نوفمبر ١٩٨١ م**

من أمجاد شعبنا

يشبه بعض الناس الأيام والشهور بفصائل الجن والانس . منها الطاهر ومنها النجس ، ومنها الطيب ومنها النحس ، ومنها من اختلط فيه العمل الصالح بآخر سيئا .

وشهر نوفمبر من تلك الشهور التي جَمعتْ فاوعتْ . . . ولعل كفة احد أيامه الطيبات ترجح كفة كل المآسي التي عجت بها أيامه النحسات . فقد شهد الحادي عشر منه من عام ١٩١٨ نهاية الحرب العالمية الأولى التي راح ضحية لها وعلى مدى خمس سنوات ، مئات الالوف من الموتى وملايين الجرحى .

ولكن بالرغم من أن ذلك الشهر من تلك السنة كان خيراً ويُمناً وبركة ، على البشرية المعذبة ، إلا أن أحد أيام رصيفه الذي ردف من بعده بست سنوات كان نكبة وشقاء ونغمة على أمة العرب . فقد كان الرابع من نوفمبر ١٩١٧ هو اليوم الذي اعلن فيه وعد بلفور الذي رخص بانشاء وطن قومي لليهود . . . وكذلك كان حال أحد أيامه التي تلته ببضع عشرات من السنين وبالتحديد التاسع والعشرين من نوفمبر من عام ١٩٤٧ حيث اجازت الجمعية العامة لهيئة الامم

المتحدة قرار التقسيم الذي أضفى الشرعية الدولية على قيام دولة اسرائيل ، التي كانت حلماً يداعب أجفان بني صهيون منذ أيام هرتزل الملعون .

وفي السودان كان السابع عشر من نوفمبر **١٩٥٨** يومَ وأدِ الديمقراطية البرلمانية ، واغتيال الحريات العامة ، وبدايةً لليلٍ ثقيل ناء بكلكله وخيم على البلاد كليل امرؤ القيس الطويل ، بل واكثر اذ زاد عليه بست سنين .

وقبل ذلك بأربعة وثلاثين عاما وفي السابع والعشرين من نوفمبر عام **١٩٢٤** كانت ملحمة البطولة والفحولة والرجولة التي كان ابطالها فتية جيش السودان عبد الفضيل الماظ وسيد فرح وثابت عبد الرحيم وحسن فضل المولى وعلي البنا وابن محمد سليمان . . . ونفسح المجال للضابط سيد فرح احد الابطال ليقص علينا طرفا من احداث ذلك اليوم :

« . . . تحركنا من ام درمان حوالي الساعة **١٢** ونصف مساء **٢٧** نوفمبر **١٩٢٤** بقيادة الضابط عبد الفضيل الماظ وقررنا الاتصال بمدرسة ضرب نار وقد كان هناك الضابط سليمان محمد وثابت عبد الرحيم وحسن فضل المولى وعلي البنا ومن مدرسة ضرب نار أخذنا مدافع مكسيم وذخيرة وكان بمدرسة ضرب نار **١٣** ضابط وجنديا وبذلك اصبحت قوتنا ثلاثة وسبعين ضابط وجنديا (ستون معي وعبد الفضيل الماظ و **١٣** مدرسة ضرب نار) .

توجهنا الى محطة الخرطوم العمومية ثم سراي الحاكم العام وتعاطف معنا الجمهور في البداية وشعروا بشرارة الثورة بدأت تتقد ولكن بعد قليل تفرق الجمهور واصبحت الطرقات خالية وعند سراي

الحـاكم العامَ الى شـارع غردون عملنـا كركـون شـرف وانـا هتفت بسقوط الحاكم العام وناديت برفعت بك حاكما عاما على السـودان حسب اتفاقنا معه ثم واصلنا السنير اربعات تشكيل واختارتني القـوة قائدا لهـا بالـرغم من ان عبد الفضيـل الماظ وسليمـان محمد كـانا ملازمين لان في ظنهم ان لي عصبية القبيلة .

وعندما وصلنا المستشفى العسكري وجدنا فرقة الاسكوتش مقبلة نحونا وهي عبارة عن كتيبة عددها ٨٥٠ جنديا وهناك أدركنا مكـاون بـك قومنـدان قسم أجي الخرطـوم وتكلم الينـا في اسلوب لـطيف وقال :

مايصحيش يا ١١ جيٍ أورطة احنا أملنا انكم معنا ومـافيش لزوم لهذه الحركة . . . فرددتُ عليه :

(اعط أوامرك للجيش الانجليزي ليبتعـد عن طريقنـا) وضربتُ طلقتين في الهواء من طبنجتي .

وكانت مواجهة بيننا وبينهم لا تزيد عن ١٥٠ ياردة .

وكانت الساعة الثالثة والنصف ظهراً وبمجرد ان ضرب الجنـدي البريطاني طلقة على الهواء واخذنا ساتراً متيناً فتحنا فيهم ناراً وكانت القوة البريطانية لم تتـوقع اننـا سنضربهم ولم يكـونوا على استعـداد ولذلك كانت خسائرهم كبيرة للغاية .

وبعد حوالي ربع الساعة من الضرب انسحبت الاغلبية من الاحياء منهم واقدرها بحوالي المائتي جندي واخذوا في التسلق الى سـطح بمنى القسم البيـطري المقابـل للمستشفى العسكـري ليتمكنـوا من ضربنا من عال ولكننا فطنا الى الموضوع فأخذت اثنين من جنـودي

من البلتون الثاني من البلك الثاني من ١١ جي أورطة واحتمينا بعنبر التلاميذ في الـدور الثاني من المستشفى العسكـري وبدأنـا الضرب فيهم بالمتراليوز وعندما تكاثر عدد موتاهم هموا بالنزول من السطوح بسلم خشبي غير ان السلم انكسر بهم فتساقطوا وكانت هذه فـرصة مـواتية لنـا قضينا فيهـا على البقية البـاقية منهم وفي تصـوري كانت حصيلة المعركة حوالي ٧٥٠ قتيلا وجريحا من مجموع ٨٥٠ .

نـزلت من الدور الثـاني للمستشفى العسكـري لأبحث عن عبـد الفضيل الماظ وكان خارج المستشفى على الشـارع ممسكاً بمـدفع مكسيم ولكن ذخيرته نفدت . واسرعت الـطابية الانجليـزية تـرسل طلقاتها علينا وسلطوا المدافع الراشة في الكبري ليمنعونا من التوجه الى بحـري وفي هذا الـوقت كانت البيـادة الراكبـة بقيـادة . . . . . تحاصرنا من الخلف على بعد حوالي ٢٠٠ ياردة من الموقعة ولو كان انضم الينا لتأكدت قواتنا ولانتصرنا على الاعداء .

كان توزيعنا كالآتي :

عبد الفضيل المـاظ وانا ، بجـوار بعض في الجانب الأيسـر من شـارع المستشفى العسكري وحسن فضـل المولى وسليمـان محمد وثابت عبد الرحيم وعلي البنا على يمين الشارع منتشرين حتى خط الترام وكل واحد منا كان يقوم بدوره في المعركة بشجاعة وبسالة ولم يجبن واحد منا .

حوالي الساعة السادسة مساء نفدت الذخيرة وعبد الفضيل الماظ خـاطبني : المصريين مـا تحركـوا ليه ؟ قلت : ربمـا يتحركـوا بعد كده .

قال لي أمراً انت تروح لهم في بحري وتفهمهم .

نزلت من مبنى المستشفى العسكري واعترضني مدير المستشفى وكان بريطاني من العائلة المالكة وفي معيته خمسة ضباط اطباء شوام وواحد مصري وكان معي جنديان من أبناء النوبة وكـانت شجاعتهم فائقة .

أصدر مدير المستشفى أمره بالقبض عليّ وهجم هو نفسـه وكان الضبـاط الأطبـاء واقفين على بعـد ١٠ يـاردات وتمـاسكنـا مــديـر المستشفى وأنا يداً بيد وكان ينادي على مرافقيه بالانجليزية اعطوني حبلاً لأكتف به هذا الضابط وكان كل منا يحمل مسدسا ودفعني بقوة الى الـوراء ولكن احد الجنـود النوبـة الذين كـانوا معي أفـرغ عليه رصاصة في صدغه حتى تهشم رأسه ثم التفت هذا الجندي وزميله الى الضباط الشوام وافرغوا الرصاص فيهم وقتلوهم وكانوا خمستهم عزّلا من السلاح أمـا الضابط المصـري المرافق لهم فجـرى نحوي واحتمى بي وكـان يصيح (أنـا مصري يـا سيـد) وقلت للجنـديين السودانيين هذا مصري اتركوه « وكان اسمه نديم ترقى فيما بعد في سلك وظائف الجندية حتى بلغ رتبة اللواء واصبح قائداً للمستشفى العسكري في القاهرة وكان يحفظ لي هذا الجميل ويداوم في اتصاله بي من القاهرة ويقول لأسرته . . (هذا الضابط انقذ حياتي) .

أما عبد الفضيل الماظ فقـد دخل ميـز الجيش الانجليزي وكـان بصحبته جاويش سوداني ووجدا فيه ١٧ ضابطا بريطانيا برتب مختلفة فاردوهم قتلى ولم ينج منهم احد ثم صوبا مدفعاً رشاشاً على سطح المستشفى وكان من بين المرضى ـ جندي سوداني ـ يحسن الـرمي بهذا المدفع فطلب من عبد الفضيل ان يترك له المدفع ، وبما انهما كانا يقدران الرجولة ويعرفون مقدرته على اصابة الهدف فقد تركا له

المدفع ورجعا الى ميز الضباط واتخذاه ساتراً وراحا يقذفان النيران على عدوهم وعند ذلك ظهر لهم ان الانجليز قد رفعوا مدفعاً على حائط مبنى البيطرية وعند رؤ يتهما لهذا الاجراء اتيا بجندي من جنودهما يحسن الرمي وكان الانجليز له بالمرصاد وكان كلما اعتلى جندي من السودانيين ليقوم بمهمة هذا المدفع ارسلوا اليه رصاصة اردته قتيلا وهكذا تعطل هذا المدفع ولم يتمكن جنودنا من استعماله وكان الليل قد اسدل ظلامه واصبح الجنود من الفريقين لا يرون بعضهم البعض وبذلك اراد الله ان ينصر جنودنا ويقهر عودهم فهيأ لعدوهم ان يستعينوا بالأنوار الكاشفة من الطابية ليسددوا على ضوئها نيرانهم فانعكست الآية وكانوا هم المكشوفين فانصبت عليهم قذائف جنودنا مصيبين الهدف . وهكذا كانت العملية تتكرر كلما ارسلوا انوارا كاشفاتهم ولهذا وجدوا أنفسهم خاسرين فامسكوا من هذه اللحظة ولجأوا الى المدافع الثقيلة بالطابية ومنها ارسلوا قذائفهم على مبنى الميز فهدت الركن الذي كان به عبد الفضيل وصاحبه الجاويش ومن معهم من الجنود وقضوا نحبهم تحت الانقاض » .

ونتخطى ذلك اليوم الى الخامس من ديسمبر ١٩٢٤ ، الذي مرت ذكراه السابعة والخمسين علينا قبل بضعة ايام مرور الكرام الذين يمشون على الأرض هوناً ، والتي أُهمل أمرها ولم نسمع لها ركزا . وقد كان ذلك هو اليوم الذي تم فيه تنفيذ الحكم على الكرام البررة بعد ان قضت محكمة عسكرية باعدامهم .

ونفسح المجال مرة ثانية لاستاذنا حسن نجيلة في ملامحه ليقص علينا قصة تنفيذ ذلك الحكم كما جاءت على لسان اليوزباشي قسم السيد خلف الله وكان هذا من بين الضباط المعتقلين والذين جيء

بهم ليشهدوا اعدام زملائهم تخويفاً وارهابا :

(في الفضاء الواقع بين ثكنات الجيش ووابور الماء ببري رأيتهم قد ركزوا أربع خشبات كل واحدة منها على شكل صليب ، وعرفت في الحال انها خصصت لاعدام زملائي الضباط الاربعة . واحتشد كبار الضباط البريطانيين في العاصمة وعلى رأسهم هدلستون باشا الذي جاء فيما بعد حاكما عاما للسودان . كما أحضر بالأمر بعض الضباط السودانيين لحضور المشهد كل منهم يمثل (بلوكا) وهم الضباط المرحوم احمد عقيل والمرحوم بلال رزق وحامد صالح الملك وعبد الله خليل . وكلهم في ازيائهم الرسمية وعلى بعد قليل من الخشبات المنصوبة لاعدام الابطال رابط عشرون جنديا سودانيا من فرقة السواري التي كانت ترابط في شمبات خلال الثورة حفاظا على الأمن واستعدادا للطوارىء ـ وخلف هؤلاء الجنود رابطت قوة من جنود الجيش الانجليزي مدبجة بالسلاح وعلى أهبة الاستعداد للطوارىء فيما بعد لو رفض جنود السواري اطاعة الأوامر أو أي احتمال آخر .

وحوالي الساعة السابعة صباحا جيء بالضباط الاربعة تحرسهم شلة من الجنود البريطانيين شاهري السلاح (بالسونكي) وقد قيدت أيدي الضباط بالسلاسل ، أما ارجلهم فكانت طليقة وقد ارتدى كل منهم حلته العسكرية وعلى رؤوسهم قبعاتهم تحمل علامات فرق الجيش التي كانوا بها وعلى اكتافهم (الدبابير) التي تشير الى رتبهم العسكرية وكان لباسهم الرسمي (ردي وسترة كاكي) .

كانوا يسيرونَ في خطى ثابتة ورؤوسهم شامخة عالية كأنهم يتحدون الموت وكانت ابصارنا تتبع كل خطوة من خطواتهم

العسكرية الثابتة المنتظمة وبودنا لو نفديهم من هذا المنظر الرهيب .

وتقدم صول انجليزي اسمه (جلبرت) من الضابط حسن فضل المولى أولا وقاده الى أول خشبة ونزع عنه قبعته ثم جعل ظهره مواليا للخشبة ثم مدد له يديه خلف الخشبة ودلاهما الى اسفل وربطهما عموديا على الخشبة . واخرج قطعة قماش كانت في جيبه وعصب بها عيني الضابط حسن ولف عليهما بخيط رفيع ضمانا لتثبيت قطعة القماش على العينين .

كل هذا والضابط البطل الشهيد رابط الجأش مثلا أعلى للثبات والرجولة فلم يغير وقفته العسكرية الشامخة ولم تختلج من جسمه قطعة ، وكان كل زملائه في مثل موقفه وشجاعته لم ينبسوا ببنت شفة ولم تتعثر خطواتهم وهم يتقدمون في خطواتهم العسكرية الباسلة نحو الاخشاب التي اعدموا مشدودين عليها .

وبعد ان تم ربط الضباط الاربعة على النحو المذكور وضع الصول جلبرت قطعة قماش سوداء مستديرة على منطقة القلب من جسم كل منهم (تحت جيب السترة من الشمال) ليصوب الجنود رصاصهم علينا .

وأوشك الرصاص ان ينطلق ، اذ بنا نفاجأ بالصول الانجليزي يسرع مهرولاً نحوهم ويفك الوثاق من الضابط علي البنا وينحيه بعيدا ، ثم يقاد وهو مكبل في القيود . وعلمنا فيما بعد ان حكم الاعدام بالنسبة اليه عُدِّل الى التأبيد ثم الى عشر سنوات سجنا .

وبقي الابطال الاربعة يرقبون لحظة التنفيذ الرهيبة وهم أرسخ من الجبال ثباتا !. لا حركة ولا اختلاجة ولا همسة ـ واطلقت كل

مجموعة من الجنود رصاصها نحو الضابط المعنى دفعة أولى . . .
وهرع الطبيب الانجليزي اليهم وكشف عليهم في سرعة فوجدهم
مازالوا احياء . . . وأعيد الضرب وصوبت اليهم هذه المرة دفعتان
من الرصاص فاستقر في جسد كل منهم عدد غير قليل من
الرصاص ! وفي هذه المرة وجد الطبيب أن أرواحهم الطاهرة قد
صعدت الى بارئها لتجد في رحاب جناته الواسعة عوضاً عن هذا
الشباب الغض الذي وهبته راضية مطمئنة لوطنها ، ولكن الطبيب
يشير ايضا الى ان الضابط ثابت عبد الرحيم لم يلفظ انفاسه بعد
ومازالت فيه بقية من حياة . . . فيفرد احد الضباط مسدسه ويصوبه
نحو البطل وينهي حياته ببضع رصاصات من المسدس ! .

ووضعت جثثهم في لوري كبير كان معدا لهذا الغرض وفيه عدد
من الجنود (والمساجين) حيث أعدت حفرة لدفنهم بغير ان يكون
بجانبهم أي أحد من أهلهم أو ذويهم وحرم علي أي منهم الاقتراب
من تلك المقبرة التي سويت مع الأرض امعانا في ازالة أي معلم
يخبر عنهم .

وحرم على أهليهم البكاء عليهم أو تلقِّي العزاء فيهم . وكان
الجنود يطوفون بمنازلهم ليتأكدوا ان ليس هناك مأتم ومعزون .
وبكاهم اهلهم واصحابهم في حرقة اليمة سراً وهم يتجرعون غصص
الألم والمهانة والمذلة فقد حرموا قهراً من أن يندبوهم جهرة أو يقيموا
لهم مأتما . الى هذا الحد من التنكر لأيسر المعاني الانسانية بلغ
الحنق بحكومة ذلك العهد وهي تحارب الرجال حتى بعد
مصرعهم) .

ونطوي السجل ونقفز الى يوم آخر من نوفمبر وهو الاثنين التاسع

منه من عام ١٩٥٩ لنذكر ابطالنا الشهداء كبيده وعلي حامد وصادق وعبد البديع وعبد الحميد وصحبهم الذين حاولوا القضاء على حكم نوفمبر فكان جزاؤهم الاعدام شنقا في الثاني من ديسمبر ١٩٥٩ رغما عن الفتوى الشرعية بأن اعدامهم خطأ كبير بل إثم بَيِّن اذ لم يتسببوا في موت احد أو يسفكوا دماء مسلم أو غير مسلم .

وقد مرت ذكرى استشهادهم كسالفتها مرور الكرام اللهم الا ما خطه الاستاذ بكري الصائغ الذي ظل يمتعنا بين الحين والآخر بحصيلة قراءاته المفيدة عن تاريخ البلاد الحديث والمعاصر .

ومرة اخرى نقول ما أحرانا ونحن نستشرف الذكرى السابعة بعد الخمسين لاستشهاد عبد الفضيل الماظ وصحبه البررة الطاهرين ، والذكرى الثانية بعد العشرين لاستشهاد كبيده ورفاقه الكرام الميامين ، ما أحرانا ان نفعل شيئا تمجيداً للبطولة وتخليداً للذكرى . وان نتلمس احوال الأسر التي ظلت تجتر الذكريات وتعيش مأساة الحياة ، تصون نفسها ، وتلوذ بكبريائها ، تعتصم بحبل الله ولا تسأل الناس الحافا حتى حسبهم الجاهلون اغنياء من التعفف .

وما أوتيتم من العلم الا قليلا

اشتهر الشيخ فرح ود تكتوك ، بجانب الصلاح والتقوى ، بالحكمة والقدرة على سبق الزمن وتجاوز حقبه وكشف احداثه المقبلة . ومن مأثوراته في هذا الشأن قوله:

« آخر الزمن الكلام بالخيوط والسفر بالبيوت » وقد فسر القول وحُمل الى انه يعني التلفونات والقطارات وما شابهها من المركبات والحافلات . . . وان كان استاذنا عمر محمد الحسن شاع الدين ، الذي يطل علينا بين الحين والحين من أم روابه بقلمه المقتدر ، ويفيء علينا من علمه الغزير ويجود علينا بالدرر ، قد كتب بالصحافة الغراء قبل خمسة أشهر انه يتعذر عليه ويتعسر أن يقطع بأصالة نسبة تلك المأثورة للشيخ البركة الذي ربما كان قد تأثر بحكمة أهل مصر الذين سبقوه حيناً من الدهر ، ومنها قولهم المماثل :

« علامة القيامة لما تشرب من الحيط وتشوف النور من الخيط » والذي ربما صرفه البعض الى انه نبوءة باستحداث قنوات تجري في حيطان البيوت تسير عليها المياه ، وينهمر من أفواهها اكسير الحياة . وإعلام باكتشاف وتسخير قوة ظلت مجهولة مدى طويلا هي طاقة

الكهرباء .

ولكن مهما كان من أمر صحة نسبة تلك النبوءة وغيرها من الامثال التي اسندها المغفور له الشيخ بابكر بدري للفقيه البطحاني في كتابه عن الامثال السودانية فانه قد تبين لنا ان هناك منافساً خطيراً للشيخ فرح في هذا المجال ، بل ربما بزه وفاق عليه الا وهو الطبيب اليهودي الأصل والفرنسي المولد مايكل دي نوستريديم الذي اشتهر باسمه اللاتيني نوسترادا موس ... مع الفارق بالطبع بين الرجلين من حيث الزمن الذي عاش فيه كل منهما ومن حيث مصدر الوحي والالهام فنوستر هذا قد سبق شيخنا بعشرات السنين اذ ولد في الرابع عشر من ديسمبر ١٥٠٣ بسان ريمي بفرنسا وهلك في عام ١٥٦٦ . بينما ولد الفقيه ود تكتوك على حد قول الطبقات بحلفاية الملوك عام ١١٣٩ من بعد الهجرة وتوفي في سنة ١٢٢٤ هـ أي بعد وفاة الرجل بما يقارب القرنين ونصف . كما أن شيخنا كان من أولياء الله الصالحين الذين تثبت لهم الكرامة ، بينما صاحبنا اليهودي الذي تنصَّر كان من المنجمين الذين يزعمون أن معرفتهم لحركة النجوم تعينهم على كشف الأسرار واستجلاء الغيب . . . وما يعلم الغيب الا الله .

وقد فرغت قبل يومين من قراءة كتاب غريب مثير عن نبوءات نوسترادا موس ترجمته من الفرنسية الى الانجليزية الكاتبة أريكا شيتهام واضافت اليه تفسيراتها لتلك النبوءات وزادت عليها باجتهادات حاولت فيها بنجاح كبير ومقدرة فائقة ايجاد التوازن بل المطابقة بين تلك النبوءات التي قاربت الالف وبين وقائع حدثت بعدها بمئات السنين .

والحق فان أمر تلك النبوءات عجب . ولولا ايماننا بصحة الحديث الشريف « كذب المنجمون ولو صدقوا » لما اشركنا معنا القراء في التعريف بأمرها خشية الضلالة وخوفاً من الحيرة المربكة . ولولا قول الرسول الكريم : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها » لما وقفنا عند تلك النبوءات ولما رافقنا فكر نوسترا داموس في تحديه للمجهول ، وتخطيه لحقب الزمن وخوضه فيما يسمى باللامعقول ، ولما واصلنا قراءة كتابه الذي يحتوي على كثير من الحكم التي صاغها على طريقة النثر المسجوع ، تماماً كما كان يفعل شيخنا فرح ود تكتوك .

وعلى الرغم من ان تلك النبوءات قد سبق ان سجلت وطبعت في كتب أعيد طبعها عشرات المرات وعلى مدى السنين والقرون التي تلت طبع النسخة الاصلية للمخطوط الا انها تثير اليوم دوِّياً هائلاً في المجتمعات الاوروبية وخاصة في فرنسا وانجلترا .

ولعل الذي أحيا الاهتمام بتلك النبوءات عاملان ، أولاهما مطابقتهما لوقائع تلتها وثانيهما الخوف من حدوث الكوارث التي زعم انها ربما تحدث في السنين التي تسبق نهاية القرن العشرين .

وكما تنبأ الشيخ فرح بالكلام بالخيوط وبالسفر بالبيوت فقد تنبأ الرجل بالسفر في الفضاء ، وبالراديو وبالمعارك التي تدور في السماء . ولكنه لم يكتف بالكلام المعمم المبهم بل ذكر تفاصيل مذهلة ، فقد أشار الى قيام الثورة الفرنسية التي حدثت وقائعها بعد اكثر من مائتين سنة من وفاته وبالتحديد بأكثر من مائتين وثلاثة وعشرين سنة وتنبأ بالثورة البلشفية التي حدثت وقائعها بعد ثلاثمائة وخمسين سنة من قوله ، ووصف مفجريها « بالحمر » تماما كما

حدث واشار في مواقع عـديدة ومختلفـة الى نابليـون والى غزواتـه وانتصاراته وهزيمته وعـودته للحكم بعـد خلعه ثم هـزيمته النهـائية ووصف معركة واتـرلو التي حـدثت في عام ١٨١٥ واشـار الى نفي نابليون الى جزيرة سنت هيلانه . وتكلم عن الحرب العالمية الاولى والثانية والمح لبعض معاركها وتكلم عن دمار ناجازاكي وهيـروشيما بواسطة قنبلتين اثنتين فقط وهو ما حدث بالفعل اذ القيت عليهما أول قنبلتين ذريتين اصابتا من المدينتين مقتلا .

وأشار الى خط ماجينو الذي لم يحل دون غزو المـانيا لفـرنسا . وتنبأ بمحاكمة واغتيال كثير من الملوك والاباطرة والسياسيين وربمـا جـون كنـدي واخيـه روبـرت وشـاه ايـران . وحـدَّد مـواقيت بعض الأحداث العالمية الشهيرة كحريق لندن الذي حدث بعـد مائـة عام بالتمام والكمال من موته هو . وبالطاعون الذي انتشر في انجلترا قبل الحريق بسنة واحـدة . وبفشل حملة غـزو نابليـون لروسيـا في عام ١٨١٢ واسناد سبب الفشل الى البرد القارص . وبمعركة النيـل بين الاسطولين الفرنسي والبريطاني . وباستسلام المارشال بيتان للألمان عام ١٩٤٠ .

والنبوءات التي احتواها الكتاب كثيرة ومثيرة . وهي كما قلنا تقرب من الألف ، ولعل اكثرها اثارة للدهشة والعجب ذكر بعض الاسماء وبالتحديد لرجال خلفوه بعد عشرات السنين ، منهم بـاستير العـالم الفرنسي الذي أسس معهده الشهير في عـام ١٨٨٩ والذي اكتشف الجراثيم التي تعم الهواء والاثير ، فقد ذكره نوستـراداموس بـالاسم وحدد نوعية اكتشافه وتاريخه ومصيره . وأشـار الى قضية دريفـوسي الشهيرة والتي شغلت الرأي العـام الفرنسي طيلة السنـوات من عام

١٨٩٤ الى ١٩٠٦ والتي اشتهر معها شاعر فرنسا فكتور هيجو . ولم تكتف نبوءة نوستر بالاشارة الى تفاصيل المحاكمة وادانة الرجل واطلاق سراحه ثم ادانته للمرة الثانية واخيرا تبرئته، وانما زاد عليها بأن حدد اسم وزير العدل الفرنسي الذي كلفه رئيس جمهورية فرنسا باعادة فتح ملف الدعوى الجنائية ضد دريفوسي ، وكان ذلك في عام ١٨٩٩ ، وكان اسم الوزير روسو تماما كما حددته النبوءة ، وهو بالطبع غير روسو المفكر والسياسي الفرنسي الذي كان له الدور المعلي في احداث الثورة الفرنسية ، وهذا بدوره لم تتجاهله نبوءات الرجل فقد أشار اليه بالاسم ايضا .

وهناك موسليني الذي وصفه بلقبه الذي عرف به فيما بعد وهو الدوتشي وكان قد اشار الى قيام النظام الدكتاتوري في كل من اسبانيا وايطاليا ، وكانت هناك اشارة لا تخفي للجنرال فرانكو ولبنيوتي موسليني .

أما هتلر فقد اشار اليه بالاسم وقد استغل د. جويلز وزير دعاية الرايخ الثالث تلك النبوءة في تبشير الالمان بقرب استيلاء هتلر على الحكم .

ولا تقف نبوءات الرجل عند بلد واحد ، أو قارة بعينها ، ولا عند حقبة تاريخية محددة ، ولا عند نوع معين من الاحداث أو فئة خاصة من الرجال . فالدهر والمعمورة كلها ملكوت نبوءاته .

ومحتويات الكتاب تثير من جديد وبجدية بالغة قضية ماهية الادراك ومدى عمقه وعلوه . وهل هناك ادراك آخر غير الادراك الحسي الذي اصطلح العلماء على تسميته بالمعقول .

ان الأمر اكبر واخطر من تفسيرات فرويد التي لا ننكر أفضالها في

سبر غور بعض مجاهل النفس البشرية . ولكن الأمر يعلو على مجرد الكلام عن الغريزة ، وكيفية تحركها عند الطفولة ، وتناقضها مع ضرورات الحياة الاجتماعية والجنسية والعاطفية ، واصطدامها بالارادات البشرية التي تعلوها كارادة الوالد أو المربي . كما ان النظرية السائدة اليوم لا تسعف ولا تقدم التفسير الامثل أو المقنع ، وهي النظرية التي تحاول تفسير القدرة الخفية عند الانسان بردها الى ادراكه البشري الغريزي العميق والذي تزود به وورثه على مدى ملايين السنين والذي هو اختزال لتجارب كثيرة وتراكم للخبرة التي نالها على مدى القرون والدهور .

وبعد ،

ومهما كان من أمر ثبوت تلك النبوءات وتحققها ولا نقول صدقها امتثالاً والتزاماً بحديث الرسول صلوات الله عليه وسلامه فان الكتاب يصفع ادعياء العلم والمعرفة الذين لا يعترفون الا بالمادة والطبيعة الماثلة ، وينكرون ما عداها وما وراءها .

وصدق الحق فهو القائل :

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

الأيام :

العدد : **١٠٤٧١**

التاريخ : **٢٠ من صفر ١٤٠٢** هـ

الموافق : **١٦ من ديسمبر ١٩٨١** م

رب ضارة نافعة

قبل أيام ، وبالتحديد في الاثنين الرابع عشر من هذا الشهر أجاز الكنيست قانونا تحكمياً فرض بمقتضاه سيادة التشريع الاسرائيلي على مرتفعات الجولان ، وهي اراضي سورية تبلغ مساحتها الخمسمائة ميلا مربعا الا قليلا وتطل على فلسطين المحتلة وتكشف ، ومن ثم ، عورة الدولة الباغية .

وقد ظل حكام اسرائيل منذ قيام دولتهم يرنون بأبصارهم نحو تلك المرتفعات ، ويولون وجوههم شطرها ، ويترقبون اليوم الذي يبسطون فيه سلطانهم عليها الى ان واتتهم الفرصة في أعقاب هزيمة العرب في يونيو ١٩٦٧ فابتلعوها هنيئاً مرئياً .

ومن قديم كان خوف اليهود من الجبال . ولا نجد سبباً لذلك ومبررا ، إلا انهم كانوا قوما رعاه رُحَّلا ، يهيمون بين الفيافي والغفار ويعبرون السهول والانهار . وكانت الجبال والهضاب التي تقف شامخة وسط الأراضي المنبسطة والصحراء الممتدة سكناً للجن ، في حسبانهم ، وملاذاً للزواحف السامة ، ومغاراتٍ للحيوانات

الكاسرة ، ومكمناً للصوص ، وملجأً لقطاع الطرق . . . ومن هنا كانت خشيتهم لها .

وقد فطن الى ذلك علماء بني اسرائيل فملأوا اسفارهم وامثالهم بالمعاني التي تشير الى احتمال غضبة الجبل وفورته إن تمادى الناس في ارتكاب المعاصي والمحرمات .

وكذلك فعل العهد القديم ، وهو الاسم العلمي للتوراة ولمجموعة أسفار الانبياء . ومن بعده الانجيل ، ثم القرآن الكريم الذي أشار الى ذلك في اكثر من موضع :

« واذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظله وظنوا انه واقع بهم » الآية
« واذا أخذنا ميثاقهم ورفعنا فوقهم الطور . . . » الآية

ولا تقتصر علاقة اليهود بالجبال والمرتفعات والهضاب على مجرد الخوف منها وبما يمكن ان يحدث لهم منها عقاباً على ممارسة الرذيلة ، وجزاءً على ارتكاب الاثام والفواحش . فقد زخر تاريخهم بالكثير من الاحداث التي تلتصق بتلك الظواهر الجغرافية الطبيعية وتدور حولها . فموسى عليه السلام تلقى الوحي عند الجبل ، بعد ان صام ثلاثين ليلة وزاد عليها بعشر . . . والجبل لم يستقر مكانه بل صار دكًّاً عندما تجلى له الرب وخر موسى صَعِقا . . . والتوراة تضيف على ذلك وتروي انه عندما نزل موسى من الجبل كان يحمل بيديه ولأول مرة لَحْيْ الشهادة ، التي صنعها الرب سبحانه ، ونقش عليها الوصايا العشر .

وداؤ ود لم يتسن له حكم فلسطين ، ولم يتيسر لليهود استيطانها ، إلا من بعد ان تسلق جبل صهيون الذي يقع جنوب بيت المقدس

واقتحم الحصن الذي كان يلوذ به اعداؤه من اليبوسيين ، وبنى عليه المدينة التي اشتهرت باسمه .

ومريم بنت عمران ، التي احصنت فرجها ، لم تجد لها ملاذاً تلوذ به وإبنها إلا الربوة العالية ذات القرار .

ومن قبل هؤلاء جميعا كان امتحان ابراهيم وابتلاؤه بذبح ابنه عند الجبل فقد اشارت الى ذلك التوراة في سفر التكوين « ان الله امتحن ابراهيم . . . وقال له خذ ابنك الى جبل المورياً واصعده الى هناك الى أن اقول لك » .

ولا يقف تعلق اليهود بالجبال عند تاريخهم القديم ، بل يتجاوزه الى التاريخ الحديث. فالحركة الصهيونية تتخذ اسمها من جبل صهيون . وكانت نواتها جمعية سميت « جمعية عشاق صهيون » أسست عقب مذبحة اليهود الشهيرة في روسيا عام ١٨٨٢ . ولا يزال بعض من متعصبي اليهود يطلقون على فلسطين اسم ارض صهيون نسبة للجبل الأشم .

ولكن مهما كان من أمر تعلق اليهود بالجبال ، حباً أو كرهاً ، خوفاً أو طمعاً ، فانه لا الجولان ولا غيرها ستعصمهم من أمر الله اذا جاء . . . ومن قبل كانت تجربة ابن نوح الذي كان بمعزل من أبيه النبي ، ولم يعصمه الجبل من الطوفان ، فكان من المغرقين . . . ومن بعد كانت أيضاً تجربة يهود يثرب وخيبر الذين « ظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين » .

ولعلنا لا نبتعد عن الحق كثيراً ان زعمنا أن ثمة شبهاً كبيراً بين

تصرفات يهود المدينة في أيامهم الاخيرة ، وخاصة بني النضير الذين نزلت في حقهم بعض آيات سورة الحشر ، وبين القوم الذين يحتلون فلسطين اليوم . فكلاهما بطرت معيشته ، وكلاهما استضعف العرب واستهان بهم ، وكلاهما غره بالله الغرور . ولا غرو ولا عجب فهؤلاء من صلب أولئك . وقديما قال العرب « لا تلد الحية الا الحية » . واصدق منه وابلغ كان قول القرآن الكريم في قوم نوح وامثالهم من الظالمين انهم لا يلدون الا فاجراً كفَّاراً .

فبنو النضير كاحفادهم خرقوا المواثيق ، وحنثوا بالوعد ، وحسبوا انهم اقوياء يستحيل اخراجهم من حصونهم . فطغوا ، وبغوا ، وتآمروا على دولة الاسلام الفتية ، وظنوا انهم وحلفاءهم من المشركين قادرون عليها .

ولا نجد تفسيرا لطيش حكام اسرائيل الذي بدا واضحا في فعلتهم الخاسرة بالجولان غير سيطرة عقلية ابائهم عليهم ، فما كان اغناهم عن كل هذه المشاكل التي فجرتها حماقتهم الاخيرة . فقد ظلت الجولان وعلى مدى الخمسة عشر سنة التي تلت حرب يونيو ١٩٦٧ تنوء تحت اقدامهم النجسة الثقيلة . وتخضع لسلطاتهم ولسيطرتهم الفعلية . وما كان احراهم ان يتجنبوا الغزلة الدولية التي صاروا عليها اليوم والتي تسببوا فيها بصلفهم وغطرستهم وغرورهم . ولعلهم تيقنوا ان العالم سيقبل صاغراً قرارهم بسيادة التشريع الاسرائيلي على تلك المرتفعات كما قبل من قبل سيادة نفس القوانين على اورشليم القدس .

ولكن يبدو انه قد غاب عن ادراكهم ان العالم يعلم اليوم ان فرض تلك السيادة ان هو الا تمهيد لضم الهضبة الى بقية الاراضي

المغتصبة ، التي تشكل اقليم الدولة المعتدية ، تماماً كما كان بسط سيادة القانون الاسرائيلي قبل سنين توطئة لضم بيت المقدس وبكل قطاعاته الى حظيرة اسرائيل نقضاً للمواثيق الدولية ، وخرقاً لاتفاقيات الهدنة ، واستهتاراً بقرارات الامم المتحدة .

وليس أدل على صلف اليهود وغرورهم الذي أعمى أبصارهم مثل ردهم على قرار رئيس الولايات المتحدة بتعليق اتفاق التعاون الاستراتيجي الذي تم توقيعه بين امريكا واسرائيل في الثلاثين من نوفمبر الماضي ، فقد قرر بيغن ومجلس وزرائه الغاء تلك الاتفاقية من طرف واحد .

ومهما قيل عن صلابة الصلة بين الدولتين ، ومهما حاول بعض المسئولين الامريكيين التقليل من خطورة رد الفعل اليهودي على تلك الصلة ، فان ثمة شرخاً كبيراً وقرحاً غائراً قد اصابا العلاقة الوطيدة بين امريكا وربيبتها العائق .

وهو أمر سعد له العرب ، بل ومنهم من له صفق ، وعلى انغامه رقص . . . ولكن نخشى ان يكون وراء فعلة اسرائيل بالجولان تدبيراً ، ووراء افتعالهم الأزمة مع امريكا تخطيطا . . . ومن قبل وعلى مدى الثلاثين سنة واكثر التي هي عمر دولة اسرائيل كانت المفاجآت المذهلة ، والضربات الغادرة ، والحروب الخاطفة ، من أسباب انتصاراتهم المتوالية . فقد كان ذلك دأبهم في حرب عام ١٩٥٥ ، وفي حرب يونيو ١٩٦٧ ، حيث ظهرت الدولة الباغية بمظهر المُستضَعف الذي يخشى هجوم مصر ، لتغطي تدبيرها واستعدادها للهجوم المباغت . والذي كان نتيجته هزيمة العرب بعد أن سيطر الطيران الاسرائيلي على الاجواء المصرية والسورية اثر

ضربتهم القاضية لسلاح الطيران المصري .

وبالأمس كان الظن انهم سيوجهون ضربتهم الى حيث الصواريخ التي نصبتها سوريا في البقاع . وكانت كل تصريحاتهم وتحركاتهم العسكرية تشير الى ذلك ، ولكن ظهر ان كل ذلك كان تغطية وتمويها لغاراتهم الغادرة على المفاعل الذرية العراقية . . . ولعلهم يبيتون اليوم أمرا آخرا . ربما كان هو غزو جنوب لبنان ، أو ربما كان ضرب مواقع صواريخ سام السورية في البقاع ، أو ربما قد ارادوا أن يمتحنوا مدى تضامن الرئيس المصري الجديد مع سوريا ومدى تمسكه باتفاقية كامب ديفيد بُعداً أو قُرباً من بقية أمة العرب ، أو لعلهم يسعون لايجاد ثغرة تبيح لهم التنصل من تنفيذ الجلاء عن شبه جزيرة سيناء والذي بات وشيكا حيث حدد له الخامس والعشرين من ابريل القادم .

وما من سبيل امام العرب لدرء الخطر ولمقابلة تخطيطات اسرائيل الشيطانية الا باعادة النظر في أمر خلافاتهم والسعي الى توحيد صفوفهم . وهو أمر ليس باليسير أمام الشُقة التي تباعد بينهم اليوم ، وامام الهوة التي ظلوا يزيدونها عمقا بتصريحاتهم الجارحة وپردود فعلهم العفوية المتتالية ، حتى لم تبق من صلة حقيقية تربط بين اطرافهم الا اللغة العربية الفصحى والتي نخشى ألا تصمد طويلا امام اللهجات الدارجة المتعددة وأمام الرطانات الاجنبية التي تلوكها الألسنة الغلف والافواه المتفرنجة . . . ورحم الله شاعر النيل حافظ ابراهيم فقد لمس الامر ونبه الى خطورته منذ اكثر من نصف قرن من الزمان ، فهو القائل على لسان لغة القرآن :

أنا البحر في احشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم ابلى وتبلى محاسني
ومنكم وان عز الدواء اساتي
فلا تكلوني للزمان فانني
أخاف عليكم ان تحين وفاتي

وبالطبع ، ومهما قيل من ان العروبة لغة لا جنس ، فان اللغة المشتركة لن تكون وحدها حامية التراب والتراث ، وان كانت اهم مظاهر الوحدة فهي نفسها قد تأثرت بهجمة الاستعمار العاتية .

سرتْ لوثة الافرنج فيها كما سرى
لعاب الافاعي في مسيل فرات

ان العرب مطالبون اليوم بالتقلب على عواطفهم السائبة ولن يكون ذلك الا بتحكيم العقل وتبين مواقع اقدامهم . ولعل بداية الهداية تكمن في اعادة النظر في موقفهم من مصر . فمصر مهما قيل عنها ، ومهما حملت من اوزار بعض حكامها ، هي منارة الأمة العربية . وهي المؤهلة تاريخاً وحضارةً وثقافة وثِقلاً سكانياً وعدةً وعتاداً لتتبوأ المكان السامي والمرموق بين اشقائها .

وكما أن الدول العربية التي قاطعت مصر كرد فعل لانفصالها عن الحُلم العربي ، كما يقول نزار ، مطالبة باعادة النظر في أمر تلك المقاطعة الضارة والتي لم يجن العرب من ثمارها الا الشوك ولم يذوقوا لها طعما غير الحنظل ، فان مصر بدورها مطالبة بأن تخطو خطوات تصون للعرب الكرامة ، وتحفظ لهم ماء الوجه ، وتصحح

المسار الذي زحمته بعض المتاريس . ولعل مصر قد أدركت اليوم أنه يصعب عليها وحدها أن تزرع ورود السلام في أرض شديد الملوحة كاسرائيل .

ولندع الله جميعاً ان يجمع الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا .

و

« عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم . »

الأيام :

العدد : ١٠٤٧٧

التاريخ : ٢٧ من صفر ١٤٠١ هـ

الموافق : ٢٣ من ديسمبر ١٩٨١ م

انه لافك قديم

ونعود مرة ثالثة لنكتب عن بولندا المغلوب على أمرها . ليس بغرض التجني على احد ، أو لتصفية حسابات الفكر مع قوم طال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم كالحجارة أو أشد . وانما لندحض الباطل الذي طغى وبغى واستبد . ونكشف الزيف الذي عربد وسرى وتجاوز الحد . ونصفع الغرور الغبي الذي تطاول وارغى وازبد . ولنفضح الكذبة الكبرى التي تزعم ان دولة السوفيت نصيرة للعمال بمالا مثيل لها ولا قرين ولا ند .

ونجيء بالصدق الذي يحاولون عبثاً أن يكذبوه ، ونقول الحق الذي يجهدون أنفسهم ليطمسوه ، لا نكابر ولا نهاتر ، كدأب أولئك الذين أقعدتهم الحجة وصفعتهم الوقائع والحقائق ، فلجأوا الى الافتراء والاثارة ، يرددون الشعارات القديمة البائرة ، التي تزعم انهم طليعة البروليتاريا . ويكررون النداءات العقيمة الخاسرة ، التي تلتمس ود الطبقة العاملة ، عندما يكونون خارج الحكم أو في المعارضة . والذين سرعان ما يتنكرون لها بل ويسقونها المر ويكيلون لها اللكمات القاضية ، عندما يرتقون سلم السلطة وتتحقق

لهم السيادة والسيطرة الكاملة .

ولعله ما من بلد يكشف زيف ادعاءات القوم ، ويعرى افكهم القديم ، ويظهر تلك الحقيقة واضحة ماثلة كبولونيا ، حيث الانفصام يبدو كاملا بين الماركسية كنظرية تحتويها بطون المتون والكتب ، وكأفكار صالحة للتطبيق توجه المسار ، وتنير الطريق .

وما من أحداث كشفت افتراء السوفيت وجرأتهم على الحق واحتقارهم لذكاء الآخرين كأحداث بولندا . حيث يحاولون جاهدين اسناد اخطائهم لفعل الأولين والآخرين ، والصاق سواءاتهم برقاب اعدائهم ولو كانوا عن الساحة غائبين .

فقد هبوا بالأمس لنجدة عميلهم ، حامل مصباح ابليس ، الذي نصبوه حاكما مطلقا على ذلك البلد التعيس ، بعد ان أوحوا له ان يجمع بين يديه كل السلطات من زعامة الحزب الى رئاسة الحكومة الى قيادة الجيش ، تماماً كما فعل من قبل شيخهم برجنيف .

وسرعان ما نشطت أجهزة اعلامهم لتتهم معارضة الشعب البولندي ومقاومته للبغي والعدوان ، بأنها من فعل فئة قليلة مارقة ارتمت في أحضان الامريكان ، وباعت نفسها للشيطان ، الذي هو بزعمهم وكالة المخابرات الامريكية ، ورصيفاتها وكالات التجسس الغربية .

وتناسى القوم ان العالم يدرك ان الشعب البولندي كله مغلوب على أمره . وان هبته الاخيرة التي ظلت تتأجج منذ عام ونصف ان هي الا امتداد لغضبته التي بدأت قبيل الحرب العالمية الثانية وبالتحديد منذ أغسطس عام **١٩٣٩** عندما أبرم مولوتوف وزير

خارجية روسيا على عهد ستالين معاهدة عدم الاعتداء مع رصيفه الهرفون روبنتروب وزير خارجية هتلر والتي ابتلعا بموجبها بولندا بعد ان شطروها الى شريحتين كان نصيب روسيا الجزء الشرقي الذي يتاخم حدودها الغربية .

وكدأبهم حاول السوفيت ايجاد المسوغ لفعلتهم . فزعموا انهم ما قصدوا بها الا وقاية ذلك الجزء العزيز من أرض بولندا من ان يقع فريسة لاطماع هتلر ونظامه الفاشي . وقد صدقهم البعض واحسنوا بهم الظن ، ولكن سرعان ما خاب الفأل عندما اكتسحت جيوش هتلر كل اقليم بولندا ولم تبد القوات الروسية مقاومة تعسف الحال ، فقد توغل النازيون حتى باتوا على ابواب موسكو يقذفونها بالصواريخ التي كانت تتساقط عليها كالنبال .

وعندما دارت الدائرة على هتلر وبدأت مقاومة البولنديين تتصاعد ضده خاصة في فارسوفيا وقفت الجيوش السوفيتية على ابواب العاصمة تتفرج على المجزرة التي راح ضحية لها عشرات الالوف من رجال المقاومة على أيدي النازيين رغم مناشدة المقاومة للروس لنجدتها . ولم يلب ستالين النداء ويدخل العاصمة الا عند اكتمال انسحاب جيوش هتلر منها وبعد ان قضت على المقاومة الشعبية التي لم يسهم فيها الحزب الشيوعي البولندي بقسط يتناسب مع ادعائه الغليظ فيما بعد . وقد تبين ان الروس قد امتنعوا عن نجدة المقاومة حتى يتم القضاء عليها ، ومن ثم ، تخلو الساحة لرفاقهم الشيوعيين البولنديين للسيطرة على زمام الأمور . . . وبالفعل فقد تم لهم ما ارادوا .

ومنذ ان أمسك اعوان موسكو السلطة لم تهن معارضة الشعب لهم

ولم تلن قناته . وقد بلغت المقاومة ذروتها في منتصف الخمسينات حيث احتدم الصراع وحدث الصدام الذي راح ضحيته عشرات من الموتى والجرحى . وكذلك في بداية السبعينات حيث تساوت الحصيلة مع سابقتها . واخيراً وفي اغسطس من عام ١٩٨٠ عندما ظهرت نقابة التضامن لتقود نضال الشعب من أجل استعادة حرياته ومن أجل تحسين ظروف معيشته المتردية .

ولعل الدليل على كذب مزاعم السوفيت بأن حركة التضامن حركة مفتعلة قوامها قلة من المثقفين والعمال المأجورين ، انها انتظمت كل فئات الطبقة العاملة البالغ تعدادها عشرة ملايين نسمة والتي تشكل اكثر من ربع سكان بولندا .

وثمة أدلة اخرى تدحض ادعاءات الروس . فلو كان الأمر كما يزعمون لما بقي تنظيم التضامن على قيد الحياة لمدة تقارب السنة ونصف في بلد يعلم الجميع نوعية القوانين التي تحكمه ، ومدى الكبت والحرمان وانتهاك الحريات التي تسوده .

ولو كان الأمر كما تصوره أجهزة الدعاية السوفيتية لما اضطر الروس للتهديد باحتلال بولندا ووضعها كلها تحت مظلة قوات حلف وارسو ، ولما اضطروا للضغط على عملائهم لاعلان حالة الحرب والطوارىء التي لازالت قائمة بالبلاد ولأكثر من اسبوعين ، ولما فرضوا حظراً للتجول يبدأ من العاشرة ليلاً ويستمر حتى السادسة صباحاً ، ولما اضطروا لاغلاق كافة دور العلم من جامعات ومعاهد ومدارس ، ولما حرموا كل مظاهر النشاط الثقافي والرياضي من مسرح وسينما واندية اجتماعية ورياضية ، ولما قطعوا كل وسائل الاتصال الهاتفي والسلكي واللاسلكي ، ولما منعوا السفر داخل

•

البلد وخارجه ، ولما اغلقوا المطارات ، ولما اقتحموا الكنائس والِبيع وغيرها من دور العبادات بحثا عن الأدب المحظور وعن القادة المناوئين ، ولما زجوا بآلاف المعتقلين من الطلاب والعمال والمثقفين في معسكرات الاعتقال وفي السجون . وفوق كل ذلك لما سلموا السلطة كاملة لمجلس عسكري يربو عدد اعضائه من كبار الضباط عن العشرين ، ولما جابت الدبابات والمجنزرات الشوارع تثير الرعب وتبث الهلع ، ولما اضطروا للاستعانة بالطائرات العمودية والحوامة رصداً لما خفي من نشاط سياسي مناوىء وتحسبا للمفاجآت .

ان مجموع هذه الاجراءات لخير شاهد ودليل على اتساع حركة مقاومة البولنديين للنظام الذي صبروا عليه طويلا ، والذي ظل ولأكثر من خمسة وثلاثين عاما يمنيهم بالأماني ويعدهم بالفردوس المفقود . وقد امتدت المقاومة الى داخل البرلمان الذي كان الشيوعيون يحسبون انه منطقة مقفولة لنفوذهم ولذلك لم يتوانوا عن تعطيل جلساته بعد إن أظهر بعض اعضائه تعاطفاً مع حركة الشعب ، بل اضطروا لتجميد نشاط الحزب الشيوعي نفسه بعد ما تبين لهم ان ثلث عضويته قد انتظمت في صفوف نقابة التضامن وان ما بقي في الحظيرة من الرفاق ، ان هم الا مواكب للنفاق ، لا يقدمون ولا يؤخرون ولا يسعفون .

إن مجرد اعلان حالة الحرب دون ان تكون هناك حرب خفية أو معلنة ضد دولة أجنبية ، وما تبع ذلك الاعلان وما ترتب عليه من اجراءات ، توضح مساحة العداء الداخلي للنظام وتبين الصورة الحقيقية للحالة داخل البلاد وتفضح ادعاء الروس واشياعهم بأن ما

يدور في البلد المنكوب ان هو الا زوبعة في فنجان ، تثيرها قلة مارقة من المأجورين والرهبان .

واقع الأمر ان مصدر الزوبعة وسبب الغليان الانفصام التام بين الشعب والشيوعيين الذين يتشبثون بالسلطة ويتعلقون بها دون تأهيل .

ومنذ عشرات السنين وبالتحديد في اكتوبر من عام ١٨٩٩ كتب لينين عن برنامج الحزب الشيوعي ، يقول :

« اننا نبني قلاعنا الفكرية على أساس النظرية الماركسية ، التي جعلت من الاشتراكية عِلماً سويا ، بعد ان كانت مجرد أماني واحلام طوبوية ، والتي أوضحت لنا ان المهمة الرئيسية التي تقع على عاتق الحزب الاشتراكي الثوري ليست هي وضع الخطط لاعادة صياغة المجتمع ولا هي اسداء النصح للرأسماليين ووعظ اشياعهم من أجل تحسين شروط خدمة العاملين ، وليست هي تدبير المؤامرات والاعداد لها وانما تتلخص مهمتنا الرئيسية في تنظيم صراع البروليتاريا الطبقي وقيادته بهدف الاستيلاء على السلطة السياسية وتأسيس المجتمع الاشتراكي » .

ويظهر ان الاحزاب الشيوعية ومن ضمنها ما تبقى من فلول الحزب الشيوعي البولندي قد التزموا بحرفية جانب من المهمة التي حددها لينين وهي الاستيلاء على السلطة واهملوا الشق الآخر منها وهو الخاص بتأسيس دعائم المجتمع الاشتراكي الذي ينعم فيه العمال .

وليس أدل على ذلك من هذه الصراعات غير المبدئية ،

والتصرفات الانتهازية ، التي صارت طابعا ملازما ولصيقا بالاحزاب الشيوعية ، والتي تدوس على كل القيم الانسانية ، وتقطع حبال الود الرفاقية ، والتي تركب كل موجة وتتسلق كل درج من أجل الاستيلاء على السلطة . وبالأمس أصدر الجنرال ياروزيلسكي حاكم بولندا وأمين عام حزبها الشيوعي أمراً باعتقال ثلاثين من رفاقه ، وعلى رأسهم أدورد جيريك سكرتير عام الحزب الأسبق والذي كان له الفضل في تصعيده وارتقائه لسلم المسئولية ، وزج بهم مع الآخرين من زعماء نقابة التضامن . ومن قبل في عام **١٩٥٦** استولى الرفيق كادار على الحكم في هنغاريا على أسنة رماح الروس وعلى اشلاء وجثث الآلاف من مواطنيه ، ولم يكتف بذلك بل أصدر أمرا بالحكم باعدام زعيمه وسلفه في رئاسة الوزارة وقائد حزبه إمري ناجي بعد ان غدروا به. وكذلك استولى الرفيق هوساك على السلطة تحت مظلة القوات السوفيتية التي فرضته أمينا عاما للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي وذلك على أنقاض حكم رئيسه الرفيق دوبشيك .

ومن بعد كادار وهوساك كان كارمال الذي نصبته القوات السوفيتية الغازية حاكما على أفغانستان ، وزعيما لحزبها الشيوعي قبل سنتين من الزمان ، وبعد أن تآمرت على اغتيال ربيبها حفيظ الله وقبله عميلها نور .

ان العالم قد ابتلى في هذا القرن مرتين بالشيوعيين والفاشيين ، والذين هم بالرغم من العداء الذي كان قائما بينهم ابناء مدرسة واحدة فهم كلهم حواريون لنيقولا مكيافللي ولنظرياته التي تقرر أن « الغاية تبرر الوسيلة » ولن يغير من هذه الحقيقة تنكر الشيوعيين للرجل وتنصلهم من أفكاره .

ولعله مؤسس الحزب الفاشستي الايطالي بنيتو موسليني كان أكثر منهم صدقا . اذ لم يخف اعجابه باستاذه مكيافللي فقد جعل كتابه « الأمير » موضوعاً لرسالته التي نال بها درجة الدكتوراه وزاد على ذلك بأن خط بيمينه مقدمة احدى طبعات الكتاب .

والحديث عن تجربة بولندا يطول ولا يكاد ينتهي . . . ولعل مأساتها تعيد العقول الغائبة ، وتنفخ الروح في النفوس الهامدة . . . وليس ذلك على الله بعزيز .

الأيام :
العدد : **١٠٤٨٢**
التاريخ : **٤** من ربيع الأول **١٤٠٢** هـ
الموافق : **٣٠** من ديسمبر **١٩٨١** م

الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان

كتبت قبل ثلاثة أسابيع متسائلاً عن القوى الخفيـة الخارقـة التي يمتلكها البعض ، وعن القدرات العجيبة التي خص الله بها طـائفة من الخلق . . . وقد كان مدخلي لذلك التساؤ ل كتابا كنت قد قرأته عن رجل يهودي فرنسي يسمى نوستراداموس عاش في القرن السادس عشر وصدرت عنه نبوءات كثيرة تدعو للعجب ، وقلت ان محتويات الكتاب وصدق كثير من تكهنات الرجل تثير من جديد وبجدية بالغة قضية ماهية الادراك ومدى عمقه وسموه وهل هناك ثمة ادراك واع غير الادراك الحسي الذي اصطلح العلماء على تسميته بـالمعقول . . . وقد زعمت ان تفسيرات فرويد التي لا يمكن انكار فضلها في سبـر غور جانب من مجاهل النفس البشرية لا تسعف الحال ولا تقدم الرد الأمثل أو المقنع كما ان النظرية السائدة الان تقصر بدورها عن اعطاء التفسير المريح لبعض الظواهـر غير العـادية التي تـدخل في نـطاق الميتافيزيا أو علوم ماوراء الـطبيعة وهي النـظرية التي تحـاول تفسير القدرة الخفية عند الانسان بردها الى ادراكه البشري الغريزي العميق الذي ورثه وتزود به عبر ملايين السنين والـذي هو اختـزال لتجارب

عديدة وتراكم لخبرات اكتسبها ونالها على مدى القرون والدهور .

ولم اشأ ان أسترسل قائلاً ان جهلنا بماهية تلك القوى الخفية لا يعني نكران وجودها . وان عجزنا عن تكييف أصل تلك الملكات الخارقة لا يقعد بنا عن مواصلة البحث في أمرها ويؤدي بنا الى إهمال شأنها حيث اننا جميعا نملك ناصية منها . ولعل اكثرها التصاقا بنا مكنة التلبُّثي التي استقرت تسميتها بتوارد الخواطر أو قراءتها .

ولم أحاول كذلك إيراد ألحجج التي يثيرها اعداء النظرية السائدة والتي تعرِّف تلك القوى بأنها ملكات كامنة في الشعور نستخدمها عند الحاجة القصوى . والتي نتهمها بالضيق والقصور ، إذ ما بال تلك الملكات تنفذ من وراء الحجب وتميط اللثام عن أحداث مقبلة لا جذور لها ولا صلة خفية أو ظاهرة بوقائع الماضي المخزون وغير المخزون . ثم لماذا كانت هذه القدرة الخارقة وقفاً على قلة من الناس دون الكافة ؟ ولماذا تتفاوت كمًّا ونوعاً ومن حيث التواتر والمواصلة ؟

وقد اثار ذلك المقال المقتضب ، والذي لم يأت بشيء جديد ، كثيراً من المناقشات التي لم تقتصر على معالجة ما خطه اليمين وسطرَّه القلم ، وانما تجاوزته الى شخص والى دوافعي من الكتابة . حيث لم تقفْ بعض الرسائل التي تلقيتها عند مجرد النقد بل تعدته الى القذف والتجريح بعضها بالقول الصريح وبعضها بالتلميح . فمنها ما قال وزعم أنه عين الافلاس الذي يدفع بالرجل الى تلمس المخرج عند كرامات الاولياء الزائفة ، وانها عين الردة التي تجعله يسبح بين امواج الخيالات العابثة ، وتدعوه الى تصديق الرؤ ا

واضغاث الاحلام الكاذبة . ومنهـا ما كتب وجـزم انها عين الضيـاع والحيرة تملكت منه النفس والناصية .

كل ذلك لمجرد اني وقفت مشدوهاً امام تنبوؤ ات رجل وتكهناته بأحداث وقعت بعد مماته بعشرات بل مئات السنين وفي زمن لم يكن العالم ضيقاً ومترابطاً كعالم اليوم ولم تكن وسائل المعرفة والاتصال كما هي عليه الآن وبـوصف دقيق لا تجاريـه ادعاءات المنجمين ، وبتحـديد ليس كمثله شيء من استنتـاجـات واستقـراءات الفلكيين الذين نقرأ لهم بداية كل سنة وفي اعقابها . . . وقد تساءلتُ جاداً عن العلاقة بين المعقول واللامعقول وفي ذهني قول تولستوي انه منذ ان بدأ الانسان سعيه في الأرض وهو يبحث عن العلاقة بين المحـدود واللامحدود وانه من الضروري ان يـوفق الفكر الانسـاني الى ايجاد حـل للتناقض القـائم بينهما لأن في ذلـك جوابـاً لكثيـر من الاسئلة الحائرة ، التي تـدور حول مسـائل الحيـاة الغامضـة ، وحلا لبعض عقدها المستعصية وطلاسمها المحيرة .

ولكن ما حيلتي أمام المتطفلين على العلم ، أدعياء المعرفة الذين ينظرون الى الحقيقة من بعض جوانبها وينقصونها من اطرافها .

وما حيلتي وقد كاد أن ينطبق علينا قول العقاد اننا نعيش في بيئة « يبـاح فيها القـول لكل قـائل » ، فقـد إختلط الحابـل بـالنـابـل ، واصبحت بعض المنابر والمحـافل ، مـرتعاً لكـل مسرف مـرتاب ، يصدر الأحكام يمنة ويسرة دون رقيب وبغير ما حسـاب ، لا يخاف الله ولا يخشى العقاب .

وما حيلتي وقد أصبحتْ هناك أمة من البشر تمسك بالاقلام ومـا خُلقتْ اكفها لها ، تترصد الناس ، تسد عليهم الطريق وتعد عليهم

الانفاس .

ولكن العزاء ، ان ليس كل الناس سواء . فليسوا كلهم كما قال شاعر النيل « ألسنة اذا قال هذا صاح ذاك مفندا » . فمنهم مقتصد وسابق بالخيرات .

ومن هؤلاء المقتصدين الخيرين الأخ الكريم العالم الجليل الذي نحسب انه يخشى الله ويتقه البروفسير احمد عبد الرحمن العاقب رئيس المجلس القومي للبحوث والذي نثق انه سيضع اللبنة المتينة لدولة الايمان والعلم فقد تفضل بالاتصال بي اثر قراءته لحديثي وارسل لي نص محاضرتين كان قد القاهما في رحاب جامعة الخرطوم في عام ١٩٥٥ مقتضاهما ان هناك ثمة طاقة غير الطاقات المعروفة تعمل بها المخلوقات الحية من نبات وحيوان وقد سمى تلك الطاقة التي افترض وجودها بالطاقة الحيوية « فايتل إنرجي » .

وقد أشار العالم الجليل الى انه ومنذ ان توصل الى حيثيات نظريته تلك ظل يقف عند مواقع مَدافِعها كما يقول المثل الانجليزي ولم يضف الى مادتها الا معادلات رياضية فسَّر بها توازن تلك الطاقة . وقد راعه وربما أسعده ان ثمة كتباً كثيرة تُعنى بدراسة علوم ماوراء الطبيعة « بارا فيزيكسي » وماوراء العلوم النفسية « باراسيكولوجي » طُبعت بعد اكثر من عقد من الزمان من القاء محاضرتيه قد أشارت الى تلك الطاقة التي كان هو سبَّاقاً للتعرف عليها وأن مؤلفي بعض تلك الكتب قد اطلق عليها نفس الاصطلاح « فايتل انرجي » الذي سماها هو بها .

وبما ان الرجل عالم وأن من سيما العلماء التواضع فقد صرف الأمر الى انه مجرد توارد خواطر حيث انه لم ينشر محاضرتيه خارج

البلاد .

وقد أشار بروفسير العاقب في بحثه القيم الذي تكرم بارساله اليّ والذي سماه آفاق علمية جديدة الى قول دكتور فازلييف وهو احد كبار علماء السوفييت الحاملين لجائزة لينين والذي يحظى باحترام وافر في دوائر العلم الغربية بأن اكتشاف هذه الطاقة سيكون له أثر يضاهي أثر اكتشاف الطاقة الذرية . . . ولعل في زعم هذا العالم السوفيتي الذي هو عضو باكاديمية العلوم الروسية ما يُسكتْ الرفاق ويكفينا شرهم حيث أنهم يقدسون كل قول سوفيتي ويعتبرونه من المأثورات ، ولعلهم لو كانوا قد اطلعوا عليه لما رموني بالشعوذة والايمان بالدجل والخزعبلات والحيرة والضياع .

ويواصل البروفسير بحثه ويقول ان قدماء الصينيين كانوا يؤمنون بوجود مثل هذه الطاقة وانه يجد فيها التفسير الوحيد لجدوى علم الوخز بالابر الذي يمارسونه في مجال الطب الشعبي الصيني ، ويضيف ان ممازاد في الاونة الاخيرة من الاعتقاد ، بل اليقين ، بوجود هذه الطاقة نجاح بعض الفنيين الروس في تصويرها بواسطة جهاز استطاع عن طريق الذبذبة العالية ان يظهر الهالة النورانية التي تحيط بالأجسام والتي اتضح انها تختلف حسب حالة الشيء الحي ومزاجه ومرضه وعافيته وحياته ومماته .

ويسترسل عالمنا الجليل ويقول ان تفسيره الذي قدمه عن هذه الطاقة قبل ربع قرن من الزمان مازال أصيلا وفريدا وهو يعطي الحلول لكثير من الظواهر العادية وغير العادية التي تزخر بها مجالات علوم الحياة والعلوم المسماه بعلوم ماوراء الطبيعة . وانه مما يدهشه ان العلم الحديث ظل مغترباً طيلة هذه القرون عن تلك المجالات

لاختصاره بلا مبرر ولا مسوِّغ على النواحي المادية والتجريبية تاركاً غيرها ومبعداً لها على أساس أنها من ضروب الشعوذة وذلك لمجرد قصوره عن ايجاد التفسير المادي أو التجريبي لها . . . وصدق الحق الذي قال :

« بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .

ويعزي استاذنا هذا القصور الى اتجاهات النهضة العالمية التي قامت في أوروبا على انقاض النهضة الاسلامية والتي حاولت ابعاد المفهوم الروحاني أو اللامادي مواصلةً بذلك سعيها لاستئصال الحضارة الاسلامية وتراثها .

كما انه لا يعفى جمهرة المسلمين من المساهمة في ذلك القصور تأسيسا على عدم تبصرهم في تفسير بعض آيات القرآن الكريم رغم ان الله سبحانه وتعالى يدعو خلقه لتحصيل مزيد من العلم « وقل ربي زدني علما » ويحثهم على التفكير والتمعن في خلقه لأن فهم اسرار الاشياء والعلم بها يزيد من ايمان الانسان بقدرة خالقها وحكمته . كما ان الانسان مهما أوتي من ملكات لن يصل الى علم أي شيء الا بمشيئة الله تعالى « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء الله » .

ولقد وفق العالم الجليل كل التوفيق عندما ذكر ان أساس مفتاح البحث العلمي وصمام امانة تلك الآيات البينات من سورة آل عمران :

« ان في خلق السموات والأرض . . . » الآية التسعين بعد المائة والكريمة التي تليها . . .

وينتقل بروفسير العاقب ليشرح أساس نظريته ويتساءل ما الذي يختلف من أمر ملايين المخلوقات التي تظل تسرح وتمرح ، تأكل وتشرب وتتناسل ، ثم تموت وتهمد حركتها لتكون هباء منثوراً وعظاماً نخرة بفعل البكتريا وغيرها . انه يقول ان نفس المواد الكيماوية التي كانت تتكون منها لم تتغير بين لحظة الحياة ولحظة الموت ولكن هناك شيئاً ما تغير أو همد بين تلك اللحظات والا لما حدث ذلك التغيير الكبير . . . انه يقول ان ما غاب في تلك اللحظات هو نوع من الطاقة التي قد تكون من الطاقات المعروفة مثلا فهي أقرب الى الطاقة الكهربائية ولكن هناك من الاسباب والظواهر التي لا يمكن تفسيرها تأسيساً على انها طاقة كهربائية أو تسبيباً على سواها من الطاقات المعروفة . . . ومن هنا كان سعيه لايجاد تسمية خاصة بها والتي استقر رأيه على وصفها بالطاقة الحيوية ومن هنا ايضا كان مفهومه بأن الحياة بكامل معناها هي المقدرة على توليد واستغلال الطاقة الحيوية .

وفي نظره ان صحة هذا الافتراض أو هذه النظرية تتأكد بمدى تمكننا من تفسير الظواهر الحياتية عن طريق هذه الطاقة ، خاصة الظواهر التي كانت عصية من قبل مثل الايحاء والاتصال من بعيد والسيطرة الايحائية أو عن طريق التنويم المغنطيسي والاحلام والمشاعر .

ويواصل الاستاذ الجليل بحثه ويشير الى ما يسميه بالدورة الحيوية والى الجهاز العصبي الذي يمثل الشبكة الاساسية لتلك الطاقة ثم يعرج الى موضوع الحواس الخمسة التي يصفها بأنها اجهزة اتصال الحيوان الطبيعية بما حوله ، ثم يتكأ اتكاءة العلماء ، التي يصعب

علينا ادراكها بكمالها وتمامها ، ويستخرج من التعريف للحياة ، وهو المقدرة على توليد واستغلال الطاقة الحيوية ، معادلة اركانها الثلاث الزمن والمسافة والكتلة ويقول انه نسبة لأن المخلوقات الحية تختلف عن الجمادات فان لها المقدرة على التفاعل الذاتي مع انواع الطاقة المختلفة وتحويلها الى طاقة حيوية وهذا التفاعل من شأنه ان يخلق معادلات اخرى توضح بجلاء كيف ان الطاقة بعناصرها الثلاثة تمثل مظاهر الحياة الاساسية فالزمن يمثل الوجود والمسافة تمثل الحركة والكتلة تمثل النمو . . . وهكذا .

ويلخص الدكتور العاقب في النهاية الى ان نظرية الطاقة الحيوية تعطي التفسير لكثير من الظواهر التي كانت تعتبر غير طبيعية مثل الايحاء والالهام . . . ويختتم بحثه بقوله انه ليس عجيبا ان تظل الطاقة الحيوية مجهولة حتى الآن ولكن العجيب ان تبقى كذلك وقد وصل الانسان الى ما وصل اليه بالنسبة للطاقات الاخرى والتي ليست لصيقة بحياته مثل الطاقة الحيوية وينادي بأن يراجع العلم موقفه من كثير من المظاهر التي اغترب عنها واعتبرها مما يدخل في نطاق ماوراء الطبيعة .

وما أصدق الحق :

« . . . انما يخشى الله من عباده العلماءُ » .

ونعوذ بالله من الجهل القاتل ومن الغرور الآثم .

صحيفة الأيام :

العدد : **١٠٤٨٩**

التاريخ : **١١ من ربيع الأول ١٤٠١ هـ**

الموافق **٦ من يناير ١٩٨٢**

الفهرس